ملف العدد

عــودة إلى المسألــة اللغـويّــة

د. الطـاهر لبيــب *

في العودة إلى المسألة اللغوية تذكير بأنّ هناك مسألة كبرى لم تحل. ويقوم التذكير على معاينة وضع وعلى إبراز مفارقة: المعاينة يختصرها القول بأنّ المجتمعات العربية لا لغة لها اليوم. ما فيها هو خليط من لغات يغطي الحياةَ اليومية، وقد يتسرّب «حسّ المشترك» إلى بعض فضاءات الفكر والتعليم. أمّا المفارقة فهي في تراجع الاهتمام بالمسألة اللغوية في الوقت الذي تتزايد فيه حدّتها. ويبقى، وراء المعاينة والمفارقة، غيابٌ عامٌ للوعي العربي بمسألة أصلية لا فرعية، من الغرابة أن لا تكون من مشاغل الفكر والسياسة وأن لا تكون مطلباً اجتماعياً أيضاً.

1 ـ نعــم ... ولكــن

اللغة العربية هي اللغة الوطنية الرّسميّة التي تنصّ عليها دساتير الدول العربية. ومهما كان واقع هذه اللغة فإنه لا وجود لخطاب رسمي أقدم على الحطّ من مكانتها "النظرية" كلغة حاملة للهوية ومعبّرة عنها، يجب الاعتزاز بها، كما تجب حمايتها. وهي، لذلك، لغة الخطاب الرّسميّ الموجّه إلى الشعب.

ليس هناك خطاب يقول "لا"، نظرياً، للّغة العربية، ولكن ليس هناك خطاب يقول "نعم"، عملياً. إجمالاً: هناك "نعم" مبدئيّة وهناك "لكنّ" إجرائية. تفسير هذه الازدواجية متعدّد الأبعاد والعوامل الداخلية والخارجية. وإذا اكتفينا بما هو رسميّ منها فهو يتلخّص في المعادلة المستعصي حلّها بين الرّغبة وإمكانات تحقيقها: كيف نجعل من اللغة العربية لغة المعرفة والمجتمع ـ وهو ما نريده ـ ونحن لا نملك الكفاءات الكافية لذلك (خاصة في مجال التعليم) ولا نملك المراجع العلمية باللغة العربية، كما لا نملك الرّصيد الاصطلاحي، إلخ...؟ وهي معادلة إزدادت تعقيداً وصعوبة مع الزمن، على الأقلّ من ناحيتين: من ناحية تسارع إيقاع المعرفة والمعلومات التي يجب استيعابها بـ"مواكبة" أسرع وبآليات مستحدثة، ثم من ناحية تفكّك الجهد العربي، في سياقه الرّاهن، ممّا يزيد من صعوبة حل مسألة لا حلّ جدياً لها، طويلَ المدى، إلاّ على صعيد عربي.

هذا الموقف وما حمله من تردّد ومن مدّ وجزر، عبر "تجريب" لا ينتهي ـ قبل الصّمت الجماعي الذي ترك حبل اللغة على الغارب ـ لم يعد تعبيراً عن ازدواجية بقدر ما هو تعبيرٌ عن خيار ضمنيّ يهمل أو يؤجّل المسألة اللغوية لصالح "ضرورات" الاندراج في العولمة وأسواقها المختلفة. وهو اندراجٌ لا تساعد عليه اللغة العربية، باعتبار أنها غير مهيأة له وأنها ليست من قنواته الناجعة. وبقطع النظر عن مبرّرات هذا الخيار فالواضح فيه أنه خيار القوى الاقتصادية المعنية بالربح المباشر والتي ليس لها استعداد للنظر إلى المسألة اللغوية من منظور وطنيّ أو قوميّ بعيد المدى، لأنّها غير مستعدّة للتنازل أو التضحية كقوى اجتماعية. هذا ينطبق بوجه خاص على ما سُمّي بـ"الأثرياء الجدد" الذين هم، إجمالاً، من جيل دخل الأسواق العربية بدون المرور بالهموم الوطنية والقومية التي كانت لأجيال سابقة. باستثناء حالات قليلة ليس هناك قرار واضح وحاسم وقابل للتنفيذ، ألزمت دولة عربية نفسها به في تعميم التعريب. القرارات بقيت قطاعية ـ بدءاً بالقضاء ـ مع مرونة كبيرة في التطبيق، لا سيما في التعليم، ومع توجّه إلى ترسيخ استعمال اللغة الاجنبية في بعض القطاعات الأساسية.

* أكاديمي تونسي ورئيس المنظمة العربية للترجمة.

اختصاراً، يبدو أن الازدواجية في الموقف تتّجه نحو الحل الأسهل الذي لا يمكن أن يكون لصالح اللغة العربية. هذا رغم أن الموقف الرسمي العربي لا من خلال مؤسسات العمل العربيّ المشترك - يكاد يخلو من الازدواجية، إذ هو صارم في توصياته، ما دام جماعياً، أي ما دام لا يلزم أحداً، ثم ما دام إنجاز دولة في التعريب - خلافاً لمجالات أخرى - يتوقف على إنجاز الدول الأخرى. وهذه صعوبة إضافية.

ومهما يكن فالنتيجة الأخيرة هي ما وصلت إليه أغلب الدول العربية من اعتبار أنّ استعمال اللغة الوطنية ليس من المصلحة الراّهنة والعليا للبلاد. وهو اعتبار ضمنيّ، غير مصرّح به، قد يبدو غريباً، ولكنه من واقع الممارسة: مصلحة البلاد المرتبطة بالعالم تتطلب استعمال اللغة الأجنبية. والعرب، في اعتبارهم هذا، يتصرّفون وكأنّهم الوحيدون الذين ينفتحون على العالم، وكأنّه لا وجود لمجتمعات تنفتح أكثر منهم على العالم ومستعملة للغاتها الوطنية في حدود جغرافية وديموغرافية بعضها أضيق من بعض بلدان العالم العربي.

2 ـ تجــارب غير مكتملــــة

كان التحمّس لإعطاء اللغة العربية المكانة التي تستحقها، في مرحلة ما بعد الاستعمار، ذا صلة ببناء الدولة الوطنية، وكان تعبيراً تلقائياً (سابقاً للتخطيط) عن التوّق إلى التحرر من مظاهر التبعية الاستعمارية. لقد كانت ترفع شعاره كل حركات التحرر الوطني في العالم العربي. لهذا أقدمت الدول العربية على تجارب متنوعة في تطوير اللغة العربية واستعمالها أصبحت، فيما بعد، موضوعَ تقييم تحت عنوان مألوف: "تجارب التعريب في الوطن العربي". وهي تجارب جرت العادة على تصنيفها إلى تجارب المشرق العربي وتجارب المغرب العربي، مع الاشارة أحياناً، إلى تجارب الأقطار العربية ذات الأوضاع الثقافية الخاصة) الصومال وجيبوتي وموريتانيا والسودان بأقليمه الجنوبي).

لا يتّسع المقام لتقييم تجارب التعريب في العالم العربي، ولو إجمالاً، لأنّ لكل تجربة سياقاً وخصوصية ولأنّ لها دوافع وعراقيل قد لا تكون لغيرها، خصوصاً إذا تجاوزنا الاعتبارات التقنية إلى الظروف والعوامل الاجتماعية السياسية. ومع ذلك، وللمقارنة فقط، تفيد الإشارة إلى أنّ التعريب مشروع قديم، نسبياً، في التاريخ العربيّ الحديث. وهو قد بدأ حكومياً رسمياً في بعض المناطق (كما كان الحال في عهد محمد علي في مصر)، بينما ارتبط بالدين، في مناطق أخرى، فكان تبشيرياً تقوم به الارساليات والأقليات (كما كان الحال في الشام). ثم أصبح، أواخر القرن التاسع عشر، عملا من أعمال الشرائح العليا في الطبقة الوسطى المنفتحة على الغرب، في أكثر من بلد عربي، فارتبط بمشروع نهضويّ تحديثيّ. بعض بلدان المشرق أوجدت له مؤسسات بعد الحرب العالمية الأولى (المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1919ومجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1932) قبل أن تشهد مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية عودة المطلب التعريبيّ إلى المجال الحكوميّ ليكون موضوع مشاريع رسمية في بعض هذه البلدان (ظهر أيضاً المجمع العلمي العراقي سنة (1947)، موازاةً لتبنّي حركات التحرر الوطني لا لا سيما في بلدان المَغرب العربي - شعار "اللغة العربية لغتنا" (1). وهو شعار حاولت الدولة الوطنية تلبيته بـ"نعم"، مع الاستدراك بـ"لكن".

هناك اختلاف في معنى التعريب، مشرقاً ومغرباً، بقي سارياً وقتاً طويلاً. والسّبب في ذلك راجع إلى اختلاف التجربة: كثيراً ما يقال بأنّ التجربة المشرقية مصطلحية، بالدرجة الأولى، إذ ارتبطت بظهور المجامع اللغوية وركزت على إصدار المعاجم. ولذلك كثيراً ما رأى المشارقة أن مشكلة التعريب في المشرق مشكلة جزئية لا تتجاوز حدود التعريب اللساني، في حين أنّها، في المغرب العربي، مشكلة أوسع من ذلك، تتصل بالتعريب الاجتماعي. وهذا ما يفسّر، عندهم، أنّ المغاربة أميل إلى النظريّ والمنهجيّ في تناول المسألة اللغوية، إجمالاً، والتعريب بوجه خاص.

هذا الاختلاف يجعل، في نهاية الأمر، من التعريب في المشرق فرصة استيعاب إرادي للمعارف وهضم للحضارة ويجعل من التعريب في المغرب فرصة دفاع عن الذات والهوية وتخلّص من الإرث الاستعماري ومن التبعية. والواقع أنّ هذه النظرة تعكس أحكاماً مسبقة، قديمة. ولعلّ من أشمل تعريفات التعريب ما اقترحته وثيقة رسمية صادرة عن وزارة التربية الوطنية بالمغرب الأقصى ومقدمة لمؤتمر التعريب الأول المنعقد بالرباط سنة 1961: "التعريب بالمغرب هو إحلال للغة العربية في التعليم محلّ اللغات الأجنبية، وتوسيع اللغة العربية بإدخال مصطلحات جديدة عليها، وإلزام الإدارة بعدم استعمال لغة دون اللغة العربية، والعمل على أن تكون لغة التخاطب اللغة العربية وحدها، والدعاية لها، ومقاومة كل الذين يناهضون لغتهم للتفاهم في ما بينهم بلغة أجنبية. وبالجملة فإنّ التعريب هو جعل اللغة العربية أداة صالحة للتعبير عن كل ما يقع تحت الحس وعن العواطف والأفكار والمعاني التي تختلج في ضمير الإنسان الذي يعيش في عصر الذرة والصواريخ»(2).

إن الاختلاف - حتى ولو افترضنا صحته - لم يعد قائماً اليوم: اليوم يشترك المشرق والمغرب في إهمال المسألة اللغوية، وفي سقوط مطالبها، اجتماعياً. إنهما يشتركان في عجز المجتمع عن التعبير بلغته الوطنية (لا أحد أكثر قدرة من الآخر على تسمية أواني الطبخ في بيته بالعربية!)، كما يشتركان في السماح للشارع بتعليم الأطفال أخطاء اللغة التي تزيّن واجهات المتاجر ولافتات الإعلان، وكذلك في السماح للكمبيوتر بأن يعوّض، كلما أراد، همزة الوصل بهمزة القطع! إنّ الظواهر من هذا النوع لا تحصى. ولعل أقساها وأقصاها ما يتردّد من أخطاء متلاحقة في اللقاءات العلمية وفي قاعات التدريس، سواء قرأ صاحبها أم ارتجل.

ومهما كان تقييم تجارب التعريب في العالم العربي، فإنّ هذه التجارب متوقفة بأشكال وبدرجات مختلفة، على الصعيدين الوطنيّ والقوميّ. وهي، على كلّ، لم تحل دون تراجع اللغة العربية.

3 - مؤسسات غير مسموعة

عند النظر في قائمة المؤسسات العربية التي تم بعثها، بأهداف واضحة، لصالح اللغة العربية يحصل انطباع بأنّ الوعي بالمسألة اللغوية كان وعياً قوياً وبأنّ الجهد المنتظر كان كبيراً والمردود واسعاً. هذا الانطباع صحيح إلى حدّ ما. هو صحيح باعتبار أنّ المرحلة التي بُعثت فيها هذه المؤسسات كان الوعي فيها بالمسألة أكثر عمقاً أو، على الأقل، أكثر تعبيراً عن نفسه من الآن. ثم إنّ الحرص الذي كان وراء إنشائها حرص فاعل أفضى إلى قرارات بشأنها. وليس من شك في أنّ هذه المؤسسات نشطت، بدرجات متفاوتة، وحققت بعض الإنجازات، في حدود إمكاناتها المتاحة، كما ليس من شك في أنّها وجدت، دائماً، من يتفانى في خدمة أهدافها. من هذه الوجهة، يكون من الحيف التقليل من الدور الرائد لهذه المؤسسات ومن الخطأ التفكير في مشروع مستقبليّ دون اعتبار تجاربها والاستفادة منها. على أنّ الانطباع الحاصل قد لا يصحّ من جهة مردود هذه المؤسسات التي بقي نشاط أغلبها وانتاجها محصوراً في فئات ضيقة من المستفيدين، بل وبقي محصوراً، بعض الأحيان، بين جدرانها. إنّه إذا كان بعضها لأ وخاصة ما كان وطنياً منها لأ ذا اشعاع أو تأثير، محلياً، فإنّ المردود يقل بقدر ما تتّسع الأهداف والأنشطة عربياً. هذه مشكلة حقيقية لأنّ البحوث اللغوية لا فائدة منها إن لم تُقرأ ولأنّ المصطلحات لا فائدة منها خارج الاستعمال.

من المهمّ أن يكون هناك علم بما هو قائم. لذلك يستحسن استعراض بعض أهم المؤسسات ذات الصلة باللغة العربية والتعريب، ولو كمجرد عناوين(3):

- المجمع العلمي العربي بدمشق (1919): تكاد مطبوعاته تنحصر في تحقيق التّراث ونشره، لا سيما في المجال الأدبي والتاريخي. له جهد في وضع مقابلات عربية لألفاظ أعجمية. يتابع سلامة اللغة ويراقب هفواتها. وله مجلته.

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة (1932): له، بصورة

خاصة، جهد واسع في وضع المصطلحات العلمية والفنيّة ونشرها، وفي تيسير اللغة العربية، نحواً وصرفاً وكتابةً. أصدر "المعجم الوسيط" وعكف سنين طويلة على وضع "المعجم الكبير" في اللغة العربية. له مجلته المختصة في البحوث اللغوية.

- المجمع العلمي العراقي (1947): وضع الكثير من المصطلحات العلمية ونشرَها، كما دقّق ونشر مجموعة من كتب التّراث. أصدر مجلته عام 1950.

- مجمع اللغة العربية الأردني (1976): اهتماماته أكثر لتصاقاً بما يطرحه الواقع اللغوي من مسائل في الأردن. يعالج اللغة بالتعاون مع الوزارات ويشارك في مشروع تعريب التعليم العالي، بما في ذلك ترجمة الكتب العلمية التي تدرّس في السنة الأولى في الجامعة. له مجلته.

- اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية (1970): ضمّ المجامع القائمة في العالم العربي (مجامع دمشق والقاهرة وبغداد وعمّان) وله أهداف تنسيقية، بما في ذلك في مجال توحيد المصطلحات، لكن ليس له حضور أو نشاط يسترعي الانتباه، شأنه في ذلك شأن "الاتحاد العلمي العربي" (1955) الذي تأسس ليضم الجمعيات العلمية العربية - ولكن دون أن يتواصل نشاطه.

- مكتب تنسيق التعريب بالرباط (1961): انبثق عن أول مؤتمر للتعريب منعقد في الرباط سنة 1961، وهو تابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. من أنشطته الأساسية توحيد المصطلحات على الصعيد العربي، اعتماداً على ما يجمعه منها ويعرضه على مؤتمرات التعريب التي تنعقد كل ثلاث سنوات. وهو يصدر "المعجم الموحد" للمصطلحات في مجالات معرفية مختلفة (عربي - إنجليزي - فرنسي).

- المنظمة العربية للترجمة (1999): منظمة غير حكومية وغير ربحيّة، هدفها نقل المعارف المتقدمة عن طريق ترجمة علمية يمكن اعتمادها. وقد بدأت في إصدار انتاجها.

- منظّمات عربية أخرى: لبعض هذه المنظّمات عمل رائد في مجالها، مثل المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس والمنظمة العربية للعلوم الإدارية واتحاد الأطباء العرب واتحاد الجامعات العربية ومركز تعريب العلوم الطبية بالكويت وغيرها. هذا إضافةً إلى بعض المؤسسات الوطنية المهتمة بالتعريب، مثل معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالمغرب ومعهد اللسانيات بالجزائر واللجنة السودانية للتعريب وغيرها.

4- تجديد الاعتبارات: تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003

"اللغة العربية في أزمة حقيقية، ولكنها أزمة قابلة للحلّ، إذا توفّر القرار السّياسي العربي". هذا ما يمكن استخلاصه من تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003، بخصوص المسألة اللغوية:

يعترف التقرير بوجود "أزمة" تعاني منها اللغة العربية في العالم العربي. وهو يلخّصها كما يلي: "اللغة العربية تواجه اليوم، على أبواب مجتمع المعرفة والمستقبل، تحدّيات قاسية وأزمة حقيقية: تنظيراً، وتعليماً، ونحواً، ومعجماً، واستخداماً، وتوثيقاً، وابداعاً، ونقداً" (ص.121). ومن جملة الظواهر العامة لهذه الأزمة "قصور الوعي بدور اللغة في تنمية المجتمع الحديث" و"عدم توافر سياسة لغوية على المستوى القومي".

وإذا كان هناك اعتراف بأزمة اللغة العربية التي يشير التقرير إلى أبعاد لها وظواهر مختلفة تعبّر عنها فإنّ في التقرير، كذلك، آفاقاً مفتوحة لحلّها. هناك "فرص" جديدة متاحة في مجتمع المعرفة، نتيجة تطوّر اللسانيات وتطور "هندسة اللغة" وإمكانات الإنترنيت في تطوير مواقع لخدمة اللغة واستخدام الكمبيوتر في المعالجة والترجمة الآلية وفي بناء المكانز العربية، إلخ... إنّ مجرّد الإشارة إلى هذه الفرص الجديدة قد يخفّف من الفزع المعهود أمام "الهوّة" الفاصلة بين العرب والآخرين كما يخفّف من الاحباط الذي اقترن به.

من أهمّ ما هو جديد في تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003 اعتباره اللغة من مؤشرات التنمية، خلافاً لما ساد من مؤشراتها في الأدبيات العالمية. هذا الاعتبار ينقل مبرّرات الدفاع عن اللغة العربية إلى المجال الاجتماعيّ ويكسبها عناصر قوة واقناع جديدة، بما في ذلك لدى صاحب القرار السياسي ولدى الفاعلين في المجال الاقتصادي أيضاً، إذا نظروا إلى المسألة في المدى البعيد.

من أهمّ ما هو جديد في التقرير، أيضاً، الرّبطُ بين منظومتين: المنظومة اللغوية والمنظومة المعرفية، مع اعتبار أنّ "منظومة اللغة العربية يمكن أن تكون مناط الأمل في بعث الحيوية في جميع أرجاء منظومة المعرفة" في المجتمع العربي (ص. 176). هذه مسألة أساسية لا بدّ من التّوقف عندها: الطموح هو "إقامة مجتمع المعرفة"، بأيد عربية. وهو طموح في وقت صعب، "في وقت تقوم فيه قوى خارجيةّ بإعداد العدةّ لإعادة ترتيب المَنطقة العربية" ولكنه إن لم يتحقق "فإنّ النتيجة المنطقية لاستمرار غياب المعرفة عن الوطن العربي ليست أقل من كارثة" (ص.161). علماً بأن هذا الغياب لن يعوّضه المال، في المدى البعيد، لأنّه "على خلاف الخطأ الشائع، فإن مستوى الثراء الاقتصادي لمجمل البلدان العربيةّ، كما بيّن تقرير التنمية الإنسانية العربية الأول، جدّ محدود، حيث لا يتعدى مجمل الناتج الاجمالي العربيّ نظيره في دولة أوروبية واحدة متوسطة الحجم مثل هولنده، أو إسبانيا" (ص.171).

إنّ السعي إلى إقامة مجتمع المعرفة لا يمثّل طموحاً حقيقياً ولا يحقّق مردوداً، طويل المدى، إلاّ باستعمال اللغة العربية أي بـ"استثمارها" فيه. هناك، إذاً، بعد تنموي للّغة، إضافةً إلى كل ما يقال عنها في مستوى الانتماء والهوية. وإذا اعتبرنا المجال الاقتصاديّ فقط فإنّ اللغة ترتبط به من جهة ما أصبح معروفاً باقتصاد المعرفة. إنّ "أركان" مجتمع المعرفة، كما حددّها التقرير، تؤكّد هذا البعد التنمويّ للّغة وتوسّع، في الوقت نفسه، مجالات تأثير استعمالاتها: حرية الرأي ونشر التعليم وتوطينَ العلم وإنتاج المعرفة وتأسيس نموذج عربي أصيل هي أركان / مشاريع لا تكون لصالح المواطنة والمواطنين ولا تستفيد منها الفئات العريضة في المجتمع إلاّ إذا حملتها لغتهم الوطنية. وكما هو معهود، من قبيل "الاحتياط"، فإنّ التقرير أشار إلى أنّ هذا لا يتنافى، طبعاً، مع ضرورة الانفتاح على الثقافات الأخرى وتعلّم اللغات الأجنبية.

إنّ رؤية التقرير للمسألة اللغوية تحمل، صراحةً وضمناً، مجموعة من المبرّرات الجدية، المطروح بعضها بطريقة غير معهودة، والتي يفترض، لهذا السبب، أن تكون مقنعة، بالقدر الكافي، لاتّخاذ قرار عربيّ قابل للتنفيذ من أجل حلٍّ، يكون تاريخياً، لهذه المسألة المستعصية حتى الآن.

5 ـ تحديد المبرّرات:

قامت الدعوة إلى النّهوض باللغة العربية، منذ قرن ونصف، وما زالت تقوم، في أغلب ما يُقال ويُكتب، على مقوّمات ومبرّرات ثقافية حضاريةّ، أساساً. وهي، في ذلك، موسومة بالنّزعة الهُويّاتيةّ ذات المرجعية التراثية التي تقوم بدورها على رؤية رصيدية للمقوّمات والثّوابت الرابطة أو الموحدّة للثقافة العربية.

صحيح أنّ بعض رجال النّهضة ثم بعض من جاء من مفكرين تحديثيين بعدهم ألحّوا على مبدإ عدم اقصاء اللغة العربية عن مشاريع النّهضة والتحديث، باعتبارها لغة غير عاجزة عن مواكبة العصر. غير أنّ العملية التحديثية في العالم العربي جرت، سياسياً، مجرى "نعم ولكن"، كما جرت، اقتصادياً، مجرى الخضوع لقانون السوق الذي اقتضى بطبيعته، ترك لغة لا تفيده. هذا المجرى الذي لم ترتبط فيه العربية بالحركية الاجتماعية فلم تأخذ مبررات وجودها منه جعل الداعين إليها يلتجئون، في الدعوة إليها، إلى فضاءات ثقافية تمدّهم بمبرّرات "مقنعة"، هي، في الواقع، من قبيل المسلّمات، ولكنها مجرّدة، لا تعكس تعقيدات الواقع ولا تأثير لها فيه. هذا رغم أنّ البعض

كان متفطناً، منذ البداية، إلى ضرورة ربط اللغة بالقطاعات الحيوية في المجتمع: التعريب، في مصر والشام، بدأ علمياً قبل أن يكون في الأدب والفنون، وأول ما كان تدريس الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت، منذ إنشائها سنة 1868، كان بالعربية، ثم كان ذلك في معهد الطبّ العربيّ في دمشق بدءاً من سنة 1919.

صحيح كذلك أنّه تمّ تناول "المسألة اللغوية" كمسألة اجتماعية سياسية. إنّ التركيز على مبرّرات الهويّة والانتماء لم يَحُلْ دون البحث عن "العوامل"، للإجابة عن سرّ عجز المجتمعات العربية عن التعريب. وفعلاً، تمّ النظر إلى المسألة من زوايا اجتماعية ثقافية (تخلّف، اغتراب، تبعية، طبقية، إلخ...) ومن زوايا سياسية (اللغة كمجال للسلطة، تركيبة النخبة السياسية البيروقراطية) كما تمّ النظر إليها من زوايا تقنية (صعوبة التعريب، عملياً وإجرائيا). كل ذلك تم على الصعيدين الوطنيّ والقوميّ.

وممّا يلفت الانتباه أنّ الكتابات والمناقشات التي تناولت مسألة اللغة كمسألة اجتماعية والتي وصلت أوجها أواسط السبعينات - لا سيما في المغرب العربي - تراجعت بعد ذلك إلى أن غابت أو كادت تغيب، منتصف الثمانينات. هذا رغم تنامي البحوث في اللسانيات. والمفارقة في هذا التراجع هو أنّ تغييب المسألة اللغوية يتم في مرحلة يعاني فيها المجتمع العربي، أكثر من أي وقت مضى، من عجزه اللغوي. وممّا يعمّق هذه المفارقة أنّ حل المسألة الذي كان مطلباً "تقدمياً"، باعتباره نهضوياً تحديثياً، غاب عن خطاب الحركات الاصلاحية والتغييرية ولم يبقَ منه إلاّ ما يردّده خطاب سلفيّ محافظ: لكأنّ اللغة العربية محكومٌ عليها بأن تستمد شرعيتها من ماضيها، دائماً.

لا شك في كونية العلاقة بين اللغة والهوية (وهو ما لا خصوصية للعرب فيه إلاّ من جهة البعد الدينيّ أو القدسيّ للغة العربية)، ولكن حصر المسألة اللغوية في مجالها الثقافي يختزلها كمسألة مركبة، متعدّدة الأبعاد، كما أنّ ربطها بما هو متجَوْهر كالهويّة، في معناها السكوني السائد، يُفقد مقاربتها كثيراً من عناصر حداثتها. إنّ تبرير المطلب اللغوي بمجرد الإنتماء والهوية - بقطع النظر عن صحة منطلقاته - أصبح تبريراً متكرراً، ولربما ممجوجاً. وهو في كلّ الحالات، لم يعد مقنعاً لا عند من سمعوه طويلاً من أصحاب القرار السياسي ولا عند من لم يسمعوه من أصحاب المنفعة في المجال الاقتصادي.

لقد حان الوقت للاعتراف ببديهية أنّ اللغة تحيا وتموت وأنّ الذي يحييها ويُميتها ليس رفعها شعاراً للانتماء والهوية أو عنواناً لماض مجيد وإنّما فاعليتها في التعبير والفعل، لا سيماً في المجالات الحيوية في المجتمع. إنّ فقدان هذه الفعالية - كما يراها أصحاب النفوذ السياسي الاقتصادي - هو الذي حدّد، قبل غيره، مصير اللغة العربية في أوطانها. ميدانياً، ليس هناك، بالضرورة، تطابق بين الدفاع عن الهوية واستعمال اللغة العربية. التطابق هو بين استعمال اللغة والفاعلية.

إن تطوّر الأوضاع العربية والعالمية وما استجدّ فيها من توجّهات ومطالب، من ناحية، وتطوّر البحوث في اقتصاد المعرفة وفي آليات تطوّره، من ناحية ثانية، يُتيحان، اليوم، صياغة أو إعادة صياغة مبرّرات قد يكون لها حظ أوفر في اقناع أصحاب القرار العربي بضرورة حلّ المسألة اللغوية، عربياً، وفي إقناع أطراف دولية وإقليمية بالتعاون معهم في ذلك. هذه المبرّرات التي يمكن استيحاؤها من كتابات جديدة ومن مناقشات جارية هي مبررات متكاملة، وإن كان يمكن أن تتفرع كثيراً. إنّ ما هو مقترح منها، هنا، حدّده الحرص على إبراز ما لم يكن بارزاً منها بالقدر الكافي في المقاربات السائدة حتّى الآن. وهي وإن كانت مذكورة باختصار، إلاّ أنّها تُحيل على مستويات معرفية واجتماعية واقتصادية وسياسية وتصبّ كلّها في المشروع التنمويّ للبلدان العربيّة.

5 - 1 - اللغة من مؤشرات التنمية: إنّ "مؤشرات التنمية" المعتمدة عالمياً لم تتعوّد إدراج اللغة ضمن هذه المؤشرات لأنّ واضعيها لا تعاني مجتمعاتهم ما

تعانيه المجتمعات العربية من تخلّف لغوي. وبما أنّ اللّغة هي الحامل الأساسيّ والأول للتّواصل في كلّ المجالات وفي أي مجتمع فإنّ تخلفها هو، بالضرورة، مؤشّر أساسيّ وأول عن تخلّف المجتمع. وليس من شك في أنّه إذا تمّ، يوماً، اعتماد مؤشر اللغة ضمن مؤشرات التنمية (وهو أمر وارد، مبدئيا) فإنّ ذلك سيضيف عقبة جديدة إلى سلّم الترتيب التنموي أمام العالم العربي، جملةً وتفصيلاً. وبقطع النظر عن هذا الاعتبار الخارجي فإن اللغة مؤشرّ داخلي، أولاً. إنّ المقولة الأساسية التي يجب النظر إليها بجديّة كافية هي أنّ المجتمعات لا تنمو بدون لغة وإنّ الإنطباع الحاصل، حتى الآن، بإمكانية ذلك هو انطباع ظرفيّ سيتغيّر عند ما تتعقد المسألة اللغوية إلى حدّ يتضح فيه أنها فعلاً عائق حقيقيّ دون التنمية في معناها الشامل. علماً بأنّ مجتمعات كثيرة (وبعضها قليل المساحة والسكان) تنبهَت إلى هذا الخطر، بما في ذلك من وجهة تنموية.

5 ـ 2 ـ توظيف المعرفة لا يكون إلا باللغة الوطنية: إذا كان بناء مجتمع المعرفة هدفاً حقيقياً وموضوع اقتناع فإنّ هذا البناء لا يكفي فيه استيراد المعرفة في شكل "منتجات" علمية حديثة. ذلك أنّه "ثبت قطعياً أنّ استيراد منجزات العلم والتقانة الأحدث لا يعني بالضرورة انتقال المعرفة المجسدة فيها أو حتى تبنّي أنماط السلوك البشري المتسقة معها" (تقرير التنمية، ص. 169). إن بناء مجتمع المعرفة يتطلّب تطوير القدرة على استيعاب المعرفة، أولاً. وهذا الاستيعاب لا يتمّ ترسيخه أو توطينه في المجتمع إلاّ من خلال منظومة اكتساب لها أبعادها الاجتماعية والثقافية وتُمثّل اللغةُ فيها الحاملَ الأساسيّ للتّعبير عن ذلك كلّه. كثيراً ما يكون الحديث في الخطاب الفكريّ والسّياسيّ عن "تأصيل" المعرفة ولكنّ مرجعية هذا الحديث غالباً ما تبقى مرجعيّة هلاميّة (كمفهوم الأصالة)، بدون التطرّق إلى آليات التّوطين التي تأتي اللغة، بالضّرورة، على رأس قائمتها. لا بدّ، إذاً، من الحسم في مشروع توطين المعرفة: إذا كان مشروعاً حيوياً، **كما يقال** عنه، ولم يكن مجرد شعار مرفوع فإنّه لا بدّ من مواجهة المسألة اللغوية التي لن يكون لهذا المشروع وجودٌ فعليّ بدون حلّها.

5 ـ 3 ـ اللغة العربية لغة الاقتصاد العربي، على المدى الطويل: تبدو هذه المقولة وكأنّها من المفارقات لأنّ التهميش المزمن للغة العربية في العالم العربيّ جعل النّخب الفكرية والسياسية وكذلك المواطن العادي يستبطنونه، وكأنه حالة طبيعيّة لا تسترعي الانتباه. هذا بشكل عام. أمّا في المجال الاقتصادي فالأمر أدهى لأنّ فكرة البديل غير مطروحة، باعتبار أنّه من "المفروغ منه" أنّ الشؤون الاقتصادية، وخاصة التجارة، لا يمكن استعمال اللغة العربية فيها (محلياً وعربياً وعالميا)، إذ استعمالها يعرقل المصالح.

هذه الرؤية البراغماتية صائبة فقط من منظور الرّبح المباشر أو الفردي الفئوي. وهي غير صائبة من منظور وطنيّ أو قوميّ وعلى المدى البعيد الذي هو مدى التنمية المستدامة. هي غير صائبة، حتى من منظور اقتصادي بحت: هناك، الآن، دراسات علمية كافية عن المردود الاقتصادي لاستعمال اللغة الوطنية في مجالات الانتاج والخدمات: إنّ ما تساعد عليه اللغة الوطنية من استيعاب المعرفة والمعلومات ومن قدرة على الابتكار ومن ربح في الوقت، إلخ... يمكن حسابه اقتصادياً، على صعيد وطني(4).

أما في مستوى مشاريع العمل الاقتصادي العربي المشترك فلا شك أنّ المسألة تصبحُ أكثر وضوحاً: إذا كانت هذه المشاريع واردة ـ ومنها سوق عربية مشتركة قد ترى النور يوماً ـ فإنّه من المنتظر أن تكون لغة التعامل هي اللغة العربية، وذلك لأسباب مختلفة منها أسباب عمليّة. ولكي لا تصبح اللغة العربية عائقاً للمشاريع العربية، أيضاً، فإنّ التهيئة اللغوية تبدو مستعجلة في المجال الاقتصادي، تحديداً، لأنّ هذا المجال لن يتحمّل تسيّب اللغة السائد في مجالات أخرى.

5ـ 4 ـ اللغة الوطنية من مؤشرات السيادة الوطنية:

يستعمل السياسيون العرب اللغة العربية عندما يتوجّهون إلى شعوبهم وفي المناسبات الرسمية، مع ميل البعض منهم إلى استعمال الفصحى. وليست هناك، حتى الآن، حالة سياسية عربية في استعمال اللغة الأجنبية في مخاطبة الشعوب العربية. هذا الحرص على استعمال اللغة الوطنية في الخطاب السياسيّ، رغم هامشية هذه اللغة في مجالات أخرى، هو اعتراف بأنّ لغة التعبير السياسي عند السلطة هي اللغة العربية. وإذا كانت اللغة الوطنية هي اللغة التي تعبّر بها السلطة السياسية عن سيادتها وعن شرعيتها فمن المنطقي أن يكون التمسك بهذه اللغة عنوان سيادة تجاه الخارج، أيضاً.

إنه لم يعد خافياً على أحد أن اللغة ليست مجرد وسيلة لسانية وإنّما هي مجال للمراهنات والمزايدات السياسية محلياً، كما هي مجال للتّنافس دولياً، في مستويات مختلفة، بما في ذلك المستوى الاقتصادي. إنّ الدولة التي تعمل على نشر لغتها تعلم أنّها لا تقوم بذلك لأهداف ثقافية بحتة أو لطمس هوية الآخرين، كما يقال، وإنّما تقوم بذلك لصالح أسواقها، بالدرجة الأولى. ويبدو أنّه ممّا لم تتبيّن خطورته بالقدر الكافي هو هذا الوضع الذي يتم فيه التركيز، بدافع الانفتاح، على فائدة تعلّم اللغات الأجنبية (وهو تعلّم لا شك ولا نقاش في ضرورته) ولكن بدون التركيز، أيضاً، على الوجه الآخر المتمثّل في تحمّل البلدان العربية تكلفة تعليم اللغات الأجنبية لصالح رؤوس الأموال الأجنبية، إذ هي تستفيد من ذلك ولا ترى، بالتالي، ضرورة الاستثمار في تعليم لغة هذه البلدان.

وبما أنّ العولمة مقترنة، إلى حدّ كبير، بتراجع سلطة الدولة الوطنية على أسواقها، فإنّ اللغة تبدو، أكثر من أي وقت مضى، رهاناً قوياً في مستوى السيادة الوطنيّة.

5ـ 5 ـ تطوير المجتمع المدني والديمقراطية مشروط باستعمال اللغة العربية:

أول ما كان الربط بين الديمقراطية واللغة كان في سياق مشروع "دمقرطة التعليم" التي كان يفترض أنّها تستدعي التّعريب. ويبدو أنّ هناك قناعة حصلت، مع الزمن، بأنّ التعليم يمكن أن ينتشر بلغات أجنبية: أن ينتشر، أفقياً، ولو بدون توطين للمعارف التي يحملها.

المجتمع المدنيّ فضاء للتعبير الفرديّ والجماعيّ عن الحريّات. ولأنّ "حرية التعبير" ليست حرية فقط وإنّما هي تعبير عن الحرية، أيضاً، فإنّ وسيلة التعبير أساسية. هناك حديث عن الوسائل القانونية والمؤسسية، ولكن لا حديث عن الوسيلة الأولى التي هي اللغة. ما هي اللغة المؤهلة للتعبير عن حرية الرأي وعن دَمَقْرطة المجتمع؟ من غير الممكن، أولاً، أن تكون لغةً أجنبية، لا لأنّها أجنبية ولكن لأنّها تبقى ـ مهما انتشرت ـ لغة بعض الشرائح أو الفئات أو النّخب. هذا أمر مفروغ منه، لكن المسألة قد تكون مطروحة في مستوى التمييز بين الفصحى والدارجة. ليس من شك في أنّ اللغة الدارجة أو العامية هي الأكثر انتشاراً واستعمالاً في التواصل اليومي، لكن المشكلة التي تطرحها هذه اللغة أنها ـ إضافةً إلى أنها غير مكتوبة ـ تعبّر عن "الحس المشترك" بدون القدرة على صياغة المفاهيم العلمية وعلى نشرها. ولذلك فهي، في مجال التعبير عن الحريات، تبقى غير دقيقة وملتبسة وقابلة للتأويل كثيراً.

هكذا لا نرى إمكانية نشر المفاهيم والقيم والمقولات الجديدة كتلك التي تتّصل بالتّغيّر الاجتماعي أو بالثقافة السياسية أو بالعقلانية والمواطنة والحقوق بدون لغة متطوّرة لها حدّ أدنى من الدقّة. هذه اللغة لا يمكن أن تكون اللغة الدارجة ولكنها ليست بالضرورة اللغة الفصحى الكلاسيكية التي تحتاج، بدورها، إلى تيسير تراكيبها وقواعدها. ومعلوم أنّ هناك دعوة، منذ عقود، إلى "لغة وسطى" يبدو أنّ الاستعمال يتجه نحو ترسيخها، وخاصة في وسائل الإعلام المختلفة.

6 ـ ما العمل؟:

رغم التّجارب التي تراوحت بين "نعم، ولكن" ورغم جهد المؤسسات العربية القائمة، من الواضح أنّه لا وجود لسياسة لغوية على الصعيد العربيّ، وبالتالي لا وجود لاستراتيجية عربية لحلّ المسألة اللغوية. والافتراض، بخصوص الأسباب، هو أن الجهد الفكريّ العربيّ وما نتج عنه من توصيات لم يتجاوز، في مجمله، المسلّمات التقليدية، لذلك فهو لم يقدر على شدّ اهتمام أصحاب القرار السياسي بتحليل أعمق للأزمة اللغوية وبإبراز أوضح لانعكاساتها السلبية، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، على مستقبل المجتمعات العربية. أما الافتراض الثاني فهو، من ناحية، أنّ مبرّرات التخطيط العمليّ لحلّ الأزمة اللغوية، أصبحت، اليوم، واضحة ومقنعة، وهو، من ناحية ثانية، أنّ القرار السياسي المنتظر لا يمكن إلاّ أن يكون على صعيد عربيّ لأنّ طبيعة المسألة تتطلب تكامل الجهود وتنسيقها، عربياً، ولا قدرة لدولة منفردة على حلّها، مهما بذلت من جهد.

ما العمل؟ الجواب الأول هو أن يكون العمل عملاً ملموساً يتجاوز، بل يُنسي فشلَ القرارات والتّوصيات التي بقيت حبراً على ورق. والجواب الثاني هو أن يكون العمل في حجم المشكلة، وعلى المدى البعيد الذي يتطلب تخطيطاً استراتيجياً ذا مراحل متعاقبة يتراكم فيها الإنجاز ونتائجه ويُفضي بعضه إلى بعض. وغنيّ عن الذكر أنّ ما يتقرر في هذا الاتّجاه لن يكون ذا جدوى إن لم تلزم به الدول العربية، رسمياً، ليكون عملاً جماعياً متكامل الجهود والتنسيق.

إنّ حل المسألة اللغوية يحتاج إلى جهد فكريّ وتقنيّ عربيّ كبير، كما يحتاج إلى مؤسسة كبرى، جادّة وفاعلة تنسّق هذا الجهد وتتابعه من منظور استراتيجيّ طويل المدى. هناك مشاريع مطروحة منذ زمن بعيد، بطرق مختلفة تحتاج إلى إعادة نظر، ولكنّها لا تزال مطروحة وبأكثر حدّة مما مضى. من ذلك مشروع تيسير اللغة العربيّة وتعريب الإدارة والتعليم، يضاف إليها تعريب المعلوماتية وإنشاء مرصد للمصطلحات، إلخ... في انتظار كلّ هذا، يمكن الاكتفاء بالدعوة إلى مشروعين قابلين للإنجاز في مستوى البلد الواحد ولا يتطلّبان غير القرار والتحفيز:

6 ـ 1 ـ بعث لجان وطنية لسلامة اللغة العربية:

الهدف الأول من هذه اللجان المساهمة في إيقاف التّدهور الذي أدّى إليه التسيّب اللغوي، لانعدام أيّة رقابة لغوية. وهو الأمر الذي جعل الأخطاء تنتشر، علناً، إلى حدّ أن البعض يرى أنّ الظاهرة متعمّدة في بعض البلدان العربية ... هذا في حين أن نشر الخطإ اللغوي كان يجب أن يخضع لإجراءات قانونية رادعة، باعتبار أنّه يلحق الضّرر (المعرفي) بالمواطن، وخاصة بأطفال وشباب المدارس، إضافة إلى مسّه بأهداف المؤسسة التربوية الرسمية نفسها.

إنّ بعث لجان وطنية لها صلاحية التدخّل، من أجل المحافظة على سلامة اللغة العربيّة، له طابع استعجاليّ. وهو سيكون مؤشراً أول لاتّخاذ الدولة مسألة اللغة مأخذ الجدّ. أمّا مجالات العمل فهي متنوعة، تأتي في مقدمتها وسائل الإعلام والإعلان (أو الاشهار) وكلّ ما هو مكتوب في الفضاءات العموميّة، من نوع لافتات المحلاّت التجارية وحتى بعض المؤسسات الحكومية كالمطارات وغيرها.

وبما أنّ كتابة الإعلان (أو الاشهار) باللغة الدارجة أصبحت ظاهرة واسعة الانتشار في بعض البلدان العربية فإنها ـ من ناحية لسانية فقط ـ تحدث التباساً في ذهن القارئ لأنّها مكتوبة، من ناحية، ولأنّها لا تحترم قواعد المكتوب الفصيح، من ناحية ثانية. لهذا سيكون دعماً قوياً لسلامة اللغة العربية منع أو تقنين الكتابة بالدارجة، الموجّهة إلى عموم الناس.

6 ـ 2 ـ تطوير الترجمة:

لا تستفيد العربية من التّرجمة في نقل المعارف فقط وإنما تستفيد منها في تطوير ذاتها، كلغة أيضاً. الترجمة ليست، مجرد انفتاح على الثقافات الأخرى وإنّما هي، دائماً، نشاطٌ يغذّي اللغة غذاءً لا تقوى بدونه، مثلما يغذّي الفكر وينمّي المعارف. إنّ إقرار مشروع ترجمة يغطّي حاجات العالم العربيّ المعرفية

ويخدم اللغة العربية، في الوقت نفسه، هو مشروع نهضويّ تحديثي يساعد كثيراً على سدّ الفجوة في مجالات كثيرة بين العالم العربي والبلدان المتقدمة.

لماذا نترجم؟ وماذا نترجم؟ ولمن نترجم؟ وكيف نترجم؟ هذه أسئلة بديهية ولكنّها تحتاج إلى دقّة الإجابة. إنّها أسئلة تطرحها المشاريع المؤسسية ولا تطرحها، بالضرورة، المشاريع التجارية الهادفة إلى الربح والتي تضيق الأسواق برداءة ترجماتها. لقد ذكرت التقارير الدولية العرب بأنّ ما ترجموه منذ عهد المأمون إلى اليوم ليس أكثر مما يترجمه بلد واحد من جنوب أوروبا في عام واحد! هذا من حيث الحجم. أمّا من حيث النوع فالوضع أدهى لأنّ فيا تنكيلاً بالفكر. إن المتفحّص لعيّنات واسعة من الكتب المنقولة إلى العربية لا يبالغ إن رأى - مع هامش تسامح - أنّ خمسة في المائة منها فقط يمكن الاطمئنان إليه واعتماده علمياً. وفي البقية فضائح والكلمة في محلّها - لا تعبّر عن قصور في الجهد فقط وإنّما عن فقدان الأمانة العلمية والأخلاقية أيضاً هذا يعني أنّ أغلب ما ينتشر من ترجمات يسيء إلى الفكر المنقول كما يسيء إلى متلقّيه ويساهم في تشويه معارفه.



الهوامش والإحالات

1ـ انظر تعقيب شاكر مصطفى، في التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1986.

2ـ عن المرجع السابق، ص38.

3ـ هناك وثائق وكتابات عن كل مؤسسة، وللحصول على معلومات مختصرة، انظر عبد العزيز بن عبد الله "مؤسسات التعريب في الوطن العربي: عرض وتحليل وتقديم نقدي"، مع ضرورة تكملته بالتعقيب الدقيق لعبد الكريم خليفة، المرجع السابق ص. 113–140. والمعلومات الواردة هنا مأخوذة عنهما. وقد تحتاج إلى تحديث.

4ـ أنظر على سبيل المثال، محمد مراياتي، "دور ترجمة العلوم والتكنولوجيا في النمو الاقتصادي العربي". ورقة مقدمة لندوة "النهوض بالترجمة"، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 28ـ29 / 1 / 2002.

التّرجمة
بين كونية المعرفة وخصوصيّة الثّقافة

أ. د. عبد السلام المسدّي *

عندما نواجه بالمقابلة المباشرة موضوع "التّرجمة ومجتمع المعرفة" تتعيّن علينا المبادرة بالاستفسار : أنحن حيال صياغة معرفية أم نحن حيال صياغة نمطية تندرج ضمن نسق ثقافيّ أوسع وأشمل؟

لا بد من إيضاحات أوليّة تتصل بالسّياق التركيبيّ الذي نصوغ فيه مدار بحثنا :

أ- ماذا تعني عبارة «مجتمع المعرفة» في ذاتها أوّلا وفي نشأتها التاريخية ثم في سياقها المحدّد بهذا المقام؟

ب- ماذا نعني نحن بالترجمة في هذا الفضاء الفكريّ المقترن بتحديد خصوصيات المعرفة؟

إن محاولة الإجابة هي التي ستمكننا من أن نؤسس وجاهة الطرح الفرعيّ الذي يتناول الترجمة بين كونية المعرفة وخصوصية الثقافة. عندها سيتسنّى لنا أن نطرح الموضوع برمته في سياق المشهد الكوني الجديد، ذاك الذي يتّسم بانكشاف القناع عن المرمى البعيد من فلسفة العولمة السائدة والذي يتمثل في أن التفوّق العسكريّ والسطوة الاقتصادية ثم التّنفذ السياسيّ لا بد أن يفضي جميعها إلى الاستفراد الثقافيّ بحيث يصبح كالضرورة السعي إلى تفتيت الهويّات المصاحبة مهما كانت عراقتها وحجم مرجعياتها.

وسيتيح لنا كل ذلك أن نستدعي قاعدة الإجماع في التاريخ الإنسانيّ من خلال موقف رواد التراث العربي من حيث هو ملك مشاع بين الحضارات الإنسانية لننتهي إلى التساؤل الملحاح : بأي وسيلة أدائية لا على مستوى التواصل - نعتزم نحن العرب اقتحام المستقبل للانخراط في المشهد الاستشرافيّ. فكيف صيغت عبارة "مجتمع المعرفة" إذن؟ وما هو المسكوت عنه في تاريخها المعلن والشائع ممّا لا يتطرّق إليه التداول لغياب الإحساس بدلالة النشأة الجنينية لأدوات التعبير ؟

إن الحلقة المفقودة في شرح الشرّاح لعبارة "مجتمع المعرفة" هي أنها قد نسجت على منوال عبارة أخرى، وليس انتساجها ذاك بغاية المماهاة قطعا، ولكنّه أيضا لا يبوح بأنّ مرماه قائم على المضادّة، إنّها عبارة "مجتمع الاستهلاك" ففي مستوى التركيب الأدائي نرى كيف انتظمت إضافة المفهومين على أساس إضافة الفاعل إلى فعله من حيث إن المجتمع هو الذي يستهلك.(1).

وحصيلة الإضافة بين عنصرين هما — في التّجريد الذهنيّ — يتكاملان إسنادا لبناء جملة تامّة أنّنا نخرج من اللغة الواصفة للارتباط إلى مفهوم واحد متفرّد هو "المجتمع لا الاستهلاكي".

ولئن تولّد ذاك المتصوّر الذهنيّ من حيثيات اقتصادية أشاعها خصوم الليبيرالية التي لا تعرف حدودا تقف عندها ثمّ تبناه روّاد الاقتصاد الحر أنفسهم وأنصار آليات السّوق فإنّ عبارة "مجتمع المعرفة" تولّدت من رؤية مغايرة دون أن تكون مضادّة، ومدارها رؤية أخرى في علاقة العنصر الاقتصاديّ بالعنصر البشريّ ومرجعياتها فلسفة إنسانية ترمي إلى جعل المادة تحت سيطرة الإنسان

* أكاديمي تونسي معروف.

بدلا من اعتبار الآدمي محكوما بضرورات المادة ومستعبدا بالمنتج المادي.

مجتمع الاستهلاك يحكمه تطوّر الإحساس بأنّ ما كان كماليا يصبح بفعل العادة ضروريا، ومجتمع المعرفة يحكمه الارتقاء من الاستجابة لظواهر الوجود إلى فكّ أسرار ظواهر الوجود. في مجتمع الاستهلاك يجري الإنسان وراء المياه المعدنية مستمتعا بفوارق الذائقة مهما رقت واختفت، ومتباهيا بزينة أغلفتها على قوارير الزجاج أو طلاء المعادن أو ألوان البلاستيك، وفي مجتمع المعرفة يقف الإنسان على ما لا يقف عليه في الحالة الأولى: يقف عند نسب الأملاح ونسب المعادن الممزوجة في الماء بعد أن يكون عرف ما قد يكون إنسان الحالة الأولى قد جهله وهو تركّب سائل الماء من غازي الهيدروجين والأكسجين.

مجتمع الاستهلاك أو مجتمع المعرفة صيغتان من قالب توليديّ واحد، والدلالة المختزلة هي في الأولى: المجتمع الذي يستهلك المنتج المادي بوفرة، وفي الثانية: المجتمع الذي يتمثل المنتج المعنوي بفيض وغزارة. الأولى استنفاد لثمرات المنجز من الجهد الآدمي والثانية تهيئة لسيطرة الإنسان على تحديات الوجود الطبيعي. في الأولى يقف الإنسان بالزمن عند الحاضر كثمرة لما يسبقه من زمن مضى، وفي الثانية يقف مستشرفا القادم من الزمن بعد تثبيت الرّاهن منه.

من هذا الباب نلج إلى فاعلية الصياغة بعد أن نستشفّ توالدها ونختبر نسيجها في التعبير والأداء. إنها تتمثل في الاختزال الشديد الذي يتحوّل إلى ما يشبه الحصر ناهيك أنّ العبارة تغدو متحلية بخصائص التسمية: "مجتمع المعرفة" هو قول يقوم مقام الحدّ في علم الدلالة كما في علم المنطق، كأنّ الوارد فيه هو على سبيل الجمع والمنع: جمع الصفات الملازمة وإقصاء ما قد يتسرّب معها من سمات غير ملازمة. "مجتمع المعرفة" هي إذن العبارة المحايثة لمدلولها كأدقّ ما تكون المحايثة.

وإذ نحن بصدد استشفاف المضمّنات بين صيغ الأداء وبصدد استقراء التناسل السلاليّ لآليات التعبير فإنّ من موجبات الاستيعاب الاختباري أن نقف عند الصيغة الأجدّ بعد الصيغة الأقدم، فكثيرا ما يكون للاّحق فضل على السّابق عند عملية الشّرح السّاعي إلى التفسير، فالذي تمّ استحداثه ضمن آليات الخطاب العابر للثقافات بعد صيغة "مجتمع المعرفة" هو صيغة "مجتمع المعلومات" وقد مثل هذا الاستحداث حفرا إضافيا في نسيج المعرفة لأنّ فيه تعديلا لوجهة "العلم" المشاع بين الناس ومجتمعاتهم، وكان في مفهوم "المعلومات" حشر واحتشاد لآفاق متعددة: المعلومة، والإخبار عنها، وتوظيفها، وحقّ الجميع في الوصول إليها.

«مجتمع المعرفة» هو إذن متصوّر ذهني تناسل من مفهوم "مجتمع الاستهلاك" ثمّ تناسل منه مصطلح "مجتمع المعلومات" خرجت تركيبة الصّياغة من الدلالة الناصة بذاتها إلى دلالات حافة يحكمها الإيحاء. كان الخروج بيّنا على مستوى الأداء اللغوي، فالقالب التركيبيّ ما أن انبثق حتى تلبّس بثوب "الشعار" لأنّه يختزل المسافات للإعلان عن موقف مبدئيّ من الأحداث، أو للتعبير عن خيار قطعيّ من الظواهر السائدة في الاجتماع الإنساني، أي في علاقة الفرد بالجماعة ثمّ في علاقة الجماعة بأعراض الوجود.

إنّنا بكل هذه العبارات الواردة على منوال هذا القالب الصّوغيّ نتعامل مع كثافة عليا من الشّحن الدلاليّ كما لو أنّنا حيال قرص مضغوط فيه متصوّر مركزي تنبثق منه أشعّة ترسم بأطرافها دائرة الحقل التداوليّ الواسع. إنّها "عبارة" تقوم مقام «المانيفست» في مجال التنظير الشّامل.

ليست عبارة "مجتمع المعرفة" إذن من المفاهيم التي يحاصرها الكشف الدلاليّ بالأدوات التقنية في الوصف التداوليّ وإنّما هي جارية مجرى الرّصيد المشترك من المعجم اللغوي رغم تلبّسها بمراسم المصطلح الفنّيّ الذي يُلحقها بالرّصيد المختص. وقد لا نغالي في الافتراض المنهجيّ إن نحن أدرجناها ضمن القاموس السياسي المستخدم في الترويج

للمسوّغات الكبرى التي تثوي وراءها أضرب من المصالح يسكت أصحابها عنها قصدا وتدبيرا. والذي قد يشفع لهذا الطرح الافتراضيّ هو ما شاهدته ساحة التداول الإعلاميّ من توظيف هذا القالب التركيبيّ حين تمّ جرّه إلى سياقات ناشئة فتمّ الحديث عن "مجتمع السلم" كشعار تقاوَم به نزعة التعدّي والاجتراح في روابط المنظومة الدولية، وبناءً على هذا الصوّغ تمّ ابتعاث الزوج الرديف لأ على مبدإ المضادّة المفهومية لأ فعقُد التقابل النقضيّ بين "مجتمع السلم" و"مجتمع الحرب".

غير أن المتصوّر المنبثق من "مجتمع المعرفة" قد اتّسع مجاله اتّساعا شمل مخططات العمل السيّاسيّ في دوائره المتدرّجة من الخطط المحلية إلى الخطط الإقليمية ثم الدولية. لقد أصبح الأمر بالمراهنة على الثروة البشرية أكثر من الاستكانة إلى الثروة الطبيعية، فموارد الأرض تقف عند حدود مادتها كمّا ونوعا وموارد الطاقة الإنسانية خلاّقة لا تعرف الحدود. وبوسعنا أن نربط مفهوم "مجتمع المعرفة" بمفهوم "الموارد البشرية" كمتصوّرين إجرائيّين في الخطاب السائد منذ ثلاثة عقود، إنّ المورد البشريّ هو الخامة الفكرية المتجدّدة بطبعها، لذلك عدّ الذكاء البشريّ من أعظم المخزونات التي ينهض عليها ازدهار المجموعات الثقافية.

وبناء على ما سلف يتّضح لنا السلك الرابط الذي يتخلل نسيج المفاهيم الفعالة بتأثيرها المباشر في سلوكيات السياسة الإنسانية. فمن المعلوم بداهة أنّ اقتران "مجتمع المعرفة" بعبارة "الموارد البشرية" يقذف به في صميم سياسات التربية والتعليم والتكوين، ثمّ يضعه وجها لوجه أمام المعادلة الصعبة التي طرفاها التعليم وسوق الشغل. ولنا أن نواصل السير على درب الاستكشاف من خلال مراسم الخطاب بلوغا إلى منظومة الآليات المتحكّمة في المصير الإنسانيّ. ويكاد أن يكون متعينا أن نصل "مجتمع المعرفة" عندئذ بنظرية التنمية من حيث هي الفكرة المضادّة التي تقاوم نظرية الحدّ الديمغرافي. وفي ذاكرة الجميع أن "المؤتمر الدوليّ" للسكان والتنمية" الذي عرف تحت اسم "المؤتمر الديمغرافي وانعقد في القاهرة (5-13 سبتمبر 1994) جاء يكرّس نظرية الموارد البشرية، وذلك بغاية الحد من شطط نظرية التقليص الديمغرافيّ كما تكرّست في مؤتمر بوخارست (1974) ومؤتمر المكسيك (1984).

إنّ "المورد البشري" قد حوّل فكرة "مجتمع المعرفة" إلى آلية تحقّق إنجاز مفهوم "الرأس المال البشري" من حيث هو المورد الطبيعيّ الذي يتّصف بالشمّول والدّوام لأنّه طاقة مجرّدة وليست مادية كالنفط والمعادن، ولقد انتهى المطاف - في مجال البحث عن مقوّمات التكتل الإقليميّ الواسع كما في مشروع أوربا الموحدة - إلى مراجعة سلّم الاحتكام القيمي فشاع التلويح بأهمية "اقتصاد المعرفة" وهو الشعار الذي أصبح يطرحه الألمان في سباقهم نحو الانفراد بزعامة المشروع الأوربي. ولكن المثال الأدلّ والأفصح هو ما أنجزه المجتمع الهندي في مجال المعرفة الرقمية، فالتفوق في مجال البرمجيات الحاسوبية مثال ناصع على أنّ التكنولوجيا الحديثة نفسها يمكن التفريق فيها بين مستوًى مرتبط بالمادي المحسوس كصناعة الحاسوب وهندسة المواصلات الإلكترونية ومستوى مجرّد تامّ التجريد وهو اختراع البرمجيات الذي يقع في قلب المناولة الافتراضية.

في كلّ ما سلف ما فتئنا نتحسّس السياق الأوفق للإبحار في البعد الجديد الذي تتنزل فيه علاقة الترجمة بمجتمع المعرفة، فلا جدل في أنّ الكشف عن منظومة المفاهيم من خلال خريطة المصطلحات السائدة كفيل بأن يجلو الآليات الذهنية التي ما انفكت تتحكم في الخطاب الكونيّ الفاعل. فلا يمكن إذن أن نقارب الاستقصاء ولا الشمول دون أن نستدعي منذ الآن مفهوما آخر يطوف على مشارف الموضوع في الحدود الفاصلة بين الثقافي والمجتمعي. إنّه "هجرة الأدمغة" وهي تسمية نبعت من داخل المجتمعات "النامية" أو "الصاعدة".

ومبدأ التموضع داخل الخطاب يؤكد ذلك لأن العبارة دالة على مكان الخروج لا على مكان الدّخول، أي على فضاء المغادرة لا على فضاء الاستقبال. ولو

كان للمجتمع "المتقدّم" أن يطلق التسمية لقال عن هؤلاء : "الأدمغة الوافدة" أو "الأدمغة المستوعَبة" (بصيغة اسم المفعول).

وبمجرّد أن نترك المسالك المعبّدة في البحث ونرصد شقائق الأحداث من وراء رقائق الخطاب نقف على المرايا الخلفية في فضاء "العالم الآخر" : عالم السبق المعرفيّ والتحكم التكنولوجيّ. إنّ هذا التسابق نحو الانفراد بالموارد البشرية المتحيّنة في خامتها الذكائية المطلقة عن طريق الإغراء والاستدراج قد خلق وضعا جديدا يُتحدّث فيه بإسهاب عن "حرب الأدمغة" بحيث انزرع الصّراع في صميم الموهبة الطبيعية من حيث هي مورد بشريّ خلاّق.

نحن - في حصيلة أولى من تطوافنا - نواجه حقيقة جديدة سمتها: مضايق اللغة أمام إحراجات السياسة، وذاك هو الذي سييسّر علينا الولوج إلى قضية "الترجمة" ضمن المجادلة الثنائية التي نطرحها بين كونية المعرفة وخصوصية الثقافة.

إنّ "الترجمة" قد تعني - فيما تعنيه - العملية اللغوية المباشرة، تلك التي تتّصل بنقل المقاصد الدلالية من لسان طبيعيّ إلى لسان آخر، وهي مسألة لسانية خالصة تتجلّى في مستوى الخطاب المكتوب وفي مستوى الخطاب الشفوي، وهي عريقة في الوجود الجماعي الإنساني وقد احتضنتها واحتضنت مسائلها المتفرّعة عنها علوم اللغة منذ القديم بل وفي كل الثقافات. غير أنّ علم اللسانيات قد انتقل بها إلى حقول دقيقة من الاختصاصات الفرعية ومن أبرزها وأحكمها ما يعرف بالمباحث التقابلية، (2) ثمّ ما يتصل بآليات الاكتساب اللغوي إلى أن بدأ الاهتمام أخيرا بهذه القضية ضمن مجال الدراسات الإدراكية (3).

جائز إذن أن ينعقد البحث على أساس علاقة الترجمة بمجتمع المعرفة من خلال هذا المفهوم المخصوص للترجمة، ولكنه جائز أيضا أن يتعلّق الأمر بدخول الآلة مجال الترجمة لمساعدة الإنسان على إنجازها إن تعذّر عليها أن تقوم مقامه فيها كليا، وتطول لائحة الجوازات وكلها من الافتراضات الحصيفة: أن يتعلق الأمر بالترجمة الفورية وما لذلك من معقّبات تعود إلى نسيج العلاقات الإنسانية والروابط الدولية، أو أن يترامى الموضوع إلى السياقات التي تتحولّ فيها ترجمة النصوص إلى لحظة إبداعية جديدة ينبعث فيها العلم مقرونا بالفنّ في تناسل ثقافيّ شامل.

غير أن الذي هو أعلق بسياق موضوعنا هذا إنما يتجلى مليّاً في تناول الترجمة من حيث هي نهوض بأعباء المشروع الحضاري المأمول. إن ذلك لينخرط ضمن واحد من أوثق القوانين الحضارية : لا تنهض أمّة بنفسها إلاّ إذا استلهمت ما أنجزته الثقافات الإنسانية السّالفة عامّة والثقافة الإنسانية التي سبقتها والتي تعتزم هي استلام كأس الريادة من يدها. كذا كان شأن العرب مع الثقافة اليونانية وكذا كان شأن الثقافة اللاتينية مع منجزات الحضارة العربية.

"الترجمة ومجتمع المعرفة" مقولة تأتي كثمرة طبيعية للإقرار بأحد نواميس الحركة التاريخية، وهو ناموس التّراكم المعرفيّ على الصّعيد الإنسانيّ في اتّجاهيه: الأفقيّ بين الفضاءات الثقافية في الزمن الواحد، والعمودي بين الحقب المتعاقبة على التاريخ مهما تنوّعت الحضارات الإنسانيّة. إنّ الترجمة هنا هي الفعل الإرادي الذي به يتخطى الإنسان حواجز التعدّد اللغويّ، بل إنّ «الترجمة ومجتمع المعرفة» قول يحمل في مظانّه الإقرار بالتعدّد والعمل على تجاوزه في الآن نفسه.

ولكن الذي كان بديهيّا على مدى القرون والعهود من تواريخ الإنسان قد اعتراه في الآونة الرّاهنة الشك والضّمور، وذلك منذ اهتزت أعمدة القناعات الإنسانية المتواترة فلم تسلم المنظومة القيَميّة التي شيّدها الفكر الإنسانيّ عبر نهضاته الحضاريّة المتتالية من الانتكاس بشكل فجئيّ صاعق.

إنّ جسر العبور من الترجمة الى مجتمع المعرفة لا يشيّده إلا الاعتراف الثقافي المطلق، ولا يصنع معجزته إلاّ التنوّع الثقافيّ الخلاّق، وليس اتّفاقا أن

عكفت كلية الألسن (القاهرة) في الموسم الأكاديمي الماضي على تدارس الموضوع من خلال هذه الزاوية في مؤتمرين كان محور الأوّل : «الترجمة والتنوّع الثقافي» وكان محور الثاني «إسبانيا جسر الثقافات بين الشرق والغرب».

إنّ ما نحرص على إبرازه ثمّ تأكيده هو الإحاطة بالقضيّة المطروحة من خلال رسم سياجها الخارجيّ البعيد، نعني أنّنا نرغب مبدئيا عن الانخراط في مسلّمات الموضوع ما لم نؤسّس للفرضيّة الأولى التي تثوي وراء مسالك الخطاب المعبّدة والتي ـ بقصد أو بدون إضمار ـ تأتي مسكوتا عنها. وفي أوجز العبارات نبادر بالقول : إنّ فعل الترجمة من حيث هي الحامل الأكبر للقّاح بين الحضارات ـ أفقيا على محور الجغرافيا وعموديا على محور التاريخ ـ لا يمكن أن يلتحم كليّا مع فكرة مجتمع المعرفة إلاّ إذا احتكم إلى تمييز فارق بين مبدأين متقابلين هما كونيّة المعرفة قبالة خصوصيّة الثقافة.

إنّ المشهد الإنسانيّ الرّاهن مطبوع بارتجاج واضح طرأ على كثير من المسلّمات، ومن أبرزها أنّ العلم ليس له هوية ولكنّ الفكر المتأمل في الإنسان ذو هويّة بالضرورة، فالقيم الإنسانية العليا حملت على رأسها تاجا مفاده أنّ الإنسان لا غنى له عن الانتماء، وفي صميم انتمائه يقدّم أسمى الخدمات لأخيه الإنسان مطلقا.

لقد نشطت منظمة العمل الثقافيّ الدوليّ المشترك نشاطا حثيثا ساعية إلى تجسيم فلسفتها الأولى : الوئام الحضاريّ عبر الاختلاف الثقافيّ، وكان من أبرز مشاريعها في ذلك العملُ على صيانة التراث الإنساني، فتعدّدت المعالم العمرانية والمعالم الأثرية التي استظلت برعاية اليونسكو لصيانتها والحفاظ عليها ولا سيما بين البلاد النامية، كما عملت اليونسكوعلى إعادة كتابة تاريخ العلوم على المستوى الإنساني، والسبب في ذلك أنّ كثيرا من الموسوعات تشيد بإنجازات الغرب وتزهد في إسهام الثقافات الأخرى، وترتّب عليه أن بعض الجامعات في أوربا وأمريكا تقدّم لطلاب العلم فيها حقائق مشوّهة عن الشعوب فتغرس فكرة الأفضلية الغربية المطلقة على الثقافات الصينية والهندية والفارسية والعربية...

ولكن الملمح الأهمّ في عمل اليونسكو هو انكبابها على مسألة الخصوصيات الثقافية، وقد تبلورت فكرته وتشكّلت منذ مطلع الثمانينيّات في المؤتمر الذي عقدته المنظمة في المكسيك عام 1981، انطلقت الفكرة بحرص خاص من المدير العام مختار مبو ثم جاءت المساعي من الذين يتجاوزون دوما العقد التاريخية المرحلية ليقفوا سندا يعاضد سلّم القيم الثقافية في ينابيع مرجعيّاتها الإنسانية، فأعلنوا عن ضرورة الحوار بين كل الأطراف المساهمين في صناعة تراث الإنسان، وسيق القول مساق الشعارات المغرية إلى أن تركّز في صيغته النّافذة : "حوار الثقافات". فتحوّل إلى مبدإ حضاريّ ليكون المسوّغ النّبيل الذي يترجم بأمانة عن مفهوم التواصل من حيث هو آليّة مستمدة من منوال المحاورة حيث كل الأطراف باثون، وبين الجميع رسائل يتبالغون مضامينها وفق نظام نسقيّ من تركيب الدّوالّ لتوشيح المدلولات بواسطة ما بينها وبين مراجعها من قرائن.

احتضنت الفكرة ومشاريعها كلّ من فرنسا وكندا وحولهما خمسون دولة من المجموعة الفرنكوفونية، وأيّدت المشروع أيضا دول الجنوب المعروفة بمجموعة السبعة والسبعين، وقد تجسّمت مسألة الدّفاع عن الخصوصيّات الثقافية على مرحلتين : أعلنت اليونسكو عن تكريس عشر سنوات لدراسة الموضوع من كل جوانبه فكان ما يسمّى بالعقد الثقافي، أو بالعشرية الثقافية التي حدّدت من عام 1988 إلى عام 1997، وقد تولّى خافير دي كويلار رئاستها حالما انتهت مهمته على الأمانة العامة لمجلس الأمن أواخر 1991.

عندما أنهت اللجنة أعمالها أعدّت تقريرها النّهائيّ فجاء في مجلد ضخم، كان نصّ عنوانه بالإنجليزية : "تنوّعُنا الخلاق : تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية" وقد تولّى نقله إلى العربية المجلس الأعلى

للثقافة في مصر ضمن المشروع القومي للترجمة وجعل عنوانه "التنوع البشري الخلاق...». في مقدّمة هذا التقرير كتب خافير بيريز دي كويلار : "إنّ مجهودات التنمية أخفقت لأن أهمية العنصر البشري تكمن في أنّه مزيج معقّد من الروابط والمعتقدات والقيم والحوافز، وذاك المزيج هو الذي يشكل جوهر الثقافة". وقد أفاض في رسم هذه المرجعيات المبدئية د. جابر عصفور الذي أشرف على ترجمة الكتاب وحرّر للنسخة العربية مقدمة تأليفية لافتة (4).

ويكفي لمن رام استطلاع الكوامن أن يتابع برويّة ما جاء في هذا المجلد عن الثقافة والبحث عن أخلاقيات عالمية، والالتزام بحل الصراعات سلميا، وعدالة التفاوض، ثمّ يكفي أن نقرأ فيه ما يلي : "ومهما كان المنطق وراء المصالح القومية الخاصة فمن المقدّر للمبادئ الأخلاقية أن توجّه التعاون الدولي. فإذا كان النّفاق هو الضّريبة التي يدفعها الفساد للفضيلة كما يقال فإنّ الإفراط في الحرص على المصالح القومية الخاصة من جانب أهل السياسة يبدو كأنّه الضريبة التي تدفعها الفضيلة للفساد، والمواطنون غالبا ما يسبقون السّاسة في إظهار انتمائهم والتزامهم ومشاعرهم إزاء إخوانهم من البشر ممّن يتعرّضون للخطر، كما يتبيّن من ردود أفعالهم تجاه الكوارث والطوارئ وليس هناك ما يدعو إلى توقّف الأخلاق عند حدود الدول" (5).

في مؤتمر اليونسكو ـ يوم 29 سبتمبر 2003 ـ كان كل شيء جاهزا كي تتحوّل جهود عقدين من الزمن إلى ميثاق يعطي المشروعية الكاملة لمعاهدة دولية تكون بمثابة "الإعلان العالمي عن التنوّع الثقافي" وتكون ملزمة، ومن أهم بنودها إقرار حقّ الدول في انتهاج السياسات الثقافية التي تحدّدها لنفسها، وإقرار مبدإ حماية المنتج الثقافيّ الخاصّ بكل شعب من الشعوب. والأهم في ذلك كله هو أن تكون المعاهدة ملزمة للمنظمة العالمية للتجارة بحيث تصبح محمولة على تعديل قوانينها بما لا يمسّ من بنود المعاهدة الثقافية.

فبمَ نخرج من كل ما سلف ؟

فأمّا على صعيد السياسة الدولية فتأكيد حقيقة وهي أنّ العولمة كل لا يتجزأ، وأن الثقافة داخلة تحت طائلة السياسة، وسيف الاقتصاد مسلول على جوانح الثقافة، ثمّ تأكيد الحقيقة الأخرى وهي أنّ القول بالخصوصيات الحضارية كالإيمان بالتنوع الثقافي الخلاق يعرقل آليات التعميم الذي أبحر فيه الخطاب المسوّق للتّهم الجاهزة المعلّبة.

وأمّا على صعيد التأمل النظريّ عند التنقيب عن حيثيات نشأة الأفكار وملابسات رواجها فمن المهمّ أنّ نراجع مقولة صدام الحضارات وذلك على مستويين، أولهما أن نشأتها سابقة في الزمن للفترة التي اكتسحت فيها فجأة عالم التداول الثقافي والجدل السياسي، فهي ـ كما قد كشفه بعض المفكرين الغربيين ـ مقرونة بما صاغه الباحث البريطاني برنار لويس منذ عام 1964 قبل أن ينتقل إلى الولايات المتحدة عام 1974، ومنذئذ انخرط سياسيا في منتدى غلاة المحافظين فنشر كتابين، الأول : "ما الذي حدث ؟ الإسلام والغرب والحداثة". والثاني "الإسلام في أزمة". ثمّ حصل استثمار هذه الأفكار بنهج مكيافلي يسرّته الحيثيات التاريخية (6).

أمّا المستوى الثاني فيتصل بضرورة "التحييث" الصحيح، فكل ما انتعشت به فكرة صدام الحضارات كنقيضة مباشرة لمبدإ حوار الثقافات لا يمكن فك شفرته إلاّ في ضوء تلك الأنفاق التي كان يمور فيها الجدل داخل قلعة اليونسكو.

في العالم النّامي كانت الثقافة دوما هي كبش الفداء عند حصول أدنى ضائقة اقتصادية، وشيئا فشيئا تحولّت الثقافة إلى كبش الفداء عند أولى مفارقات السياسة الدولية، وهكذا ما انفك الشأن الثقافيّ يحمل أعباء السياسة ثم يقع تطويعه كي يكون رأس القاطرة في الحملة النّسقية التي تسعى إلى صهر الهويات الإنسانية في "هوية" استباقية جديدة ستكون هي بالفعل "اللاهوية" (7).

إن الأزمة الكبرى التي تمرّ بها السياسة الدولية قد فتحت سجلا كاملا من الخسارات التي مني بها الفكر

الإنساني قاطبة، وكلها تفسد قيم المعرفة من حيث هي المنصّة التي تتحاور عليها الألسنة الطبيعية في صفاء وتألّق. ولنكتف بذكر قيمتين جوهريّتين : النّسبية المناهضة للإطلاق والإنصاف المضاد للاستفراد، إنهما النسبية في العلم والإنصاف في الثقافة.

على خلفية المشهد الكونيّ نلمح شبحين كأنّ بينهما حلفا شيطانيا ماكرا وكأنه يحيك مؤامرة تدمير القيم الإنسانية بشكل مطلق، أو كأنّما هو المارد الدّافع نحو الثبور : فأمّا الأول منهما فهو حامل لواء النّسقية الكونية المطلقة ولو أفصح عن مكامنه لنادى بإحلال مجتمع الطاعة محل مجتمع المعرفة ثمّ نادى بإلغاء قيمة الترجمة وإقامة اللسان المتفرد الأوحد مقام كل الألسنة الطبيعية، وأمّا الثاني فهو رافع راية الاحتماء المطلق بالماضي كما هو منقول عن الأيام المواضي بحيث يرى في المعرفة وترجمة المعرفة أخطارا تهدّد أسوار الاحتماء : كلا الشقّين من الرّافضة، وكلاهما يتحرك على نفس المصادرة : رفض الآخر باسم الأنا، فأمّا الأول فمن منطلق الأنا المنتصرة وأما الثاني فمن منطلق الأنا الخائفة.

كلا الشقّين يرفض الاختلاف، والتاريخ قد علّم الجميع أنّ الحضارة في تاريخ الإنسانية لا يشيدها إلاّ الاختلاف لأنّه هو طاقة الوقود الدافعة لمحرك التاريخ نحو الأمام. إنّها بديهيات الإنسان المتجدّد الدائم، وإنها كالباقة يحزمها رباط بمثابة الناموس الفكري الذي له سلطان القانون الطبيعي، وإنّنا لنسمع صداها بين أروقة الثقافة الإنسانية من وراء محوريها المتعامدين : فضاء التاريخ ومساحة الجغرافيا. وفيها منارات كالنجوم المضيئة في أرجاء الفلك المترامي : نداء طه حسين المتعلق بترجمة وليام شكسبير إلى العربية وقد خاض من أجل ذلك معركة فكرية واسعة حتى انتهى به الأمر - وقد أصبح رئيسا للجنة الثقافية التابعة للجامعة العربية - إلى أن حمل مجلسَ الجامعة على إقرار مقترحه.(8) إنّه النداء الذي يأتي مردّدا صدى صيحة ميخائيل نعيمة قبل أربعين سنة من ذلك التاريخ في مقاله المشهور: "فلنترجمْ" (1923) وكان الفتح الأوّل لهذا الدرب الخصيب قد استهله رجلان أولّهما ركن السياسة في النهضة الحديثة وثانيهما قطب الاستنارة المعرفيّة فيها : محمّد علي(1769 – 1849) ورفاعة الطهطاوي (1801 – 1873).

كلّ ذلك لم يكن سوى انخراط في "القانون الطبيعي" الذي ألمحنا إليه آنفا، وهو نفسه الذي تأسّست عليه النهضة الغربية - والأوربية تحديدا - حين انطلقت تترجم إنجازات الحضارة العربية. ويكفي أن نذكر الأسماء الرّموز التي تمثلتها اللغة اللاتينية حتى أعادت صوغها بسمات فارقة :الخوارزمي في الرياضيات وابن الهيثم في الفيزياء وابن سينا في الطب وابن رشد في الفلسفة، بل لم يضرّ النهضة اللاتينية شيء أن قال روّادها قولتهم الشهيرة : "لئن كان أرسطو هو الذي شرح الطبيعة فالذي شرح أرسطو إنما هو ابن رشد".

إنّه القانون المتجدّد : ذاك الذي يتعذر معه أن نشيّد مجتمع المعرفة دون ترجمة الفكر الإنساني بعضه إلى بعض، ذاك الذي يقرّ بكونية العلم ولا ينكر خصوصية الثقافة. وبناء على هذه البديهيّة سنلتفت إلى الماضي لا لنرحل إليه وإنما لنستدعيَه إلى زمننا الرّاهن حتى نتّخذه شاهدا على القانون الطبيعيّ عسى أن نجابه به المتربصيْن الكبيرين اللذين يهدّدان معيار القيم الإنسانية : غلاة النسقية الكونية وغلاة الانغلاق الماضوي، وقد أسلفنا أنّهما حليفان على ركح التعصّب.

وكالبديهي أن نصطفي المثال من مخزون التراث العربي، وليس ذلك على وجه الإشادة الفخرية ولا هو من المنافحة الثأريّة، ولو قصدنا إلى هذا أو ذاك لكنا على أوج التناقض لأنّ سند كليهما الشوفينيّة الفكرية، نعني الوله بالذات سواء بالتعاظم عند قوتها أو باغتصاب حقّ الاستعلاء عند لحظات ضعفها. وإنّما مرمانا الذي نصبو إليه هو التحرك من موقع التّسليم بأنّ التراث العربيّ ملك للإنسانية قاطبة، جاء ثمرة تلاقح بين كونية المعرفة وخصوصية الثقافة. ولو لم يكن روّاده واعين بالقانون الطبيعيَ ومنافحين عنه لما تسنّى لهم إنجاز ما أنجزوه.

وسنبدأ بأبرز علم كان له فضل تأسيس "المنزع الإنساني" بالمعنى الذي اتخذته هذه العبارة منذ فجر النهضة الأوروبية الحديثة، ألا وهو أبو عثمان الجاحظ (150 –255 هـ) . فمن فضائله التي يغفل عنها الناس أو يزهدون في استذكارها أنّ آراءه في القضايا الفكرية الحضارية - تلك التي نسميّها اليوم القضايا الثقافية - لا تأتي إلا جازمة فاصلة. ولقد تحدّث في خطبة كتاب الحيوان بحديث لا نراه إلاّ في صميم العلاقة بين مجتمع المعرفة وآليات الترجمة وذهب في الحصافة شوطا فسيحا إذ صاغ موقفا نقديا من الشعر بوصفه واسطة العقد في موروث الإبداع العربيّ الأول وهو الذي طالما نافح عن انتمائه العربيّ، وتصدّى لحملة التشكيك في طاقتهم على الخلق والابتكار رافضا الاحتكام إلى المعيار العرقي في توصيف مهجة الشعوب.

هنا - تحديدا - يتألّق الموقف الجازم الذي يعانق في نفس اللحظة البعد الإنسانيّ للمعرفة والبعد الخصوصيّ للثقافة، فلقد أعاد الجاحظ الشعرَ إلى حجمه الطبيعيّ ضمن الخصوصية بينما أفسح المجال واسعا رحبا أمام المعرفة الكلية ذات البعد الإنسانيّ الذي يخترق حجب اللّسان النوعي نحو المضامين المطلقة فتحقّ ترجمته من لغته إلى سائر اللغات :

"وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكَم في (...) الصناعات وإلى كل ما أقام لهم المعاش وبوّب لهم أبواب الفطن وعرّفهم وجوه المرافق، حديثهم كقديمهم، وأسودهم كأحمرهم، وبعيدهم كقريبهم، والحاجة إلى ذلك شاملة لهم. وقد نقلت كتبُ الهند وترجمت حكم اليونانية (...) وقد نقلت هذه الكتبُ من أمّة إلى أمّة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها" (9) .

ذاك هو الذي نبغي : المجتمع الإنساني الرّحب هو المجال الحيويّ للمعرفة، والجسر الواصل بين كل الثقافات هو "نقلها"، يعني : "ترجمتها". وليس أقل تبصّرا وحصافة من هذا الذي أسلفنا ما سيستطرد إليه الجاحظ من تحليل مستفيض للذي يتولّى مهمّة الترجمة : وظيفة الترجمان وخصائصه وأشراط أدائه وما إلى ذلك كله من توصيف بالغ دقيق.

لقد جاءت الثقافة العربية بما يشهد على أنها انسجمت مع قانون التاريخ في أنّ العلم إنسانيّ وعلى الثقافة في خصوصياتها أن تذعن إليه فتركب سفينة الكونية التي تصل ضفافها عبر جسور الترجمة. وبليغ جداً أن نقف على النّصوص الشواهد كي لا يُظنّ بالسياق ظنا يحمله على الانحياز.

باكرا كان أبو يوسف يعقوب الكندي (تـ 252 هـ) يخط رسائله الفلسفية، وباكرا أيضا دوّن ما هو جدير بأن يكون ميثاقا يكتب بماء الذّهب على ناصية المؤسسة التي لا يدفعها إلا محرك التخاصب بين المناهل في تنوّعها والموارد في تعدّد ألسنتها :

"علينا باقتناء الحقّ وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنّه لا شيء أولى بطالب الحقّ من الحقّ، وليس ينبغي بَخْسُ الحقّ، ولا تصغير قائله، ولا الآتي به. فلا أحدَ بُخس بالحقّ، بل كلٌ يُشرّفه الحقُ" (10) . فأيّ ذروة أرقى من هذا السنّم في مجال سنن الاختلاف ؟ إنّه النصّ الصريح بذاته : الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا. أما المدار الذي يقوم مقام قلب الرحى فهو الحقّ في معناه المطلق، حيثما كان حقٌ، والكندي – إذ يتحدث إلينا عن الحق - كان يدبّج خطابا فلسفيا وهو يضع رسائله الفلسفيّة، فلا مجال إذن إلى حمل اللفظ على دلالة الخصوص التي هي داخلة ضمن مقاصد التوحيد وأغراض التشريع الإلاهي، وإنما هو على دلالة العموم، تلك الدلالة التي وضعت لها اللغة اصطلاحا جديدا إذ تقول - بدلَ الحق - الحقيقة". فليس تقوّلا على صاحبنا أن نعتبره منخرطا كليا في ميثاق "الترجمة ومجتمع المعرفة".

فإن كان الكنديّ فيلسوفا - والميثاق الفكري الذي أسلفنا لا يُستغرب من كل فيلسوف - فإنّ مقياس التنوّع الثقافي الخلاق عبر تعدّد الألسنة والموارد عندما يتبنّاه من اختصّ بشؤون الدين ومباحث

العقيدة يكون أبلغَ، وأنْصع، وربما أدْعَى للإنصاف الثقافيّ لأنّه يقطع الطريق أمام كل إجحاف حضاري أو غَمْط فكري. فأبو حامد الغزالي (450 – 505 هـ) الذي استحقّ بجدارة شُهْرة حجّة الإسلام، والذي كان من أوائل من أسّسوا أنموذج الكتابة في خطاب السيرة الذاتية المتلبّسة بلَبوس الترجمة الفكرية، يسوّي منافحةً عالية في أمر فضائل الاختلاف، والذي كان ميثاقا على قلم الكندي يُمْسي دستورا فكريا على يده.

ينطلق الغزالي من تقرير حال ما هو سائد مرسلا حكمه المعياريّ الصّريح : "عادة ضعفاء العقول يعرفون الحقّ بالرجال لا الرجالَ بالحقّ". فالمسألة مبدئيّة وليست مقيّدة بمجال إنسانيّ دون آخر : ليست وقفا على ظواهر السلوك ولا على بَنات الأفكار، وليست وقفا على حقل النشاط الفكري إذا اختصّ بدين أو بفلسفة أو بلغة أو بسياسة. فالحقّ هنا هو رمزٌ للمؤسّسة الفكرية الواعية بنفسها والمسؤولة عن أقدارها. ولم يشأ الغزالي أن يكون بدعة، لذلك نراه يؤسّس موقفه على المأثور من الأقوال ومن الأفعال : "والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : لا تعرفْ الحقَّ بالرجال بل اعرفْ الحقّ تعرفْ أهله". ثم ينطلق شارحا ومعللا: "والعاقل يعرف الحقّ ثم ينظر في نفس القول، فإن كان حقا قَبِله سواءٌ كان قائلهُ مُبطلا أو مُحقا، بل ربما يحرص على انتزاع الحقّ من أقاويل أهل الضلال عالما بأنّ معدن الذهب الرغامُ".

ويرتقي أبو حامد الغزالي إلى درجة أعلى محاولا تخصيص العلماء بميزة الأمانة لأنّهم حفظةُ الحقّ والمطالبون بصيانة دساتير الإنصاف :"وهذا وهمٌ باطل وهو غالب على أكثر الخلق... فأبدا يعرفون الحقّ بالرّجال ولا يعرفون الرجال بالحق وهو غاية الضلالة"(11). فليس افتراء ولا مجازفة أن نعتبر الغزالي رائدا بين دعاة كونية المعرفة رغم خصوصية الثقافة.

وسيطّرد السَّنَنُ وتتواترُ منافحاتُ الروّاد عنه، وسيأتي – غير بعيد – من يعطي أروع الأمثلة في صهر الثقافات بغية استصفاء نُسْغها الإنساني الخالص، وسينهل من ثقافة اليونان أيّما نَهل وهو الإمام في شؤون الدين والعقيدة، بل وهو الحاكم بين أفراد الرعية على منصّة قاضي القضاة، سيأتي أبو الوليد بن رشد فيُفْتي في القضايا الفلسفية التي ظلت معلّقةً منذ أرسطو، وسترث الثقافة اللاتينيةّ تَركته المعرفية فتُقُرّ له بالفضل وتقول قولتَها التي سرتْ مضرب الأمثال والتي ألمحنا إليها آنفا "لئن كان الذي فسرّ الطبيعةَ هو أرسطو فإن الذي فسرّ أرسطو إنما هو ابنُ رشد" (520 – 595هـ) . كان ابن رشد أمارة فريدة في تشييد مجتمع المعرفة المفضي إلى التنوع الحضاري الخلاّق عبر تعدّد الألسنة المنقول بعضها إلى بعض، وإذ هو يدبّج فصل المقال بكفاءة عقلانية فاصمة يقرّر جُمّاع ما يصل داخلَ الإنسان كيانَه الفلسفي بكيانه الروحاني، ويُلاحمُ بين وجوده التأمليّ ووجوده الإيمانيّ، إذا به يعيد صوغ ميثاق المواثيق ويحيي دستورَ الدساتير، في إنصاف حضاريّ متألق، وفي سموّ أخلاقيّ لطالما تفتقده الإنسانية في زمننا الجديد.

"يجب علينا إن ألْفينا لمن تَقَدَّمنا من الأمم السالفة نظرا في الموجودات، واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقا للحقّ قَبِلناه منهم، وسرُرنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نَبّهنا عليه، وحذرنا منه، وعذَرناهم " (12) . هو هذا الذي ليست الإنسانية ـ بالأمس واليومَ وغداً ـ في حاجة إلى شيء مثلما هي في حاجة إليه.

إنّه لمن أشراط العلم وتأسيس مجتمع المعرفة : أن نقبل الآخر، وأن نعترف به، ثم نتواصل معه عبر ترجمة لسانه إلى لساننا أو لساننا إلى لسانه. وكيف لا نتذكّر قولة أبي نصر الفارابي (260 ـ 339 هـ) في مدينته الفاضلة " : رأيي في المسألة صواب يحتمل الخطأ ورأيك خطأ يحتمل الصواب" ؟ أو لا نتذكر أشراط المعرفة كما سنها الجويني النيسابوري حين قال :

"ذكاء وحرص وافتقار وغربة وتلقين أستاذ وطول زمان" (13)

إذا كان مجتمع المعرفة يتأسس على العلم وكان العلم يتأسّس على الشمّول فإنّ ازدهار المعرفة يظل مشروطا بإقامة الجسور بين مختلف الجداول التي تغذّي نهر العلم الكبيرَ، وهنا تحديدا تنبري آلية الترجمة بكل كفاءتها بل وبكل سلطانها. ولكن منظومة المعرفة ـ التي هي محرك التقدم الحضاري الشامل ـ تتطلب شرطا على وجه الاضطرار وهو الإنصاف اللغوي من حيث هو جزء من الإنصاف الثقافي. ولا يستوي شيء من ذلك كلّه أو يينع إلاّ خارج صراع الهويّات وبعيدا عن طاحونة العقد والمركّبات. وهذا من تلك القوانين العامة التي تصدق على الراهن صدقها على الماضي دونما استخفاف بصلاتها للمستقبل. ومرّة أخرى نلتفت إلى الماضي فنستدعيه استدعاء خاليا من كل شحن تفاضليّ ومن كل احتكام معياريّ.

إنّ شهادة التاريخ إذا ما كانت شهادةَ أحداث ووقائعَ يمكن للناس أن يشككوا فيها، بل يمكن للمؤرّخين أن يزيّفوها تحت عباءة التأويل إنْ هم آثروا خدمة المنافع على إيثار الحقيقة، وإنْ هم انحازوا إلى أدْلَجَة العلم ولم يحترفوا قداسة المعرفة. أما شهادة النص فسلطتُها قائمة فيها، ولا مجال لتكذيب النص حتى ولو عَنَّ الافتراء على تاريخ النص.

وفي البدء حقيقةٌ، مَن سلَّم بها أبحر معها على مَراكب الكشف لسبر أغوارها في التاريخ، ولرصد مواقع تأثيرها في الزمن الراهن، ثم للاستعانة بها على استشراف المآل في ما هو قادم درءاً لمغامرات التاريخ، واتقاءً لسوء مُنْقلَب التأويل، ومن لم يسلّم بها كفاه أن يتّخذها مصادرةً من مصادرات السؤال المنهجيّ.

هذه الحقيقة هي أنّ العرب قد صنعوا حضارة وأنهم ـ قبل صنعها، وعند صنعها، وبعدَ صنعها ـ قد تخلّصوا من المركبات الثقافية حيال الآخرين بعد أن تحرّروا من العقُد العرقيّة وفي مقدمتها العقدة اللغوية. ألم يبادر صاحبنا أبو عثمان الجاحظ بالقول المؤكد : "والإنسان فصيح . وإن عبّر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية، وليس العربيّ أسوأ فهما لطمطمة الرومي من الرومي لبيان لسان العربي، فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح" (14) وستطّرد الشواهد بتواتر كثيف لتدلّ على هذه الحصافة التي تخللت نسيج الفكر العربيّ طوال القرون. إنّه الاعتلاء إلى سنم "النسبيّة" التي لا فكر ولا فلسفة ولا إبداع إلاّ بها. وهنا نمسك ـ بواسطة حاسة اليد اللامسة ـ مفتاحَ كل الأقفال المحيطة بالترجمة في علاقتها بمجتمع المعرفة والموصلة إلى الثنائية المركزية : كونية العلم وخصوصية الثقافة.

سيقول ابن جني (321 ـ 392 هـ) في مدوّنته الرائدة في علم أصول النحو : "باب القول على اللغة وما هي : أما حدّها فإنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم، هذا حدها" (15) . وسيقول ابن خلدون (732 – 808 هـ) في الباب السادس من المقدمة : "اعلم أنّ اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لسانيّ فلا بد أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها وهو اللسان" ثم يستأنف بعد ذلك في فصل موال فيقول : "أعلم أنّ اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها" (16).

هي حقيقةٌ تظلّ داخلَ دائرة التاريخ، والمَنْفذُ إليها هو مجهر القراءة لتفسير التاريخ، ولكنها حين تُطْرح في سياق البحث عن مرجعيات الترجمة ومجتمع المعرفة في الثقافة العربية تصبح مطالبةً إيّانا بتَحْيينها في الزّمن الرّاهن وبتَبْيئتها في السّياق الجديد، سياقِ العلاقة القائمة بين العَرب والأغْيار من حولهم، ويُصبح التّساؤل هو : ما السرُّ في أنّ العرب قد تحرّروا من تلكم العقُد والمركّبات بينما يظل الآخَرُ حتى في أيامنا هذه عاجزا عن التخلّص من العقدة الثقافية رغم أنّه بَنَى حضارةً ويكاد ينفرد بنواميس استثمارها، بل رغم أنّه شيّد فلسفةً كاملة تنافح عن حقّ التنوّع الثقافيّ الخلاق، وتناضل في سبيل صون الحريات الفردية والجماعية، بل وتقول إنّ الحضارة الإنسانية الجديدة هي حضارة عالمية كونية بفضل شيئين اثنين : الأول فلسفة الأنوار التي شيدّها رجال

الفكر طيلة القرن الثامنَ عشرَ بعد أن استلهموا العقلانية الديكارتية الوافدة إليهم من القرن السادسَ عشرَ، والثاني الثورة الفرنسية التي جاءت تتوّج الملحمة الفكرية فقفلتْ القرن الثامنَ عشرَ ثم امتدت آثارها إلى ما وراء الحدود ثم إلى ما وراء البحر!

لكل منظومة معرفيّة فلسفتها العميقة وهي التي تقوم مقام إيبستيميّتها، وإذا عَنَّ لنا أن نلخّص المنظومة التي شيّدها العرب فنختزلها في أوجز عبارة أو نعتصر رحيقها بكثافة رمزية عالية قلنا إنها قامت على إيبستيميّة الاستيعاب والتجاوز، وليس واحدٌ منهما بمتيسر إلاّ في مناخ التنوّع الاختلافيّ حيث الاجتهاد المتعدّد وحيث السؤالُ المحاور دوما والمُراجع للمُسلَّمات بإطلاق، وحيث استلهام منجزات الآخر سواء بلغته في نصّها أو منقولة عبر الترجمة إلى لسان الأنا، وبوسع الناظر في التراث العربي أن يلتقط عيّنة واحدة تدلّه على خصب الحوار المعرفيّ الفسيح وعلى مدى ما يشهد به من ثقافة الاختلاف العلميّ الذي هو نُسْغُ إيبستيميّة التّجاوز. إنه أنموذج الحوار العميق الذي دار حول علاقة علم النحو بعلم المنطق، والذي ارتقى فيه الجدل إلى أسنام التجريد الفكري المبين. فقد لا يعنينا في سياقنا المحدّد هذا أن نُبْحر في استنطاق الحجج التي أتى بها كل فريق ليناقض بها حجج الفريق المقابل، وليدحض قولَه بأفضليّة ما انتصر إليه من العلمين وإنما الذي يعنينا هو رصد القراءة الثقافية لمنظومة المعارف عسى أن نستدلَّ ببرهان العقل الخالص على إيبستيميّة الاختلاف التي وَسَمَت الحضارةَ العربية والتي هي شاهد آخر على أنّ مجتمع المعرفة لا يتناسق إلاّ بين فضاءين : كونية العلم وخصوصية الثقافة.

يكفي أن نعيد قراءة المناظرة الشهيرة التي نقلها لنا أبو حيان التوحيدي في "المقابسات" وفي "الإمتاع والمؤانسة" والتي كان مدارُها حوارا فكرياً ساخنا بين منزلة علم النحو ضمن شجرة المعارف ومنزلة علم المنطق داخل منظومة العلوم، ويكفي أن نستشفّ ما كان ثاويا وراءها من تجادل وتلاقح وتخاصب بين الحضارات من خلال التّقادح المعرفيّ الذي تقف فيه - وجها لوجه - ثقافة العرب وثقافة الإغريق، يكفي هذا وذاك حتّى نقتنع بهذا الميسم العريق في الثقافة العربية : الاختلاف الحضاري والتنوّع الخلاّق عبر تعدّد الموارد وتنوّع الألسنة.

أما إذا رمنا التماس الشاهد الأقصى على تسليم الموروث العربيّ بنسبيّة المرجعيّات الثقافية فسنعثر عليه من داخل المنظومة القيميّة في جوهر الثقافة العربية، وقرينته الكبرى هي اللغة. صحيح أن اللغة العربية قد كرّمها الخالق بأن جعلها لسان الرّسالة السماويّة الخاتمة، وصحيح كذلك أنّه اصطفاها ليصوغ بها الإعجاز الأدائيّ الذي تحدّى الإنسانَ فحمله على الإذعان والتسليم، ولكن ذلك لم يأت كي يدفع إلى الغرور أو ينفخ في مركزية الذات الثقافية، ولئن اختار اللّه أن يُثْبت إعجازه عن طريق اللسان العربيّ فإنّه ما كان يَعْزب عليه أن يُثْبته بأيّ لسان من الألسنة، وهنا تكمن المعجزة لو تفحّصناها بمجهر الكشف الثقافيّ السابح بين أرجاء الحضارات الإنسانية.

إن العرب قد تخلّصوا من عُقْدة الآخَر فتخلّصوا بذلك من عقدة الذّات اللغوية، وإنّ العرب قد أثبتوا بأنّ الحضارة السويّة ذاتَ الأعمدة الراسية في الأعماق هي التي إذا اكتملتْ تحرّرَ أهلها من مركّبات الخوف على الذات، ولا سيما الذات الثقافية التي سلطتها في اللغة. وما من حضارة تظل متحفّزة تتحرك بهاجس الذّعر من الآخر وتندفع بغريزة العداء المفضية إلى مقولات الصراع والصّدام والتّرهّب إلاّ وهي حضارة تفتقر في باطنها إلى عنصر جوهري يرْأب تشقّقها الداخليّ ويرمّم فلول معمارها الخارجيّ.

ليس هيّنا ولا يسيرا أن يرتقي الطّرح العربيّ إلى منزلة من الحوار بين الثقافات فيمسك بأرقّ ألياف العقلانية في المسألة اللغوية العامة، فإذا به يقدم درسا في نسبيّة المرجعيات القيميّة، يوجهه إلى أساطين الحضارة اليونانية، وكم نحن في حاجة إلى إعادة إنتاج ذلك الدرس صوب أساطين الثقافات الكونية الرّاهنة.

فهذا ابن حزم (384 ـ 456 هـ) ـ وهو الأديب، والمفسر، والقاضي، والمنظر في باب أصول الفقه، والحريص على أن يكون عنوان مصنّفه شاهدا على رؤيته الجامعة من "الإحكام في أصول الأحكام" لأ يقول: "وقد توهّم قوم في لغتهم أنّها أفضل اللغات"، وهو هنا يتلطف فلا يخصّص القومَ الذين يعنيهم، وهذا منه كياسةٌ ليس إلاّ، لأنّه يقصد أهل الدّار من أبناء ثقافته العربية قطعا. ثمّ يستطرد شارحا مستدلا: "وهذا لا معنى له، لأنّ وجوه الفضل معروفة، وإنّما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة، وقد قال تعالى: "وما أرْسلْنا منْ رَسُول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم"، وقال تعالى: "فإنما يسّرناه بلسانك لعلّهم يتذكرون" فأخبر أنه لم يُنْزل القرآن بلغة العرب إلاّ ليفهم ذلك قومُه عليه السلام لا لغير ذلك.

ولكن ابن حزم يحوّل وجهة الإشكال فيخرج به من دائرة الثقافة الخاصة لأ التي هي ثقافة الأنا بما أنّ صاحبنا ابنٌ لها لأ ويلج به الأفقَ الإنسانيَ الأرحب فيُطْلعنا على أنّ الوهم وهمٌ حضاريّ شائع، وأنّ الخطأ في هذا المجال لَمَمٌ يرتكبه جهابذة الفكر البشريّ أحيانا، ذلك أنّ السّبب الثاويَ هو معضلة الانسجام مع نسبيّة المرجعيّات القيميّة في تاريخ الإنسانية قاطبة. يقول ابن حزم: "وقد غلط في ذلك جالينوس فقال إنّ لغة اليونانيين أفضل اللغات لأنّ سائر اللغات إنما هي تشبه إما نُباح الكلب أو نقيق الضفادع". ولا يتردد ابن حزم في تقديم الدّرس الذي به يتخلّق جنين الإنصاف الثقافيّ، وبه تتولّد تقاليد الاختلاف الحضاري المخْصاب: "وهذا جهلٌ شديد لأنّ كلّ سامع لغة ليستْ لغتَه ولا يفهمها فهي عنده في النّصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق"(17).

ثمّ يلج ابن حزم بالمسألة إلى بؤرتها المركزية ليردّ على الذين قالوا "العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى" فيقدم الحجج النقلية والعقلية في استدلال ناصع مبين، ويجعل العربية والسريانية والعبرانية في مرتبة التساوي من حيث القيمة المطلقة، إذ بجميعها نزل من الله على رسله كلامه المقدّس.

لم يَبْلُغنا من تاريخ الثقافات أن أمّةً تخلّصت من عقدة الذات اللغوية بعد أن شيّدت صرح حضارتها كما بلغنا من شواهد التراث العربي!

لقد جاء النصّ المؤسّس ـ نصُّ القرآن الكريم ـ حاملا لآيات التحدي الإعجازيّ، وكلها واقعة على حد الصراط الفاصل بين دائرة الإيمان ودائرة الشرك، فالمخاطَب الأوفى لها هو الذي لم يدخل حرم العقيدة بعدُ. ولكنّ النص جاء حاملا لآيات أخرى لا تنضوي تحت طائلة التقييد، وإنّما هي مطلقة متجاوزة. ففي معرض سرد البراهين الدالة على وجود الخالق قال تعالى: "ومن آياته خلقُ السماوات والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين" (الروم ـ 22). فتعدّد اللغات هو في حد ذاته معجزة من معجزات الخالق لا يقلّ شأنها عن شأن خلق السّماوات والأرض. وفي معرض إثبات أن الدين واقع وأنّ الوعد صادق يقول الله تعالى: "فوربّ السماء والأرض إنّه لحقٌ مثلما أنكم تنطقون" (الذاريات ـ 23). وهكذا يجعل النصُّ المؤسّسُ اللغةَ حجّةً على الوجود، ولا تُدرك الحجّةُ إلاّ بأداة الإدراك التي هي العقل، وهنا مكمن إيبستيميّة شاملة تتجاوز بخطّى فسيحة الإيبستميّةَ التي سيضعها بعد دهر ديكارت حين يقتصر على جعل العقل ـ إذ يشتغل ـ حجّةً على الوجود دونما إجلاء للوسيط الأكبر الذي هو اللغة.

لا مهرب لأحد من القول بأنّ الحضارة العربية تأسست على النصّ وأنّ النص صيغ بلسان العرب، وأنّ اللّغة العربية قد اكتست بذاك الصوغ فضلا خاصا. فلغة العرب ليست أفضل اللغات بالأصل والمنشإ بقدر ما هي أفضل اللغات بالاكتساب. فالمعجزة التي هي بأصل النشأة وبدء الخليقة هي أنّ الإنسان يتكلم، والمعجزة الأخرى التي هي أيضا بالمبدإ والمنشإ هي اختلاف البشر في ألسنتهم دونما تفاضل بين الآلات والأدوات.

وكلّ المعضلة هنا: هل الأفضلية ـ الفكرية والثقافية والحضارية ـ هي أفضلية بالمنشإ أم أفضلية بالاكتساب الطارئ؟ تلك أمّ المعضلات، أجاب عنها بحصافة رائعة

الفكر العربي وعجز عن الإجابة عنها بالأمس الفكر الآخر بحكم قُصور مُنْجَزه الحضاريّ، وما زال اليومَ عاجزا عن الإجابة لفرط ما يتملكه الإجحاف ولفرط ما يستبد به من مجافاة الإنصاف الثقافيّ.

إن كانت هناك بأحد حاجةٌ فهي حاجتنا نحن إلى اجتلاب نصّنا نستدعيه لأنفسنا، وهي أيضا حاجة الآخر أن يصغي معنا إلى درس العقلانية الثقافية كما صاغه نصّنا الماضي بنفسه : "إن اللغة يَسقُط أكثرُها ويَبْطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم. فإنّما يقيّدُ لغةَ الأمة وعلومَها وأخبارَها قوةُ دولتها ونشاطُ أهلها وفراغُهم. وأمّا من تلَفت دولتُهم، وغلَب عليهم عدوُهم، واشتغلوا بالخوف، والحاجة، والذل، وخدمة أعدائهم، فمضمونٌ منهم موت الخواطر. وربّما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم، وبيُود علومهم. هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة". لكن ابن حزم في نصّه هذا يحبّر بيانا باسم كل الثقافات الإنسانية ثم يعرضه على الذين يدافعون عن أنفسهم خوفا من اجتياح التنميط النسقيّ المتفرّد، أو يعرضه على الذين ينسون مبادئ فلسفاتهم التنويرية الكبرى باسم العقلانية التي تجْمَح بهم يوما على هواهم، وتنخذل بين أيديهم يوما آخر طوعا لمصالح اللحظة. إنّه، باستدعاء منهجيّ خلاق يوقّع لنا على ميثاق مجتمع المعرفة عن طريق تصاهر اللغات وانسياب حركتها التبادلية بالنقل والترجمة ذهابا وإيابا.

وسيأتي بعد ابن حزم عبد الرحمان بن خلدون فيغوصُ على أعماق الظواهر العمرانية، ويتّخذ من التنوّع الثقافيّ والتعدّد اللغوي آلية لتفسير التاريخ، وسيرتقي بموضوعية الحياد الفكريّ إلى المرتبة التي تحقّق لمُنجَزه العَلميّ أبعادَ التجاوز المعرفيّ التوّاق، وعلى يده سيتخلّق من أرحام علم التاريخ علمٌ وليدٌ هو علم الاجتماع. وسيدوّن في منظومته العجيبة ما به نستشرف قانونَ الدّورة التاريخية الكبرى بين أممٍ غالبة وأمم مغلوبة على أمرها، ونواميسَ التعاقب بين ثقافة غازية وثقافة مغزُوّة، وسيضع لنا ما به نستنبط العللَ المفسّرات لكل ذلك.

من القراءة المبتصِّرة نتبيّن أنّ أمّ المعضلات قد كانت متمثلة في توهّم البعض أفضليّتَهم المطلقةَ على البعض الآخر، وكانت في أعمَق أسرارها متمثلة في عجز الإنسان عن إدراك نسبيةِ الأشياء : نسبيةِ التاريخ، ونسبية المرجعيّات الصانعة للتاريخ، وكذلك نسبية القيم التي إليها يحتكم الإنسان، وبها قد ينصف الإنسانُ أخاه الإنسان وقد يُجحف بحقّه. ولو أمهل التاريخُ ابنَ خلدون فعاش بيننا لكان حتما عليه أن يضيف إلى قانون العصبيّة رديفا آخر يشرح به بعض ظواهر الكونية الجديدة، ألا وهو قانون الثأر، ولعله كان يُبْحر، على عادته، في تشقيق مركّباته، وتفتيت عناصره التكوينيّة، فيصل بنا إلى فروق دقيقة : هو الثأر من التاريخ يتلبّس بمظاهر الثأر من كل الآخرين، ويخفي في مكنوناته ثأرَ الذات من نفسها، لذلك تتعاظم مركزيّة الأنا، فتسطو، فتفقد توازنها، وتدوس بنفسها على المواثيق التي دبّجتها، وتضعُ الأقدام على الدساتير التي حبّرتها، ثم تَرْفُس فلسفتَها التي كانت تلوّح بتأديب من لم يعتنقها اعتناقا. ولكن أول من يدفع ضريبة كل ذلك إنّما هي مؤسسة المعرفة، ولا ينتكس بعدئذ شيء كما ينتكس "مجتمع المعرفة".

أمّ المعضلات إذن – بالأمس، واليومَ، وغداً أيضا – هي أن يَعْمَهَ الفكر فلا يرى أنّ تفاضل الثقافات أو تراجُح الحضارات إنما هو من الخصائص المفارقة وليس من اللّوازم المحايثة، هو الطّارئ العارض وليس الجوهرَ المستديم. هي أمّ المعضلات وهي الثّقب الرّقيق الذي من فوهته يمكن أن نعيد قراءة التاريخ في بعض فصوله المثيرة.

إنّ المنظّرين للثقافة في زوايا العمل الدوليّ قد وقعوا طيلة التّسعينيّات بين فكّيْ تناقض صارخ آتاهُم من تَبَنّيهم لطرحيْن : مقولة التّنمية الشّاملة ومقولة حوار الثقافات، وهما ركنان يبدوان على غاية من الانسجام، ولكنهما مع التّحقيق يحملان بذور التّصادم بين المنطلقات المعلَنة والغايات المتكتّم عليها.

إن "مجتمع المعرفة" تماما كحوار الحضارات الذي بدأ روّاد السلم في الغرب المناهضون لاستشراء العولمة يسمونه "زواج الثقافات" ليكتسي

صورة الملحمة الفكرية التي ما زالت في بداياتها. بيد أن هناك مسألة جوهرية تظلّ ثاوية وراء الخطاب الناطق باسم المؤسسات الثقافية ولربما آثر الكثيرون سترها وراء حجب المسكوت عنه، ألا وهي مسألة اللغة نفسها. فممّا لا مناص من الجهر به هو أنّ اللغة العربية مرصودة في مرمى القنص الاستراتيجيّ الذي يخطط له سدنة الكونية الثقافية المكتسحة، وهذا ليس من صيحات الفزع الهلوع ولا من ضروب التلويح بويل الثبور وإنما هو حقيقة تاريخية إذا أنكرتها أنكرت بديهة من بدائه علم الثقافة وعلم الاجتماع وعلم الأنتروبولوجيا، فلعلّ قصارى أمرك أن تلتمس من المختصّين في تلك الحقول أن يدلوك على وصفات الظاهرة أو تحسّس أسبابها بتشخيص علميّ متئد رصين.

هنا – تخصيصا – يطلّ علينا صدى السؤال الحارق: هل لأصحاب القرار بيننا في السياسة وفي الفكر وفي الإعلام والفنّ والثقافة وعي بآفاق المصير حين ينظرون إلى امتداد سلطان اللهجات العامية واكتساحها التدريجيّ لحصون العربية الفصحى مستجيبين في ذلك لا بغفلة أو بوعي لا إلى إرادة خارجية لم تعد في طيّ التحرز والكتمان وإنّما هي معلنة جهيرة متجرّئة بكلّ ما أوتي أصحابها من صفاقة وتبجّح.

الإحـــالات والهوامـــش

1ـ والاستهلاك . في اشتقاقه اللغوي ـ مصدر يقوم مقام الفعل، وهو بذلك يدل على الحدث الذي يدل عليه الفعل ولكنه لا يتقيد بزمن يتحيّن فيه كما يحصل عند استعمال الفعل.

2 ـ اللسانيات التقابلية : La linguistique contrastive

3 ـ اللسانيات الإدراكية : La linguistique cognitive

4 ـ منشورات المجلس الأعلى للثقافة ضمن المشروع القومي للترجمة، ع 27، سنة 1997.

5 ـ المرجع، ص 51.

6 ـ راجع لمزيد الاستنارة : صراع الحضارات أم حوار الثقافات. وقائع المؤتمر الدولي، القاهرة، 10 ـ 12 مارس 1997، مطبوعات التضامن، القاهرة (777 ص).

7 ـ من بعض ملامح سخرية الأقدار أنّ صاحب مقولة «صراع الحضارات» قد اغتنم فرصة استعادة الذكرى الرابعة لانفجار الأبراج (11 سبتمبر 2001 ـ 11 سبتمبر 2005) ليعبّر عن موقفه مما آلت إليه الأحداث في السياسة الدّولية فلم يتردّد في انتقاد من أشعلوا فتيل «الحرب الثقافيّة» بدون أدنى وعي بالمعقبات المحتملة وبدون الحكمة اللاّزمة لإدارة صراع الأزمات.

8 ـ انظر : طه حسين : نقد وإصلاح، دار العلم للملايين، ط 11، 1987، ص 180 ـ 187.

9 ـ الجاحظ : الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة دار الجيل، بيروت، 1996، ص ـ 74 ـ 77.

10 ـ رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق أبو ريدة، ج 1، ص 103.

11 ـ أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال، دار المعارف، سوسة (تونس) ص 32 ـ 34.

12ـ أبو الوليد بن رشد : كتاب فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، بيروت، 1961، ص 33.

13 ـ ذيل تاريخ بغداد لابن النجار أورده جورج مقدسي : نشأة الكليات ـ معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب، ترجمة محمود سيد محمد، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 19

14 ـ الحيوان، ج 1، ص 32.

15 ـ الخصائص، ج 1، ص 33.

16 ـ المقدمة، دار إحياء التراث. بيروت، ص 548 ـ ص 554.

17 ـ الإحكام في أصول الأحكام. ج ، ص 29.

ملف العدد

اللّغــة العربيّــة والتّرجمــة الآليــة



أ.د. عبد القادر المهيري*

من المعلوم أنّ تطور تقنيات الإعلامية والتقدّم المستمرّ لصناعة الكومبيوتر أوالحاسوب قد فتح آفاقا عريضة في مجال استغلال ذلك في الميدان اللغوي وبعث ما يسمّى الصناعات اللغوية، وتطلق هذه التسمية على أنواع من الوسائل والأنشطة والبرمجيّات للتّمكين من معالجة النّصوص، والإصلاح الإملائي الآلي، والتوثيق، وتحرير التلاخيص، وتجريد المصطلحات، وتخزينها، وتحليل الكلام وتأليفه ... كل هذه مجالات يمكن اليوم للآلة أن تقوم بها مكان الانسان أوعلى الأقلّ تساعده عليها.

وتمثّل التّرجمة الآلية نوعا من الخدمات التي يمكن للآلة أن تقدّمها للانسان. وينبغي هنا أن نميّز بين نوعين من استخدام الآلة في مجال التّرجمة: ما يسمّى بالترجمة بمساعدة الحاسوب من ناحية، وما يسمّى بالترجمة الآلية من ناحية أخرى؛ فالأولى هي عملية يشترك فيها الحاسوب والانسان، وتكون عن طريق حوار بينه وبين الآلة، فهذه تمدّه بعدد من الصيغ الممكنة لترجمة جملة أوفقرة، وهو يقوم باختيار أوفقها للنص المصدر وأوفاها له، فيقصي أثناء العملية ما لم يقع اختياره.

أمّا الثانية فتتمثّل في معالجة النص آليا تفضي إلى مدّ الانسان بترجمة خام لكامل النص لا دخل للانسان فيها أثناء عملية الترجمة من قبل الآلة، فهي قائمة على برمجة لا تسمح بالتفاعل مع الآلة وتوجيه اختياراتها. ولكن للانسان أن يتدخّل بعد انتهاء عملية الترجمة الآلية لإصلاح ما أخطأت فيه الآلة.

وقد فكر الانسان في استغلال إنجازات الثورة الاعلامية وما توفّره من وسائل آلية متطوّرة لاستعمالها في مجال الترجمة لما شهده العصر من تسارع إنتاج المعلومات وتكاثرها المتواصل، ولا تخفى ضرورة انتقالها السّريع من مكان إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر، فالتّمكن من المعلومة أساس المعرفة وأساس النفوذ والسلطة؛ ومن المهمّ أن يتمكن الانسان منها في أسرع وقت ممكن؛ ولئن كانت الترجمة من أهمّ وسائل نقل المعلومات وتبادل المعارف منذ أقدم العصور، فإنّ الاكتفاء اليوم بالمجهود البشريّ لا يمكّن من امتلاك الكمّ الهائل من المعلومات في مختلف المجالات وخاصّة العلميّة والتقنية والتي يتكاثر إنتاجها يوما بعد يوم، فلا سبيل إلى تجاهلها لمن يريد أن يعيش في عصره، فيستفيد من التقدّم والرقيّ، ويساهم فيه وللأمم التي تحاول ألاّ يتجاوزها التاريخ أو ألاّ تكون تحت رحمة الممسك للمعرفة أي الذي بيده وسائل القوة والسيطرة.

لا شك أنّ الرّأي السّائد أوالذي كان سائدا هو أنّ الترجمة فنّ لا يمكن أن تقوم به الآلة مكان الانسان، فليس للآلة من الكفاءة والمرونة ما يسمح لها بالسّيطرة على ما تسمح به كل لغة من هامش حريّة، وما يتضمّنه كل خطاب من مقدار أدنى من الابتكار، وما ينتمي إليه من سياق ومقام، وما فيه من معان حافّة وإيحاء وانزياح عن المعاني المحددة التي زوّد بها. كيف يمكن للآلة أن تأخذ بعين الاعتبار ما في الخطاب الذي تترجمه من تصرّف المتكلّم في استعمال اللغة، وأن تميّز بين مجال الإلزام واحترام

* أكاديمي تونسي معروف.

القواعد والمعايير التي حدّدت لها ومجال الابتكار والمرونة التي يسمح بها المقام.

لكن هذه النظرة لم تعد اليوم سائدة، بل أصبحت الترجمة ينظر إليها أيضا على أنها صناعة لها تقنياتها وتكاليفها، توفّر منتوجا من اللازم مراعاة سرعة إنتاجه والحدّ من تكاليفه، وذلك بفضل ما حققته صناعة الحاسوب من تقدم وتفنّن، وكذلك بفضل ما توصلت إليه البحوث اللسانية من التحكم في وصف اللغات وتحليلها مما يمكّن من تزويد الآلة بأكثر ما يمكن من المعلومات حول مكوّنات اللغة من مفردات وأبنية، ولا تنفك هذه البحوث تتكاثر وتتنوع وتزداد دقة وتفصيلا.

لقد اتّجهت البحوث اللغوية والتكنولوجية إلى استغلال جانب الانتظام الذي تتسم به اللغة لأكل لغة– والمتمثل في أبنيتها وقوالبها مما يمكّن من ضبطها وتحديدها، وكل خطاب، ولنقلْ كل إنتاج لغويّ، ينشأ طبقا لهذه الأبنية والقوالب، فهي دائما كامنة فيه مهما كان تصرّف المتكلّم فيها ؛ لذا يمكن التوصّل إلى تجريد الأبنية النحوية وإقامة برمجة تجعل الآلة قادرة على التعرّف عليها في تحليل النصوص والترجمة الآلية، وقد حصل ذلك بالنسبة إلى عدد من اللغات وخاصة الانكليزية والفرنسية واليابانية. ذلك أنّ حرية المتكلم إزاء الأبنية النحوية محدودة، لكن الصّعوبة تكمن في استعمال المفردات ورصفها في هذه الأبنية، فضمّ بعضها إلى بعض، وعقد الواحدة مع الأخرى خاضع لاعتبارات دلالية منطقية فضلا عن الاستعمالات المجازية التي يستحيل تقنينها ومدّ الآلة بما به تتعرّف عليه.

لذا فالبحوث في مجال الترجمة الآلية وبرمجتها تعتمد أساسا المجالات التي تستعمل فيها لغة محايدة موضوعية إن جاز التعبير، لغة ليس من العسير السيطرة على مصطلحاتها وخاصّة على استعمالها لخلوّها ممّا يحدث الالتباس، كما أنّ البعد الشخصيّ للمتكلّم فيها محدود، بل قد يكون ضئيلا إلى أقصى حدّ لأوقد ينعدم تماما - في تحرير نصوص خاضعة لقواعد صارمة وتعليمات دقيقة.

فمن أقدم التجارب في ميدان الترجمة الآلية ترجمة نصوص التكهنات الجوية التي وضعت برمجتها في جامعة منريال (Montréal)، فمنذ 1977 اعتمدت هذه البرمجة لترجمة نصوص النشرة الجوية في الكندا من الانكليزية إلى الفرنسية ثم من الفرنسية إلى الانكليزية، ترجمة مرضية تتم يوميا ساعة بعد ساعة، ويمكن تفسير نجاح هذه الترجمة بقصر البرمجة على مجال محدّد وبما تتسم به النصوص المعنية من صبغة تكرارية؛ فمفرداتها محدودة لا تتجاوز الألفي وحدة، وأبنيتها النحوية قارّة بل متحجرة مما يتسنّى بفضله تزويد الآلة بأبنية متوازية في اللغتين.

وتعتبر لغات التكنولوجيا والإدارة والعلم والتجارة الخارجية لها من الخصائص القارّة ما يجعل ترجمتها آليا ممكنة، فأهمّ مفرداتها من الرّصيد الإصطلاحي أي الوحدات التي لا يعتريها الالتباس، فلا مشكل في ترجمتها آليا إلاّ إذا تعدّدت المصطلحات للمفهوم الواحد، وحتى في هذه الحالة فليس من العسير تجاوز الصعوبة بتزويد الآلة بالمترادفات، أما الأسلوب فجانب البعد الشخصيّ في لغة هذه المجالات محدود.

لذا تعدّدت برمجات الترجمة في الدول الكبرى لاستغلالها آليا في ترجمة النصوص الخاصّة بها. وممّا دفع البحث لهذا الغرض كمية ما يترجم من النصوص المتعلقة بالتكنولوجيا والإدارة والأنشطة الاقتصادية عامة. ففي سنة 1990 على سبيل المثال بلغ عدد الصفحات المترجمة في الولايات المتحدة وأوروبا واليابان 450 مليون صفحة، منها 180 مليون صفحة لنصوص تكنولوجية (أي 40%)، و112 مليون صفحة لنصوص التجارة الخارجية (25%)، و45 مليون صفحة لنصوص علمية (10%)، و22،5 مليون صفحة لنصوص إدارية (5%)، أي أنّ ما ترجم في السنة المذكورة من نصوص هذه الميادين مثّل وحده 80% من كلّ ما ترجم في الدول المعنية، في حين أنّ النّصوص الأدبية لم تمثّل إلاّ 5%من المجموع (أي22.5 مليون صفحة).

أما اللغات التي ركّز عليها الاهتمام في الترجمة الآلية فهي باعتبار اللغة المصدر واللغة الهدف:

	المصدر	الهدف
الانكليزية	48 %	45 %
اليابانية	32 %	24 %
الفرنسية	8 %	12 %
الألمانية	5 %	-
الروسية	2 %	5 %
الاسبانية	-	10 %
غيرها	5 %	4 %

وقد بلغ عدد الأنظمة المستعملة للترجمة الآلية في الولايات المتحدة وأوروبا ما لا يقلّ عن خمسة عشر نظاما، وعن عشرة في اليابان؛ وتستعمل دول أخرى كالصين والدول التابعة للاتحاد السوفياتي سابقا عددا من الأنظمة الخاصّة، كلّ هذا فضلا عن منظومات وضعتها جامعات خاصّة بها تستغلها في ميادين البحث.

ليس من الغريب إذن أن تحظى الترجمة الآلية باهتمام الدول وأن تحظى بعناية المموّلين، فتخصّص لها من الاعتمادات ما يمكّن من تطويرها وتحسين مردودها والبحث المتواصل عمّا يجعل الآلة مؤهلة لتوفير ترجمات أقلّ أخطاء وأكثر أمانة للنصوص المصدر. ولا يقتصر البحث هنا على جانب التكنولوجيا والسّعي إلى صنع حواسيب أكثر ملاءمة للترجمة الآلية، فهو لغويّ أيضا يتمثل في رصد منتوج الترجمة الآلية وتتبّع أخطائها والبحث عن أسبابها والسّعي إلى تزويد الآلة بما يمكّنها من تجاوزها.

من أهمّ الأنظمة المستعملة اليوم ما يعرف بنظام SYSTRAN الذي ظهر منذ السبعينات قصد الترجمة من الروسية إلى الانكليزية استجابة لمتطلبات الحرب الباردة، واستعمله السلاح الجوي الامريكي ثم النازا سنة 1973، وفي سنة 1974 بدأ تطبيقه على الترجمة من الانكليزية إلى الفرنسية، فاستعمله الديوان الفيديرالي الكندي للترجمة وشركتا "فورد" و"جنرال موتورز"، ثم تبنّته مجموعة الدول الأوروبية للترجمة من الانكليزية إلى الفرنسية ثم من الفرنسية إلى الانكليزية، ويمثل هذا التبنّي عاملا هامّا في تطوير هذا النظام واستعماله لأزواج لغوية أخرى؛ ويبدو أنّ هذا النظام أراده واضعوه ومستعملوه مرنا ليس خاصّا بنوع محدّد من النصوص ومجال معين من النشاط، اذ يمكن تكييفه ليلائم الغاية المرجوة منه. وبالنسبة إلى العربية فيبدو أنّه تم في أواخر السبعينات من القرن الماضي وضع مشروع لهذا النظام في ألمانيا يمكّن من استعماله في لغتنا، لكن لا يبدو أنّه لقي رواجا هاما. على أنّ البحث قصد استعمال هذا النظام للترجمة من العربية إلى الانكليزية قد تواصل بل استؤنف لوضع معجم للتحليل الصرفي لمفردات العربية.

إنّ تبنّي هذا النظام من قبل المؤسسات المذكورة وغيرها مثل اكسايروس (Xéros) وشركة L'Aérospatiale مكّن من تحسين مردوده وخاصّة من توسيع نطاق المعاجم المخزنة فيه وإثرائها.

معنى هذا أنّ مصير مشاريع الترجمة الآلية بالنسبة إلى أيّ لغة من اللغات وإلى مجالات المعرفة والتكنولوجيا رهين المؤسسات التي ترى في اعتمادها فائدة واقتصادا في التكاليف؛ فالمشروع الذي تتبنّاه المؤسسة يحظى بدعمها المالي قصد تطويره وتحسينه وتوسيع مجال استعماله.

واذا كانت الدول الكبرى التي تنتج المعرفة في حاجة إلى الترجمة وإلى ما يمكّن كل واحدة منها من الحصول على ما ينشر بلغات غير لغتها بأسرع ما يمكن وبأقلّ التكاليف فانّ العربية أحوج من غيرها إلى الترجمة من اللغات السائدة، ولا يمكن للترجمة البشرية أن تنقل إليها كل ما ينتجه الفكر البشري من علم وتكنولوجيا، ولا أن تجنّد من المترجمين المختصين في اللغات المعنية والمجالات المعرفية لمواجهة السّيل الجارف من المعارف والمعلومات. لذا فنحن في حاجة إلى استغلال إمكانيات الترجمة

الآلية على أوسع نطاق وفي المجالات التي لا تثير لغتها مشاكل عويصة كلغة التكنولوجيا والعلم ...

نقول هذا ونحن واعون بأنّ الآلة لا توفّر إلاّ ترجمة تقريبية أوخاما إن جاز التعبير، تحتاج إلى النظر فيها للتثبّت من توفيقها وإصلاح ما يبدو خاطئا أوتهذيب ما يبدو نابئا. لكن نقول أيضا إنّ الآلة إذا أعدّت لها العدّة من برمجة صائبة وزوّدت بأكثر وأدقّ ما يمكن من المعلومات تحدّ كثيرا من تكاليف إصلاح ترجمتها وتهذيبها فضلا عن مضاعفة طاقة الإنجاز وسرعتها.

لكن لا توجد ـ حسب ما نعلم ـ خطة عربية شاملة لاستغلال إمكانيات الترجمة الآلية وتوفير الطاقات البشرية والمالية لبعث برامج بحث قصد استغلال تطوّر صناعة الحاسوب لوضع برامج ملائمة لترجمة النصوص المتنوّعة أوعلى الأقلّ الخاصّة بالتكنولوجيا والعلم والاقتصاد.

ولنلاحظ هنا أنّ استعمال الحاسوب للترجمة الآلية ليس عملا منعزلا عن الصناعات اللغوية الأخرى، بل يجب النظر إليه باعتباره من نتائج تطويع الآلة للقيام بعدد من الأعمال تقتضي تزويدها بالمعاجم الأحادية اللغة للتحليل والتركيب والثنائية اللغة أوالمتعدّدة اللغات للترجمة وتزويدها كذلك بأدقّ وصف للغة المصدر واللغة الهدف وبما يمكّنها من الإصلاح الإملائي ... ولنقلّ إنّ الترجمة الآلية رهينة كل هذا ولا يمكن أن تجدي نفعا إذا لم تكن اللغات المعنية بها قد وفّر لها الباحثون البرامج الملائمة وزوّدوا بها الآلة.

ومما لا شك فيه أنّ البحوث في هذه المجالات قد بدأت منذ حوالي ثلاثة عقود في جامعات عربية وأوروبية وأمريكية، فمن الأعمال التي استغلّت تكنولوجيا في مجال المعجم العربي "جامع المعاجم" الذي يضمّ رصيد المفردات الواردة في كتاب العين والصّحاح والمقاييس في اللغة ولسان العرب والقاموس المحيط ويمثل قاعدة معطيات يمكن استغلالها بانتقاء ما احتفظ به الاستعمال ومقارنة استعماله قديما باستعماله في لغة اليوم؛ ومنها المعجم الطبيّ الموحد الانكليزيّ العربيّ الذي يضمّ حوالي 150.000 مصطلحا؛ كما يمكن الإشارة إلى مجموعة من بنوك المصطلحات الأخرى؛ ومنها على سبيل المثال البنك التّابع لمركز دراسات الترجمة والتعريب في الرباط، وبنك المصطلحات التابع لمجمع اللغة العربية الأردني. أمّا وصف اللغة صرفيا وتركيبيا فهو أيضا موضوع بحوث في جامعات ومراكز بحث متفرقة منها الأجنبيّ كالجامعات الفرنسية بليون وقرونوبل وتولوز ... ومنها العربيّ، نذكر على سبيل المثال منها مخبر الاعلامية والمعالجة الآلية للعربية بالرباط. والمشروع الذي يشترك فيه معهد التصرّف بتونس وجامعة ليون 2 ... ولابدّ من الإشارة إلى ما أنجز وينجز في مختلف الجامعات من بحوث الدكتورا التي تتناول جوانب متنوعة من استخدام الحاسوب لوصف العربية أوتحليل مكوناتها أوتعليمها أو إصلاح إملائها أوبعض مشاكل ترجمتها. ولا شك أنّه يوجد عدد من المشاريع الأخرى في العالم العربي لا تحظى بالتعريف الكافي.

أمّا الترجمة الآلية فقد حظيت هي أيضا باهتمام باحثين عرب وأجانب. قد أشرنا إلى أنّ نظام سيستران له محاولة في الترجمة من الانكليزية إلى العربية، لكن مشروعه لم يروّج؛ ومن المساعي الأجنبية بداية محاولة في جامعة قرونوبل للترجمة من العربية إلى الانكليزية أيضا؛ ومنها مشروع المرصد الكندي لصناعات اللغة (O.C.I.L.)الرامي –في نطاق الفرنكوفونية– إلى وضع برنامج للترجمة من الفرنسية إلى العربية وخاصّة في مجال الصناعات الصيدلية، ومنها مشروع صخر، ومشروع المترجم العربي من الانكليزية إلى العربية الذي طوّرته شركة في مسقط بعمان، ومشروع "الناقل العربي" وقد طور بباريس ... بالإضافة إلى برامج الأنترنات للترجمة من الانكليزية إلى العربية.

إنّ هذه البرامج والمشاريع وغيرها ممّا لم نذكره أوما هو غير معروف دليل على أنّ الترجمة الآلية إلى العربية ومنها ليس مستحيلا، وأنّ برمجتها ليست

أعسر من برمجة اللغات التي قطعت شوطا في هذا المضمار؛ وليس المشكل لسانيا وتكنولوجيا، ولكنه يكمن في تشتت المجهودات. وتجاهل القائمين على المشاريع بعضهم لبعض مما يجعلها غير متكاملة بل قد يكرّر بعضها بعضا. والأهم من ذلك أنّه ـ حسب علمنا ـ لا يوجد مشروع له من الدّعم والإمكانيات ما يمكّنه من طول النفس اللازم لتطويره وتعهّده بالإصلاح والتهذيب، وتبنّيه من قبل عديد المؤسسات حتى يكتب له الرواج.

ذلك أنّ الأعمال التي لا بدّ من إنجازها قبل اعتماد الترجمة الآلية في نطاق واسع على جانب كبير من التنوع والتعقّد يقتضي مواجهتها حسب نظرة شاملة، وبرامج متناسقة، وفرق بحث متكاملة تضمّ من اللسانيّين والمهندسين الإعلاميين ما يكفي للاضطلاع بمختلف المهام الضّرورية.

ومن هذه الاعمال وأولها بدون شك وصف اللغة العربية كما تستعمل اليوم وصفا يقتضي القيام بمسح واسع النطاق ـ إن لم نقل شامل ـ للكتابات المعاصرة صحفية وعلمية واقتصادية وأدبية لضبط مفرداتها، ورصد معانيها وما طرأ عليها من تطوّر أوتغيير، فالعربية كغيرها من اللغات تتطوّر، ولو أنّ تطورها لا يحدث قطيعة مع تراثها، ولا يحول دون التعامل معه؛ وإذا اعتبرنا أن برمجة الترجمة الآلية يقوم عادة على مراعاة نوعية النصوص والمجالات المعرفية التي تنتمي إليها فلا بدّ من إعداد معاجم مختصة أوبنوك مصطلحات تزوّد بها الآلة حسب النصوص التي نروم ترجمتها آليا.

إنّ إعداد معجم للعربية المعاصرة خطوة أولى لتهيئة معجم ألكتروني يتضمّن لألتمكين الآلة من التعرف على استعمال كل كلمة من كلماته— كلّ ما يتعلّق بالمفردة من خصائص صرفية وتصريفية وتركيبية وإعرابية ودلالية مع مراعاة السياق الذي ترد فيه. وإذا اعتبرنا أنّ الآلة لا تردّ إلينا إلا ما نزوّدها به فإنّ المعلومات الصّرفية والنحوية التي نمدّها بها ينبغي أن تشفع بما به تميّز بين المعاني حسب السياقات التي ترد فيها، فلا يكفي مثلا أن تميّز الآلة بين الفعل والإسم والحرف في تركيب معيّن، بل ينبغي أن تكون قادرة ـ لتركيب جملة مقبولة معنويا ـ على الربط المعنويّ المنطقيّ بين فعل معيّن والإسم الذي معه ويفيد معنًى مقبولا. ويمكن حسب البحوث الجارية في بعض المخابر الأروبية تزويد الآلة بسمات معنوية تجنّبها أكثر ما يمكن من الأخطاء، وهذه السمات هي ما يسمى بصنف الأشياء (Les chasses d'objet) بالإضافة إلى هذا ينبغي إعداد المعاجم الثنائية اللغة أوالمتعدّدتها فضلا عن قائمات التراكيب المسكوكة والخاصّة بكل لغة، أي من التي تفضي ترجمتها حرفيا إلى عبارات غير مفهومة أوسخيفة.

هذا باختصار ما يجيب إنجازه من أعمال مسبقة للتوصّل إلى الاستفادة من الترجمة الآلية واستغلالها لترجمة أكثر ما يرد علينا من كتابات وخاصّة علمية وتكنولوجية ... وإذا علمنا أنّ كل مفردة تزوّد بها الآلة تحتاج إلى تحديد سماتها الصّرفية والنحوية والمعنوية حسب السياقات المختلفة التي يكون فيها استعمالها مقبولا أدركنا ضخامة المجهود اللاّزم الذي لا يمكن بذله إلاّ في نطاق مشروع ضخم تقوم بأعبائه وتكاليفه مؤسسة أومؤسسات قوية غنية مقتنعة بأنّ الترجمة الآلية تعود عليها بالفائدة.

لقد اخترنا لنبيّن ما تثيره الترجمة عامّة والآلية منها خاصّة من مشاكل ناجمة أساسا من صعوبة حصر معاني الوحدات المفيدة أوالكلمات، وتشعّبها واختلاف مفهومها من سياق إلى أخر ـ اخترنا مثال ما يسمّى بالأفعال الناقلة أوالحاملة للإشارة بإيجاز إلى تعقّد الوصف الدلاليّ الذي يثيره جانب محدود من الوحدات المفيدة أوالكلمات هي أفعال ليس لها محتوى دلاليّ، فهي فارغة ـ أوتكاد تكون فارغة ـ دلاليا، فهي تستعمل لتحيين الأسماء أوالمشتقّات المؤدية للمعلومة الأساسية في الجملة، مثال ذلك فعل قام في قولنا: قام الوفد بزيارة الجامعة، فالمقصود تبليغه هنا هو الزيارة، والدليل على فراغ الفعل المذكور من الدلالة المعجمية في هذا المثال أنّنا نجده في الاستعمال متصلا بعديد الوحدات الإسمية

ذات المعاني المتنوعة: قام المجلس الأعلى للثقافة بالدعوة إلى مؤتمر الترجمة، قام معهد الإحصاء باستطلاع الرأي العام، قامت المنظمة بإعانة المعوزين؛ فما يراد تبليغه هنا هو على التوالي الدعوة والاستطلاع والإعانة.

إنّ هذا الفعل وأمثاله ـ وهي عديدة ـ لا يؤدي في هذه الجمل معناه المعجميّ الأصليّ أي انتصب، فقد جرّد من هذا المعنى، واستعمل لتحيين الأسماء التي وقع عليها القيام في الأمثلة المذكورة أي: زيارة، دعوة، استطلاع، إعانة. ونعني بالتحيين التعبير عن زمن الجملة، فليس له من دور هنا سوى التحيين الزمنيّ. وتسمّى هذه الأفعال ناقلة لأنّها تنقل الإسناد من الفعل إلى الإسم، والإسناد ليس له هنا المعنى المتعارف في النحو العربيّ، وإنّما يطلق على الوحدة التي تحمل المعلومة النواة أوالأساسية في الجملة، وهي في أمثلتنا الوحدات المذكورة. وقد سميت هذه الأفعال أيضا بالحاملة بمعنى أنّها تحمل الشحنة الزمنية التي لايمكن للإسم المسند التعبير عنها.

تلاحظ ظاهرة الأفعال النّاقلة في كل اللغات، وأول من لفت الانتباه إليها ياسبرسن، وما انفكّ علماء اللسانيات يهتمّون بها وخاصّة في مجال معالجة النصوص ومجال الترجمة والسعي إلى السيطرة على ما لابدّ من مراعاته في تزويد الآلة بخصائص الوحدات والتّراكيب، وقد خصّصت ـ وتخصّص لها ـ بحوث لرصد طرق استعمالها في لغات مختلفة ومن هذه البحوث، وهي نادرة حول اللغة العربية، دراسة قدمها باحث تونسي البشير الورهاني باشراف الأستاذ الطيب البكوش، لنيل الدكتورا من جامعة منوبة التونسية بعنوان: "الأفعال النّاقلة في العربية المعاصرة: بحث في الخصائص التركيبية والدلالية"، وقد تمكن الباحث لإنجاز هذه الدراسة من الاستفادة من الأعمال التي أنجزت أوتنجز في مخبر اللسانيات الاعلامية بجامعة باريس 13 (L.L.I.) حول عدد من اللغات كالفرنسية والاسبانية والالمانية والايطالية واليونانية والكورية. وبقدر ما استفاد من خبرة القائمين على هذا المخبر والعاملين به وبما توصلّوا إليه من نتائج تخصّ اللغات المدروسة وما استخلصوه من ظواهر عامة يشترك فيها العديد من اللغات تمكّن من التفطّن إلى ما هو خاصّ بالعربية. يتجلّى من خلال هذا البحث أنّ التعرّف على الأفعال الناقلة يقتضي تجريد كمّ كبير من النصوص العربية لضبط ما يستعمل من الأفعال ليؤدّي وظيفة الناقل وما لا يستعمل لهذا الغرض وهو ما يسمّيه الباحث الأفعال الإسنادية، أي التي تحمل المعلومة الأساسية. ويتبيّن من النصوص التي قام بفحصها واستخراج الأفعال الناقلة منها أنّ العربية المعاصرة كثيرا ما تركن إلى استعمالها، وقد تجاوز عدد ما استخرجه منها في النصوص التي عالجها الثلاثمائة (319)، ونعلم جميعا رواج أفعال في لغة الصحافة مثل أبدى وأبرم وأجرى وأدلى وأدى وأصدر وأعرب وارتكب والتأم وتناول وحصل وحقق وسنّ وعقد وقام وقدّم ونظّم ووجّه ووقّع ...كل هذه الأفعال وغيرها تقترن بأسماء اسنادية في وظيفة الفاعل أو المفعول وتؤدي المعلومة الأساسية.

كما يتبيّن من هذا البحث أنّ الأفعال الناقلة أنواع باعتبار مدى فراغها الدلاليّ فمنها ما هو فارغ دلاليا فراغا كليا لا فائدة في استعماله سوى التحيين الزمني مثل يقوم بزيارة المدينة أوأبرم الطرفان اتفاقا، ومنها ما يؤدي إضافة إلى التحيين معنى آخر يعدّل الكلام أو يوجّهه وجهة معيّنة بفضل ما يحتفظ به من معناه المعجميّ الأصليّ، ففي قولنا تكرّرت الزيارة إلى المدينة اضطلع الفعل بدور التحيين لكنه يفيد أيضا وفي آن واحد التعدّد، ولذا فإنّ حذفه لتعويضه بقولنا زار المدينة يغيّر مجرى الكلام تماما.

وقد أدّى النظر في الأفعال النّاقلة الواردة في المدونة المعتمدة إلى أنّ المعاني المعجمية التي احتفظ بها جانب منها متنوعة، فمنها أفعال مظهرية أي تحدّد كيفية وقوع الحدث من حيث الشروع فيه أواسترساله أو انتهاؤه أوتكرره مثل شرع وتواصل أو استمرّ وأنهى وجدّد، ومنها الأفعال السببية أوالجعلية مثل جعل ودفع، ومنها ما يفيد الحدّة مثل غمر واستشاط، ومنها ما يدلّ على التشارك مثل

تبادل، وقد أحصى الباحث ما يتجاوز العشرين نوعا.

ومن خصائص النّواقل في العربية أنها قد تكون من قبيل الأسماء كما هو الشأن في شرع في القيام بحملة ديبلوماسية أو تمّ إجراء تجربة، فكلّ من القيام وإجراء يقوم في الجملتين المعنيتين بدور الناقل، ونحن هنا إزاء تركيب معقّد يتضمّن ناقلين اثنين.

وإذا كانت الأفعال الاسنادية تحتاج - في نطاق المعالجة الآلية والترجمة خاصّة- إلى تزويد الآلة بمعلومات صرفية وتركيبية ودلالية دقيقة فإن الأفعال النّاقلة في حاجة إلى تفاصيل أكثر تنوعا ودقّة وتعقيدا لما يسمح لها به فراغها الدّلاليّ التّام أوالجزئيّ من سعة الاستعمال وتنوّع دلالة المكونات التي تنعقد معها، فممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المكوّنات أكثر تنوّعا من التي ترد مع الأفعال الإسنادية ممّا يقتضي للمعالجة الآلية تحديد كلّ الأفعال الناقلة الممكنة مع كلّ الأسماء الإسنادية الممكن استعمالها في العربية المعاصرة مع كلّ فعل منها.

تمثل النواقل من أفعال وأسماء ظاهرة من الظواهر التي لفتت إليها الأنظار حديثا البحوث اللسانية، وهي من أهمّ الصعوبات التي تعترض المعالجة الآلية للّغات. لكن يمكن أن نقول إنّ الاهتمام بها في العربية وفي غيرها من اللغات سببه الرئيسيّ هو الطموح إلى توفير السّبل لمعالجتها وترجمتها آليا، وليس ذلك بالأمر المستحيل. فالبحث الذي أشرنا إليه دليل على إمكانية ذلك، ولكنه لا يمثل إلاّ خطوة في سبيل تذليل الصعوبات الناجمة عن تشعّب هذه الظاهرة ولا بدّ من تضافر الجهود لهذا الغرض.

وبصفة أعمّ فإنّ العربية لا غنى لها عن الاستفادة من إمكانيات الترجمة الآلية حتى يتسنّى لها نقل السّيل العارم من المعلومات التي تظهر يوميا بلغات أخرى، ولكن ذلك يتطلب تكاتف الباحثين في الجامعات ومراكز البحوث، وتكامل مجهوداتهم تدعمهم مؤسسات قوية لأنّها تؤمن بمجهودهم وتستفيد منه وتوفّر لهم من الامكانيات ما يكفي لتطوير الأنظمة والبرامج التي تزيد في نجاعة الترجمة الآلية وتحسين مستمرّ لمردودها.

*حاولنا في هذا البحث أن نبيّن أهمية الترجمة الآلية وحاجة العربية إليها وجانبا من العقبات التي ينبغي تجاوزها.

وقد بيّنا في البداية ما يمكن أن تقدّمه الآلة من إعانة للمهتمّين بالترجمة، والأسباب التي دعت إلى استخدامها في ترجمة النصوص أوعلى الأقلّ أنماط معيّنة منها باعتبار أنّ الترجمة المعتمدة في هذه النصوص لم تعد تعتبر فنّا بل أصبحت ينظر إليها باعتبارها صناعة لها قوانينها ومردودها.

ثم أشرنا إلى استعمالها في البداية لترجمة نصوص محدودة الوحدات المفيدة وذات الصبغة التكرارية، ثم لترجمة نصوص تقوم على رصيد اصطلاحي لا يعتريه الالتباس ولا دخل كبير في أسلوبها لذات المحرّر. وأشرنا بعد ذلك إلى عدد من الأنظمة المعتمدة في الترجمة الآلية وخاصة إلى نظام "ساستران" SESTRAN، وإلى أنّ تطوير هذه الأنظمة ومصيرها متوقّف على المؤسسات التي تموّلها وتؤمن بمفعولها وتعتمد برامجها.

وفي القسم الثاني من البحث أشرنا إلى أن البحوث الخاصّة باستعمال الآلة في مجال معالجة اللغة العربيّة آليا انطلقت منذ ثلاثة عقود وذكرنا نماذج من نتائجها وخاصّة بعض المعاجم وبنوك المعطيات. كما ألمحنا إلى مخابر وبحوث ومشاريع في جامعات ومراكز بحث أروبية وعربية وإلى بعض برامج الترجمة الآلية من العربية وإليها.

ثم اعتبرنا أنّه لا مناص من اعتماد العربية للترجمة الآلية في مجال التكنولوجيا والعلوم خاصّة، لكن ذلك يبقى رهن تضافر ما تشتّت من طاقات الباحثين وجهودهم والامكانيات المادية المتاحة لهم ولكامل بحوثهم. فضخامة الأعمال اللازمة للتوصّل إلى برمجة تعطي ترجمة مقبولة لا يمكن أن يقوم به فرد أوعدد محدود من الأفراد أوفرق البحث، والمعطيات اللسانية والتقنية التي

ينبغي أن تزوّد بها الآلة في غاية التشعب والتعقّد.

وختمنا البحث بتقديم مثال لتعقّد ظاهرة لغوية تتمثل في ما سمّي بالأفعال الناقلة، وقد اعتمدنا لذلك على بحث قدّم لنيل الدكتورا من جامعة منوبة، بالجمهورية التونسية، حاول فيه صاحبه دراسة هذه الظاهرة بضبط قائمة من الأفعال الناقلة المستعملة في العربية المعاصرة وتصنيفها ومختلف استعمالاتها والسّمات التي ينبغي اعتمادها في تزويد الآلة بما يخصّها حتى يتسنّى لها التعرّف عليها وترجمتها ترجمة مقبولة.

الهوامش والإحالات

– د. ابراهيم أنيس :الحاسبات الالكترونية في البحوث اللغوية، مجلة المجمع العلمي المصري للثقافة العلمية، عدد 42، 1974.

– د. حسام الخطيب :الترجمة الآلية وقضية تعريب العلوم، بحوث مهداة إلى مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، 1422 – 2001.

– صفران الصفران ومصطفى عارف: التمثيل الدلالي للجمل العربية: أعمال مناظرة اللغة العربية والتقنيات المعلوماتية المتقدّمة، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، 1989.

– د. عبد الرحمان الحاج صالح: منطق النحو العربي والعلاج الحاسوبي، السجل العلمي لندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1414 لأ 1993.

– د. عبد الفتاح أبو السيدة: الحاسب الآلي والترجمة، مجلة اللسان العربي، عدد 28، 1408 لأ 1987.

– د. محمد الحناش: مشروع نظرية حاسوب–لسانية في بناء معاجم آلية للغة العربية، مجلة التواصل اللساني، مجلد 2، عدد 2، 1990، فاس.

– د. محمد عزالدين: الناقل العربي أول برنامج للترجمة الآلية من العربية إلى الانكليزية، ندوة واقع اللغات ومستقبلها في تونس، مركز النشر الجامعي وجامعة الآداب والفنون والعلوم الانسانية، تونس، 2000.

– د. محمود إسماعيل صيني: الترجمة الآلية واللغة العربية، وقائع من ندوة استخدام اللغة العربية في الحاسب الآلي، دار الرازي، بيروت، 1989.

– د. نادية حامد حجازي: الترجمة الآلية، هل هناك آفاق حقيقية؟، ندوة الترجمة والثقافة العربية، مطبوعات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، .2001

– د. نهاد الموسى: العربية: نحو توظيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000.

– د. نبيل علي ود. نادية حجازي: الفجوة الرقمية: رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة، الكويت، 1426 ـ 2005.

ملف العدد

من مشاكل الترجمة في المعجم

إبراهيم بن مراد*

للمعجم مفهومان : اولهما عامّ ، وهو مجموعُ الوحدات المعجميّة التي تكوّن لغةَ جماعة لغوية مّا تتكلّم لغةً طبيعيّة واحدة ، فهو إذن رصيدُ الوحدات المعجميّة المشتَرَكُ بين أفراد الجماعة اللغويّة الواحدة ، المستعملُ في التعبير عن أغراضها ، وهو بهذا المفهوم يعبّر عمّا يُسَمّى بالفرنسيّة "Lexique"، ونسمّيه "المعْجَم اللسانيّ"، فإذا خصّصنا المصطلح قلنا "المعجَم"؛ والمفهوم الثاني خاصّ، وهو أنّه مدوّنةُ الوحدات المعجميّة في كتاب ، قد يطول وقد يقْصُرُ، مرتّبَةً ومعرّفةً بنوْعٍ ما من الترتيب والتعريف ، وهو بهذا المفهوم الثاني يعبّر عمّا يسمّى بالفرنسيّة "Dictionnaire"، ويمكن تسميتُه "المعجَمَ المُدَوّن"، لكنّنا نفضّل تسميته "قاموساً" (1). والوحدة المعجميّة في هذا التعريف لا تعني "المفردَ البسيطة" فقط مثل "كَتَبَ" و"كتاب"، بل هي أوسعُ من المفردة ؛ فإنّ لها ثلاثَ خاصّيّات في المعجم هي: (1) "الإفْرادُ" الذي يكون في "المفردة"، والمفردة من حيث البنية الصرفيّة وحدةٌ صرفية معجمية (Morphème lexical) تامّة ، وهي عندئذ "جذْعٌ" بسيط أو وحدةٌ معجمية بسيطة،(2) والتركيبُ" فتتكوّن من مفردتين _ مثل "آذان الأرنب" و"آذان الجدْي" ، وهما اسمان لنباتين - أو من ثلاث مفردات فأكثرَ مثل "يوْم ذي قار" - وهو أحد أيّام العرب - و "الشّرْيانُ السباتيُّ الباطنُ" وهو من المصطلحات الطبّيّة التشريحيّة ، ويُمَيَّزُ بين النوعين بأن يُسمّى المتكوّن من مفردتين "مركّبًا" ويسمّى المتكوّنُ من ثلاث مفردات فأكثرَ "مُعَقّدًا" (3) والتّلازُمُ، فتكون الوحدةُ المعْجميّة "عبارةً معجميّةً" قد تلازَمَتْ عناصرُها بطول ائتلافها وكثرة استعمالها لتعبّر بها الجماعة اللغويّة عن خُصوصيّة ما في تجربتها في الكوْن ، وتكون العبارةُ إمّا تحليليّةً (Locution analytique)، قائمةً على مجاز قابل للترجمة الحرفيّة إلى لغة أخرى ، ومثالها "اقتفى الأثرَ" و "ضرَبَ في الأرْض" ، وإمّا اصطلاحيّةً (Expression idiomatique)، قائمةً على مجاز غير قابل للترجمة الحرْفيّة إلى لغة أخرى نتيجة الخصوصيّة الدلاليّة الغالبة عليها ، ومثالها "حنكتْه التّجاربُ" أي أحكمتْه ، و "ضرَبَ النّومُ على أذنه" أي غلبهُ النّوْم (2).

والمعجم اللسانيّ يكوّن مع النحو _ باعتبارهما نظامَيْن فرْعيَّيْن _ نظامَ اللغة العامّ ، على أنّ الوحدةَ المعجميّة _ وخاصّة إذا كانت مفردة أو مُركّبةً _ أسبقُ من الوحدة النحويّة _ وهي الجملةُ _ لأنّ هذه لا يمكن لها أن تتركّب وأن تكونَ سليمةَ التكوين دالّةً إلاّ إذا وُجِدَتْ وحداتُ المعجم لتكوّنها ، فلولا الوحداتُ المعجميّةُ إذن لما تكوّنت الوحداتُ النحويّة . لكنّ الوحدات المعجميّةَ لا قيمةَ لها في حدّ ذاتها ما لم تردْ في الخطاب فيعبّرَ بها المتكلّمُ في مقالات مسترسلة عن مقاصده . على أنّ الدورَ الحاسمَ الّذي يكونُ للوحدات المعجميّة في التعبير عن تلك المقاصد يجعلُ من "الإحالة" إلى الموجودات في واقع المتكلّم الواقعيّ _ وهو الواقعُ الملاحَظُ المشاهَدُ المُدْرَكُ بالحسّ _ وواقعه الحقيقيّ _ وهو الواقع النفسي الباطنيّ المُدْرَكُ بالذّهْن _ الوظيفةَ الأساسيّةَ للاستعمال اللغويّ. فإنّ اللغة _ وخاصّةً معجمها _ تصف الموجودات المنتمية إلى ذيْنك الواقعيْن .

* أستاذ التعليم العالي بكليّة الآداب والفنون والإنسانيّات بمنوبة، رئيس جمعيّة المعجميّة العربيّة بتونس.

أمّا النحوُ _ في أيّ لغة من اللغات _ فيصف بنْيَةَ التعبير فيها، أي أنماط التركيب اللغويّ داخل اللغة ذاتها باعتبارها مجموعةَ رموز تحيلُ إلى نظام اللغة ذاتها وليس إلى الموجودات خارجها . ووظيفةُ المعجم الإحاليةُ إلى الموجودات تُكْسِبُه دوراً مركزياً في الترجمة من لغة إلى أخرى .

ولا شكّ أنّ اللغات تختلفُ في وصف الموجودات باختلاف البيئات الثقافيّة التي تُلاحَظُ أو تُدْرَكُ فيها تلك الموْجودات التي تُوصَفُ . فإنّ البيئات الثقافيّة _ بأبعادها المكوّنة لها : أي البُنَى الاجتماعيّة والفكريّة والتقنيّة _ أنواعٌ ، منها البدَويّ والحضريّ والصحْراويّ والساحليّ والجبليّ والغابيّ ... إلخ. ولهذه البيئات صنْفان من الخصائص : خصائصُ مشتركةٌ باعتبار وجود الإنسان فيها جميعاً بما جُبِلَ عليه من طباع إنسانيّة وفُرِضَ عليه من ضرورات عيْش وتعامُل مع بني جنسه ، وباعتبار وجود وسط طبيعيّ فيها جميعاً متشابه العناصر لأنّ في كلّ منها مواليدَ طبيعيّةً من نبات وحيوان ومعادن وفي كلّ منها ظواهرَ طبيعيّةً قارّةً أو غيرَ قارّة من نور وظلمة وشمس وقمر وريح ومطر ... إلخ . كما أنّ لهذه البيئات خصائصَ مختلفةً باعتبار ما لكلّ منها من أثر في طباع الإنسان الذي يكوُن فيها وتحكّم في ضرورات عيْشه ونمط تعامله مع غيره من الناس وتوجيه لنظرته إلى الكوْن ، ثم باعتبار المتغيّرات في الوسط الطبيعيّ لأنّ من الأوساط ما يكونُ أوفقَ لبعض المواليد النباتيّة أو الحيوانيّة أو المعدنيّة دونَ بعض ، ومنها ما يكونُ أقبلَ لبعض الظواهر الطبيعيّة دون بَعْض ؛ وهذه المتغيّراتُ مهمّة جداً من حيث آثارُها في البُنَى الاجتماعيّة والفكريّة والتقنيّة التي تظهر في البيئات الثقافيّة لأنّها تُكْسبُ كلاًّ منها خُصوصيّات لا تُوجَدُ في غيرها من البيئات .

وتنتجُ عن الخصائص المشتركة والخصائص المختلفة بين البيئات ثلاثُ حالاتٍ في اللغة _ وخاصةً في معجمها _ ذات صلة وثيقة بالترجمة :

1 - أولاها نسمّيها قابليّةَ التناقُل . فإنّ الخصائصَ المشتركةَ ذاتُ قابليّةٍ في الغالب لأنْ تصفَها اللغاتُ المستعملةُ فيها دونَ مصاعبَ للتقارُب الشديد في رؤْيَة الإنسان المستعمل للغة لها حيثُما يكُنْ . فإنّ اللغة (أ) يمكنُ لها أن تنَقلَ ما يُوجدُ في اللغات (ب) و(ج) و(د) ... و(ي) من العناصر المعجَمية المحيلة إلى الموجُودات الحسيّة أو المجرّدة الموجُودة في الثقافات (ب) و(ج) و(د) ... و(ي) التي تصفُها لأنّ فيها هيَ أيضا من العناصر المعجميّة ما يُحيل إلى تلك الموجودات ذاتها لوجودها في الثقافة (أ) التي تصفُها . فإذا كانَ ذلكَ قلنا إنّ العناصرَ المعجميّةَ الموجودةَ في اللغات (ب) و(ج) و(د) ... و(ي) تقابلها في اللغة (أ) "خَانَاتٌ مليئةٌ" (Cases pleines)، ويمكن اعتبارُ ما يملأ تلك الخانات في اللغات . (Equivalents universels) فإنّ ما في الجسم من أعضاء مثل اليد والرجل والفم والعين واللسان والأنف ، وما يقوم به الإنسانُ من فعْل مثل الأكل والشرْب والنوم واليقظة والقيام والجلوس، وما يكونُ عليه من حالة مثل القوّة والضعف والجَمال والقبْح والجوع والشّبع والصحّة والمرض والحياة والموْت ، وما ينتابُه من شعور مثل الفرح والحزْن واللذّة والألم والحبّ والكرْه ، وما يلاحظه من ظواهر قريبة من إدراكه مثل الليل والنهار والحرّ والبرْد والبياض والسواد، وما يكون له من القرابة مثل الأب والأمّ والأخ والأخت والجدّ والجدّة والخال والعمّ ... إلخ ، كلّها من المكوّنات الأساسيّة لواقعيْ الإنسان الواقعيّ المدرَك بالحسّ والحقيقيّ المدرَك بالذهْن مهما تكنْ البيئة الثقافية التي ينتمي إليها، فَهي موْجُوداتٌ كونيّةٌ مشْتركةٌ منتميةٌ إلى مَقُولات طبيعيّة أو مقولات ثقافيّة قد استطاع الإنسانُ منذ فجر استعماله للغَة أن يدلّ إلى عناصرها بها .

وقد يسّر وجودُ هذه المتقابلات الكونيّة المحيلة إلى المقُولات الطبيعيّة (Catégories naturelles) والمقولات الثقافيّة (Catégories culturelles) المشتركة بين البيئات الثقافية وجودَ " المتوازيَات اللسانية " (Parallélismes linguistiques) ، ويعنْينا منها في

المعجم التوازي بين اللغات في " المقولات المعجمية " (Catégories lexicales) التي تنتمي إليها الوحداتُ المعجمية . وهذه المقولاتُ في جلّ اللغات خمسٌ أساسية ، أربعٌ منها تنتمي إليها وحداتٌ معجميةٌ تُوصَفُ بالتامّة لأنها ذاتُ وظيفة إحالية إلى تجربة الجماعة اللغوية في الكون ، وهي الاسم والفعل والصفة والظرف؛ فهي أدلّةٌ من اللغة تحيل إلى موجودات من خارج اللغة. فإنّ الاسمَ يحيل إلى ذوات الموجودات الحسيّة والمجرّدة ؛ والفعل يحيل إلى ما يصدُر عن الموجودات من الأحداث سواءٌ كانتْ أحداثاً "حَرَكيّة" تعبرّ عنها الأفعالُ المتعدّيةُ تعديةً مباشرة أو تعديةً غيرَ مباشرة ، أو كانتْ أحداثاً " حَاليّة " تعبرّ عنها الأفعالُ اللازمة لزوماً تاماً ؛ والصفةُ تحيل إلى ما في ذوات الموجُودات من الخصائص ، وينبغي ألاّ تُخْلَطَ الصفاتُ بالأسماء فتعدَّ منها في المعجم لأنّ ذلك إذا جاز في النّحوَ لتبعية النّعت لمنعوته في مختلف حالاته الإعرابية فإنه لا يجوز في المعجم لأنّ الصفةَ فيه غيرُ الموصُوف إذ لا تكون هي إلاّ مسنَداً بينما الاسمُ في علاقته بها لا يكونُ إلاّ مسنداً إليه ؛ ثم الظرفُ _ مع ما عليه تصورُه من اختلاف بين اللغات ـ وهو يحيل إلى المواضع المكانية والزّمانية التي تُمَوْضَعُ فيها المسمّياتُ وما يصدُر عنها من فعل وما تتّصف به من خصيصة ؛ وأمّا المقولة الخامسة فهي " الأداة " وتنتمي إليها وحداتٌ معجميةٌ غير تامّة لضعف قابليّتها الإحاليّة أو المرجعيّة ولاستعمالها وسائلَ أو وسائطَ - ولذلك سميّت "أدوات" - تَصلُ بين الأدلّة اللغوية داخل اللغة ذاتها (3). ولولا وجودُ هذه "المتقابلات الكونيّة" و "المتوازيات اللسانيّة" لما استطاعت الجماعاتُ اللغويةُ أن تتفاهمَ فيما بينها باللغة ولما أمكنَ للقاموسيّين أن يؤلفوا القواميس الثنائيّة اللغة أو المتعدّدة اللغات .وإذن فإنّ اللغات في هذه الحالة الأولى ذاتُ قابلية لأن يتناقلَ جميعُها ما تتطابق في استعماله من أرصدة معجميّة محيلة إلى ما تشترك فيه البيئاتُ الثقافيّةُ التي تصفها منَ الموجودات .

2ـ والحالةُ الثانية نسميّها "قابلية التناقل الجزئيّة"، وهي حالةُ اللغات التي تصف بيئات ثقافيّة ذاتَ خصائصَ مشتركة لكنّها رغمَ اشتراكها في الخصائص لا تخلو من تُغَايُرٍ في بعض عناصرها. فإنّ الموجودات التي توصَف قائمةٌ فيها جميعاً لكنّ التوافقَ بينها ليسَ تاماً ، إمّا لاختلاف في شكلها وإما لاختلاف في وظيفتها وإمّا لاختلاف في تصوّر الجماعة اللغوية الذهنيّ لها . وهذا كلّه مؤدّ إلى نشوء غموض يحيطُ بمفهومها بين الجماعات اللغويّة ويجعل لها من السِّمات عند المجموعة (أ) ما لا تراه فيها المجموعة (ب)، ويجعل لها من السمات عند المجموعة (ب) ما لا تراه فيها المجموعةَ (أ) والمجموعة (ج) . وإذن فإنّ الخانات المعجميّةَ في هذه الحالة تكون " خانات مليئة جزئياً " (Cases partiellement pleines) (4) لأنّ التقابلَ بينها عند الجماعات اللغوية ليس تاماً لاضطراب المفاهيم المرتبطة بالموجودات ، وذلك الاضطرابُ مؤدّ إلى اضطراب في تعيينها أو الإحالة إليها في اللغات المتناقلة لها .

ونضرب لهذه الحالة مثالاً من إحدى " المقولات الثقافية " القديمة في البيئات الثقافية وفي اللغات الواصفة لها ، هي " مقولةُ الأثاث " (Meuble)، والمثالُ الذي اخترْناهُ هو " أريكة ". وسنقارن بين استعمالاته في ثلاث لغات هي العربية والفرنسية والانغليزيّة ، لننظر في قابليته للتناقل فيها .

و" الأريكة " قطعة أثاثيّة قديمة في البيئة الثقافية العربية كانت مستعملة قبل الإسلام لأنها مذكورة في القرآن الكريم في أربع آيات (5). وذكرُها في القرآن باعتبارها من أثاث أهل الجنّة دالّ على أمرين : أولُهما أنّها كانت من أفخر القطع الأثاثية ومن أغلاها ثمنا ، وثانيهما أنها كانت من الأثاث المستعمل في البيئة الثقافية العربية منذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي على الأقلّ، ولولا ذلك لما اشتهرت حتى ارتفعت قيمتها فصارت مما يوعَد به للحياة في الجنّة . ثم إنها فيما يبدو كانت من الأثاث العربي الخالص لأنّ الاسمَ عربيّ الاشتقاق من " أرَكَ بالمكان

أُروكًا : أقام به " (6)، لكن تعريفها في القواميس العربية القديمة لم يحدّدْ مادّتها ولا وظيفتها الحقيقية بين قطع الأثاث الأخرى . وقد فسرّها الخليل (ت . 175هـ/791م) بأنّها " سريرٌ في حَجلَةَ ، فالحجلة والسرير : أريكةٌ" (7)، وذلك يعني أنّ وجود الأريكة يقتضي وجود السرير والحَجلَة معا؛ وفسرّها أبو عُبَيْدْ (ت . 210 هـ/ 825 م) في مجاز القرآن في موضعين بتفسيرين مختلفين : فالأرائكُ هي "السرُر في الحجَال " (8)، وهي " الفُرُشُ في الحجال " (9)، فهي إذَن إمّا سرير وإمّا فرْش ، على أن يكون كلّ منهما في " حَجلَةَ " ، وهي بيتٌ كالقبُةَ يستَرُ بالثياب ويزُيَّن . ويمكن أن يعدّ السرير مرادفا للفرْش من باب المجاز لأنّ الفرش يكون على السرير . وقد توسّع التعريفُ في لسان العرب لابن منظور (ت . 711هـ/ 1311م) واشتمل على عناصرَ جديدة لكنها لم تزد المفهوم ضبطا ودقّة بل زادته تعميمًا وغموضا . فالأريكة عنده " سرير في حجلة ، (...) ، وفي التنزيل: على الأرائك متكئون . قال المفسرّون : الأرائكُ السرُر في الحجال . قال الزجّاج : الأرائك الفُرُشُ في الحجال ، وقيل هي الأسرّةُ وهي في الحقيقة الفُرُش كانت في الحجال أو في غير الحجال ، وقيل الأريكة سريرٌ مُنَجدٌ مُزَيّنٌ في قُبَّةٍ أو بيْت ، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حَجلَةَ (...) ، وقيل هو كلّ ما اتكِئَ عليه من سرير أو فرْش أو منصةَ " (10) .

وقد انتقل هذا التعميم المقترنُ بالغموض إلى القواميس اللغوية العربية العامة الحديثة . فهي حسب المعجم الوسيط " مقعدٌ مُنَجَّدٌ "(11)، أي محْشُوّ ؛ وهي في لاروس " السرير المنجدّ الفاخر " (12)؛ وهي في المعجم العربيّ الأساسي " مقعد مزيّن مريحٌ " و " كلّ ما اتكِئ عليه من سرير أو فراش أو منصةَ (13) "، والفرع الثاني من التعريف فيه منقول حرفيا تقريبا من لسان العرب ؛ وهي في المنجد في اللغة العربية المعاصرة " مقعَدٌ مُنَجّدٌ أو سريرٌ أو مُتَّكَأ مزَيَّنٌ مريحٌ " و " كُرْسيّ ملَك ، عرْشُهُ " (14) فالأريكةُ حسب قواميسنا اللغويةَ العربية " المقعَدُ المحشوّ " و " المقعد المزيّن المريحُ " و " السريرُ "و "السرير المنُجّد الفاخرُ " و " الفراش " و " المنصةَ " و " المتُكّأ " و "كُرْسيّ الملِك " و " عرْشُ الملك " !

فإذا قصدنا القواميسَ الثنائيةَ اللغة نسترْشدها وجدْنا الغموض أشدّ . فهي في الغالب لا تعرّف المداخل فيها بل تكتفي بالمقابل العربي للمدخل الأعجمي أو بالمقابل الأعجمي للمدخل العربي تعريفا. لكننا وجدنا للأريكة تعريفا لا يخلو من توسّع في معجم المصطلحات العلمية والفنية ليوسف خيّاط _ وهو ملحق بلسان العرب ، عربيّ فرنسيّ انغليزيّ لاتينيّ _ الذي ورد فيه "مقعد طويل يتّسعُ لجلوس بضعة أشخاص ، وله عادة ظهرٌ يُعْتَمَدُ عليه في الجلوس "(15)، وقد جعل مقابلاً لها "Canapé" الفرنسية و"Sofa" المشتركة بين الفرنسية والانغليزية ، فأين هذا المفهوم من المفاهيم التسعة التي وردت للأريكة في القواميس الأحادية اللغة؟ ولكن هذا المفهوم الذي يريد له مؤلف هذا القاموس أن يُؤَدّى بمصطلحي "Canapē" و"Sofa" الأعجميين غير متّفق عليه في القواميس الثنائية اللغة الأخرى.

وقد نظرنا في قاموسين من تأليف مستشرقيْن ، ذويْ مداخل رئيسية عربية ، وقد أكّد مؤلفاهما حداثة المادّة المعجمية العربية فيهما ؛ أولهما عربي انغليزيّ هو قاموس العربية الحديثة المكتوبة (ADictionary of Modern Written Arabic) لهانس فيهر (H. Wehr) والثاني عربي فرنسي هو السبيل لدانيال ريغ . (D. Reig) وقد وضع فيهر للأريكة ثلاثة مقابلات هي«Couch» و«Sofa» و"Throne" (16)، ووضع لها مؤلّف السبيل أربعة مقابلات هي "Canapé" و "Lit d'apparat" و«Sofa» و "Coussin moelleux " (17) والمقابل الثالث عند فيهر "Throne" معناه " العرْشُ "، فليس هو إذن قطعة من الأثاث بعينها ؛ والمقابلان الثاني والرابع عند ريغ لا يحيلان إلى قطعة أثاث بعينها للتعميم الغالب عليهما . ويبقى لذلك مقابلان من الأول هما "Couch" و "Sofa"، ومقابلان من الثاني هما "Canape" و "Sofa" وقد اتفق الاثنان إذن في "Sofa" المشتركة بين الفرنسية والانغليزية ، لكنّ

التقابل بين "Couch" و"Canapé" لا يخلو من اضطراب؛ فقد نظرنا في نسختين مختلفتين صادرتين عن ناشرين مختلفين من القاموس الانغليزي الفرنسي والفرنسي الانغليزي هما Harrap's Shorter Dictionary وهو جزآن في مجلّد واحد، أولهما انغليزيّ فرنسي) وHarrap's New Shorter وهو أيضا جزآن في مجلّد، أولهما فرنسيّ انغليزي) فوجدنا "Couch" تقابل في الأول (18) في الفرنسية"Divan"وتقابل في الثاني "Canapé" (19) و "Divan"، ووجدنا "Divan" الفرنسية يقابلها في القاموسين في الانغليزية "Divan - فهي مشتركةٌ بين اللغتين - و "Couch" (20) ؛ لكنّ "Canapé" الفرنسيةَ لها في كلّ من القاموسين ثلاثةُ مقابلات انغليزية هي "Sofa" و"Couch" و"Settee" (21) ؛ أمّا "Sofa" الانغليزية فتقابلها في كليهما "Canape" الفرنسية (22)، و "Sofa" الفرنسية يقابلها فيهما معا "Sofa"و"Settee" الانغليزيتان(23).

وإذن فنحن أمام مجموعة كبيرة من المترادفات التي تعقّد أمر التعيين والتحديد تعقيدا كبيرا . وأبرز مظاهر الترادف هو الجامعُ بين "Canape" و"Sofa" الفرنسيتين في مقابلة "Couch"الانغليزية والجامعُ بين "Sofa" و "Couch " الانغليزيتين في مقابلة "Canapé"الفرنسية ،وهذا يعني أنّ الوحدات المعجمية الثلاثَ - Couch و Sofa و "Canape" تحيل إلى نفس القطعة الأثاثية في الفرنسية والانغليزية، وهذا ما يفسرّ مقابلة "الأريكة" لـ"Sofa" و "Canape" في معجم المصطلحات العلمية والفنية والسبيل ومقابلتها لـ "Couch" و "Sofa" في قاموس فيهر . ولا شكّ أنّ هذا التداخل هو الذي يفسرّ أيضا ترجمة "Couch"و "Sofa" في بعض القواميس الانغليزية العربية بـ "أريكة " (24)، وترجمة "Canape"و "Sofa" في بعض القواميس الفرنسية العربية (25) بـ" أريكة " كذلك . لكنّ هذه القواميس تضيف إلى "Sofa" مقابلا عربيا آخر هو " صُفَّةٌ " ، وهذا يعني أنّ" الأريكة " و " الصُفَّة " شيءٌ واحد!

والصُفَّةُ في الحقيقة كلمةٌ عربيةٌ قديمةٌ قد انتقلت إلى اللغات الأوروبية في شكلها الفرنسيّ والانغليزي أي- Sofa - للدلالة على قطعة من الأثاث معيّنة . فقد كانت تعني في العربية في القديم " الظُلَّة " و " المكان المُظَلَّل"، ثم حمُلَتْ في تاريخ غير محدَّد معنى"مصطبة مرتفعة ضيّقة"، وهذا المعنى الثالث هو الذي انتقل إلى الفرنسية والانغليزية في كلمة "Sofa" عن طريق اللغة التركية التي كانت تعني فيها " مصطبة مرتفعة مغطّاة بالفرُش والمخاد"، يستقبل عليها الوزير الأكبر ضيوفه " ، وقد دخلت الكلمةُ اللغةَ الفرنسيةَ في القرن السادسَ عشرَ لتدلّ على "مصطبة مرتفعة عليها مخادّ كثيرة " ، ثم أصبحت تعني بداية من القرن السابع عشر " سريرا للراحة ذا ثلاثة مساندَ، يتّخذ للجلوس أيضا " (26) ؛ أمّا في الانغليزيّة فإنّ لها عند البريطانيين معنى لا يختلف عن المعنى الذي لها عند الأمريكيين. فهي في الانغليزية البريطانية " مقعد طويل مريحٌ له ظهر وذراعان عادة ، يتّسع لأكثرَ من شخص واحد " (27)، وهي في الانغليزية الأمريكية " أريكةٌ طويلةٌ منُجَدَةٌ لها ظهرٌ وذراعان أو حدّان مرتفعان " (28) ؛ وهذا المعنى يختلف عن المعنى الذي تحمله "Couch" في القاموس الأمريكي على الأقلّ . فقد أعطيت في القاموس الانغليزي تعريفا شديد التعميم ليس فيه ما يميّزه عن تعريف "Sofa"، فقد ورد فيه: " قطعة من الأثاث يستطيع الجلوسَ عليها أكثرُ من شخص واحد (29). أمّا القاموس الأمريكي فقد ورد فيه : " قطعة من الأثاث تصلح لجلوس ما بين شخصين إلى أربعة أشخاص ، تكون على نمط الدكّة (bench) ذات ظهر وتكون أحيانا ذات متُّكأ على أحد جانبيها أو على الجانبين معا ، وتكون منجدّة كليًا أو جزئيًا " (30) والفرق بين القطعتين أنّ من السمات الضرورية في الأولى أن تكون منجدّةً ، ذاتَ ظهر ، وذاتَ ذراعين مرتفعين ؛ وأنّ من السمات الضرورية في الثانية أن تكون ذاتَ ظهر ، وأن تكون منجدّة لكن تنجيدَها يكون إمّا جزئيًا وإمّا كليًا ، أمّا المتُكأ فسمة لها لكنّها ليست ضرورية ، فإذا وُجد المتكأ لم تكن له سمةٌ قارّةٌ لأنّه قد يكون على جانبٍ واحد وقد يكون

على جانبين . وإذن فإن "Couch" غير "Sofa" إذ هما قطعتان من الأثاث مختلفتان ، وللتمييز بينهما في الترجمة نطلق على الأولى " أريكة " كما اقترحت قواميسنا الثنائيّة اللغة ، ونطلق على الثانية " صُفَّة " لكن دون أن نخلط بينها وبين الأريكة . وقد استعملَتْ الكلمة العربيّة بالمعنى الحديث مقابلا للكلمة الأعجمية ذات الأصل العربي منذ القرن التاسع عشر على الأقل (31) أمّا "Canapé" الفرنسية فهي المقابل لـ "Couch" الانغليزية و "أريكة" العربية وإن كان الغالبَ على قواميسنا الأحادية اللغة التي ذكرت " الأريكة " و "الكَنَبَة " - وهي تعريب "Canapé" في العاميّة المصرية الحديثة - التعميمُ المبالغُ فيه في تعريف الأولى والتخصيصُ المتّسمُ بالدقّة في تعريف الثانية (32)، فكأنّهما إذن شيئان مختلفان ، لكن إذا اعتبرنا "الكنبة" تعريبا لـ"Canapé" الفرنسية وأنّ هذه هي المقابل المعتمد لـ "Couch" الانغليزية أمكن بيسر اعتبار "الأريكة" و"الكنبة" مترادفتين (33). على أنّ التقابل المقترحَ بين "الصفّة" العربية و "Sofa" الفرنسية والانغليزية ثم بين "أريكة" و "Couch" و "Canape" لا يعني أنّ قابلية التناقل بين العناصر المكوّنة للثالوثين قابلية تامّة . فإنّ بين هذه العناصر فروقا ثقافية في أذهان الجماعات اللغوية الثلاث - التي قد تنقسم بدورها إلى جماعات لغوية فرعية مثل الجماعة البريطانية والجماعة الأمريكية المكونتين للجماعة اللغوية الانغليزية الكبرى _ يجعل التناقل اتّفاقيًا أكثر مما هو طبيعيّ ؛ فإذا كانت الحال على ما وصفنا من المقارنة بين ثلاث لغات ، كيف ستكون إذا شملت عشرًا أو أكثر من ذلك من اللغات الطبيعية ؟ إنّها ستؤدّي دون شك إلى مماسة الحالة الثالثة، إن لم نقل الوقوع فيها.

3 ـ والحالةُ الثالثة نسميّها"قابليّة التناقل المنعدمة "، وهي حالة اللغات التي تصفُ بيئات ثقافيةً أو طبيعية ذاتَ خصائصَ مختلفة أو هي بيئاتٌ يختصّ كلّ منها بموجودات لا توجَدُ في البيئات الأخرى، ونقولُ عن كلّ بيئة مختصّة دون غيرها بموجودات بعينها إنها ذاتُ خصوصيّات ثقافية أو خصوصيات طبيعيّة . وهذه الخصوصيّات يمكن أن تُلَاحَظَ بيسْرٍ في البيئات المختلفة ؛ فإنّ لكلّ بيئة خصوصياتها في ألبستها وأطعمتها مثلاً، ولكنّ هناك ظواهر أخَصّ من اللباس والطعام وما شابههما تفرض وجودَها البيئةُ الطبيعية خاصّة ؛ ومن أشهر أمثلتها أنواعُ الجُبْن في البيئة الفرنسية ، وأنواعُ الثلج عند الإسكيمو في القطب الشمالي ، وأنواعُ التّمْر في البيئة العربية. يضاف إلى هذا كلّه أنّ ما يعرفُ بـ"التنوّع البيئي" يقترن عادةً بوجود ضروب (Variétés)أو أنواع (Especes) أو أجناس (Genres) من النبات والحيوان تختصّ بها بيئةٌ طبيعية ما إما دون البيئات الأخرى قاطبة أو دون عدد من البيئات . والخصوصيات الثقافية والطبيعية في أي بيئة ثقافية أو طبيعية إنّما تعبّر عنها في اللغة الواصفة لها "خصُوصيّاتٌ معْجميّةٌ" (Particularites lexicales)، ومن الطبيعي أنّ تقابل هذه الخصوصيات في اللغات الواصفة للبيئات الأخرى "خانَاتٌ فارغَةٌ" (Cases vides)

وهذه الخانات المعجمية الفارغة إنّما تملأ عادة بتوليد الوحدات المعجمية الجديدة . وتُطَبّق في التوليد وسيلة من وسائل التّوليد المعجمي لم تَعْدَمْ وجودها أيّ من اللغات القديمة والحديثة : هي الاقتراضُ المعجميّ (Emprunt lexical)، وهو أن تأخذ لغةٌ موْرِدٌ من لغة مصدرَ عناصرَ معجميةً لسدّ خانات فارغة فيها (34) .وهذا الاقتراضُ نوعان :

أ - أولُهما اقتراضٌ معجميّ حقيقيّ يقع بأنَ تَدْخلَ اللغةُ (ب) - وهي اللغة الموْرِدُ - من اللغة (أ) - وهي اللغة المصدرُ - في نظامها المعجميّ عناصرَ معجميةً تامّةً هي في الأغلب وحداتٌ معجميةٌ بسيطةٌ ، أي مفرَداتٌ ، وخاصةً من مَقولة الاسم ، تنتقل إليها بالمكوّنين الأساسيين فيها وهما المكوّن الدّالّيّ والمكوّن المدلوليّ ، مع لجوء مطّرد عند الجماعات اللغوية المقترضة إلى إدخال تغييرات على مكوّني " الدالّ" - وهما التأليف الصوتي والبنية الصرفيّة - لتناسبَ الكلمةُ المقترَضة نظامَ اللغة المورِد ، فإذا غيّرت الكلمة وناسبت النظام وخاصة

في بنيتها الصرفية عُدّت من " المعرّب " ، ومن أمثلته في القديم كلمة " صراط " - على وزن " فعال " - وهي من اللاتينية "Strata"، وكلمة " جامُوس " - على وزن " فاعُول " - وهي من الفارسية "Gâwmis-"، ومن أمثلته في العربية الحديثة "تلْفَزَة" من الفرنسية "Télévision"، و "كلَتُوس " من الفرنسية العلمية "Eucalyptus"؛ فإذا لم تغيّر الكلمة الأعجمية أو غُيّرتْ لكنها بقيت مستعصية على الاندماج في نظام اللغة المقترَضة عُدّت من " الدّخيل " ، وهذا النوع يكثر في المصطلحات العلمية والفنية خاصة، ومن أمثلة المقترضات القديمة في العربية " كَمَادرْيُوس " - وهو اسم نبات - من اليونانية "Khamaidrus"، و "بَنْجَنْكُشْتْ" - وهو اسم نبات أيضا - من الفارسية "- Panj angust" ، ومن أمثلته في العربية الحديثة " بُوتاسْيُوم" من الانغليزية "Potassium" و " فُونُغْراف" من الفرنسية " "Phonographe" ويُلاحَظُ في ما عددْناهُ مُعَرّبَا خضوعه لأقْيسة العربيّة في البنية الصرْفيّة ، ويلاحظ في ما عددْناه دخيلاً استعصاؤه على تلك الأقيسة .

فهذا إذن نوع من الاقتراض المعجمي تلجأ إليه الجماعات اللغوية لسدّ الخانات الفارغة في لغاتها.

ب - اقتراض معجميّ دلاليّ ، ويسمّى أيضا ترجمة حرفيّة " و " نسخًا " . (Calque) وهو اقتراض معجمي دلاليّ ينتقل فيه المدلول من اللغة المصدر إلى اللغة المورد دون الدالّ ، أي إنّ هذا الاقتراض يكون بإسناد مدلول غير أصليّ - لأنّه مقترَضٌ - إلى دالّ قائم الاستعمال في اللغة المقترضة . وليس هو إذن " اقتراضا حقيقيًا " بل هو قاعدة منتمية إلى " التوليد الدلاليّ " . ولهذا النوع من الاقتراض أثر عميق في مختلف اللغات ومنها العربية منذ عصورها القديمة وخاصة أثناء " حركة الإنشاء " العلمية التي تأسّست على الترجمة بداية من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . وقد اعتمد المحدثون هذه القاعدة أيضا وخاصة في أعمالهم المصطلحية القائمة على الترجمة من اللغات الأوروبية ، فكان لها من التطبيقات في توليد الوحدات المعجمية المخَصّصة أو المصطلحات ثم في توليد الوحدات المعجمية العامّة منذ وقت مبكّر رصيد غير قليل .

ومن أمثلتها في القديم في ترجمة المصطلحات الوحداتُ المركّبةُ التالية ، وكلها من أسماء النبات:

(1) عُلّيْقُ الكلب لترجمة Kunosbatos اليونانية (35)؛

(2) شوكةٌ بيضاءُ لترجمة Akantha leukê اليونانية (36)؛

(3) بلوْطُ الأرْض لترجمة Khamaidrus اليونانية (37)؛

(4) صنَوبَرُ الأرْض لترجمة Khamaipitus اليونانيّة (38)

وقد قامت المصطلحات المولّدة بالترجمة التي ذكرْنا مقام الأصول اليونانية التي نُقلَتْ عنها واتّخذتْ أحيازَها في المعجم العلميّ العربي المختصّ القديم .

ومن أمثلة المقترضات الدلالية في العصر الحديث في ترجمة المصطلحات العلمية أيضا :

(1) التكلّمُ البَطْنيّ لترجمة Ventriloquie الفرنسية (39)؛

(2) المستَقْصِيَةُ الصّدْرية لترجمة Stē thoscope الفرنسيّة (40)؛

(3) إلْفُ الماء لترجمة Hydrophile الفرنسية (41) ؛

(4) رجلُ الذئب لترجمة Lycopode الفرنسية (42).

والمصطلحان الأول والثاني طبّيّان، من القرن التاسع عشر، والمصطلحان الثالث والرابع من أسماء النبات، من القرن العشرين .

أمّا في المعجم العامّ فإنّ نسبةَ هذه الترجمات الحرفية في العصر الحاضر كبيرةٌ، ولكنّها في المعجم العامّ تكُون في الغالب ترجمات لوحدات معجمية لا تقابلها خانات فارغة حقيقيةٌ في اللغة العربية .

ذلك إذنْ بعضٌ من المشاكل التي تثيرها الترجمةُ في المعجَم ، وقد أكّدنا من المشاكل ما له صلةٌ بالخصائص الثقافيّة والطبيعيّة المشتَركة منها

والمختلفة بين البيئات. فإنّ الاشتراكَ في الخصائص يرافقهُ في الغالب اختلافٌ في التصوّر والنظر إلى الأشياء والحكم عليها يجعلُ الموجودات المتوفرة في البيئتين (أ) و (ب) متخالفةً في بعضِ سماتها تخالفا مؤدّيًا إلى أنْ يكونَ الموجودُ (ج 1) في البيئة (أ) غيرَ مطابقٍ في كلّ السمات للموجُود (ج 2) في البيئة (ب) ، وهذا ما يجعل التقابلَ بين اللغة الواصفة لـ(أ) واللغة الواصفة لـ(ب) غيرَ تامّ. وأمّا الاختلافُ بين الخصائص فمؤدّ إلى ظهور الخصوصيّات الثقافيّة والطبيعيّة التي تنشأ عنها في اللغةِ خصوصيّاتٌ في المعجم تتولّدُ عنها في اللغات " خاناتٌ معجميّةٌ فارغة " ، والخاناتُ المعجميّةُ الفارغةُ حقيقةٌ لغويّةٌ معجميةٌ قائمةٌ كانتْ وما زالتْ العقبةَ الأساسيّةَ في التّناقُل بين الثقافات واللغات . ولم نذكرْ منها إلاّ الخانات المتعلّقةَ بالخصوصيّات المعجميّة التي تعبّرُ عنها الوحداتُ المعجميّةُ المركّبةُ والمعقّدةُ ، ولكنْ ينبغي أيضا أنْ نشير إلى أنّ في تجارب الجماعات اللغويّة خصوصيات أخرى أكثرَ تعقيداً تستحقّ في ذاتها دراسةً لسانيّةً معجميّةً معمّقةً ، وهي الخصوصيّاتُ التي تعبّر عنها الوحداتُ المعجميّة العباريّة ، وخاصةً العبارات الاصطلاحيةَ التي ذكرنا في أوّل هذا البحث أنها قائمةٌ على مجازات غير قابلة للترجمة الحرفية لتعبيرها عن خصوصيّات دقيقة في تجربة الجماعة اللغويّة التي تستعملُها . والمشاكلُ التي تثيرها الخاناتُ الفارغةُ التي تُحدثها هذه الوحداتُ المعجميةُ لا تتعلّق بوجود الموجودات أو بعدم وجودها في البيئات الثقافيّةَ والطبيعيّة بل تتعلّق برؤية الجماعات اللغويّة إلى العالم والكوْن ، وبطريقة التعبير عنها وليس بطريقة تعيينها ؛ وهذه الظاهرةُ تُعطي الصلّة بين الترجمة والمعجم بُعداً لسانياً آخرَ دالاً على ما للمعجم من أهميّة في تجاربِ الجماعات اللغوية وفي أنْظمة لغاتها معا

الهوامش والإحالات

(1) ينظر حول المفهومين : إبراهيم بن مراد : مقدّمة لنظرية المعجم ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997، ص ص - 7 8؛ وتنظر تفاصيل عنهما أيضا في : .
Dubois (J.) et al. : Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Larousse, Paris,1994 , pp. 282 - 284

(2) ينظر حول الأنواع الثلاثة من الوحدات المعجمية والفروق بينها : إبراهيم بن مراد : " الوحدة المعجمية بين الإفراد والتّضامّ والتّلازم " ،سيصدر في العدد 5 (2006) من مجلة "دراسات معجمية" بالمغرب

(3) ينظر حول هذه المقولات ووظيفتها الإحالية : إبراهيم بن مراد : المقولة الدلالية في المعجم ، في مجلّة المعجمية ، 16ـ 17 (2000 - 2001)، (ص ص 17ـ 76)، ص ص 25 - 28 .وقد أثير الموضوع أيضا في :
.J. Dubois et al. : Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, p. 351

(4) يوجد عند الطيب البكوش ما سمّاه " خانات فارغة جزئيّا " (Cases partiellement vides)
ينظر: T. Baccouche : L'emprunt ،en arabe moderne , Beit Al-Hikma , IBLV, Tunis , 1994 , pp.118 - 120
وهي خانات تملؤها في القاموس الثنائي اللغة الفرنسي العربي (ومصدره الأساسي "منها" المنهل ")

مقابلات عربية مترادفة تكون في الغالب اثنين أو ثلاثة وقد يكون بينها - في حالات غير قليلة – الأصل الأعجميّ ذاته الذي يذكر مع المترادفات العربية باعتباره مقابلا مقترحا هو أيضا بينما هو في وضعه ذلك مقترض من لغته المصدر؛ وما نقصده بـ" الخانات المليئة جزئيا " لا يوافق تماما كما سيبينه النموذج المحلّل ما سمّاه " خانات فارغة جزئيا " ، وإن كان الاختلاف الدلاليّ عاملا أساسيا في ظهور كلتا الحالتين.

(5) هي الآية 31 من السورة 13 (الكهف)، و56 من 18 (يس)، و 13 من 76 (الإنسان)، و35 من 83 (المطفّفون)، وقد وردت في الآيات الأربع في صيغة الجمع المعرّف «الأرائك»، واقترنت في الثلاث الأولى منها بالاتكاء، فهي إذن ممّا كان يستعمل من الأثاث ليتكأ عليه ويُستَرَاحَ.

(6) ينظر الخليل : كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، 1988 ، 404/5 ؛ أحمد بن فارس : مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط. 3، 1981، 84/1 .

(7)كتاب العين ، . 404/5

(8) أبو عبيد معمر بن المثنّى : مجاز القرآن ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، ط . 2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1981، . 401/1

(9) المرجع نفسه ، . 164/2

(10) ابن منظور : لسان العرب ، إعداد يوسف خياط ، دار لسان العرب ، بيروت ، 1970، 50/1

(11) مجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط ، ط . 3، القاهرة ، 1985، 15/1

(12) خليل الجرّ : لاروس المعجم العربي الحديث ، مكتبة لاروس ، باريس ، 1973، ص 68 .

(13) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : المعجم العربي الأساسيّ، تونس ، 1989، ص 84.

(14) دار المشرق : المنجد في اللغة العربية المعاصرة ، بيروت ، 2000، ص 19 .

(15) يوسف خياط : معجم المصطلحات العلمية والفنية ، دار لسان العرب ، بيروت ، 1970، ص 22، عمود 3.

(16) H. Wehr : A Dictionary of Modern Written Arabic, Otto Harrassowitz, Wiesbaden , 1966, p.13 .

(17) دانيال ريغ : السبيل ،معجم عربي فرنسي ، مكتبة لاروس ، باريس ، 1983، ف 88 .

(18) Harrap's Shorter Dictionary , 5nd ed. , Harrap , Paris , 1996 , 1/204

(19) Harrap's New Shorter French and English Dictionary, Bordas, Paris , 1972, 2/C :59

(20) Harrap's Shorter Dictionary, 2/299 ; Harrap's New Shorter , 1/D : 39

(21) Harrap's Shorter Dictionary , 2/136 ; Harrap's New Shorter , 1/C : 5

(22) Harrap's Shorter Dictionary , 1/896 ;Harrap's New Shorter, 2/S : 21

(23) Harrap's Shorter Dictionary, 2/872 ; Harrap's New Shorter , 1/S : 21

(24) ينظر حسن سعيد الكرمي : المغني الأكبر (انكليزي عربي) ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1997، ص 275، (Couch) لكنّه أضاف مع " الأريكة " ثلاثة مقابلات أخرى هي " سرير منجّد " و " مضجع " و"مبْرَك" ، وص 1316 (Sofa) .

(25) ينظر : سهيل إدريس وجبور عبد النور : المنهل ، قاموس فرنسي عربي ، ط . 9، دار الآداب ودار العلم للملايين ، بيروت ، 1987، ص 159(Canapé)، وقد أُضيفَ إليها " ديوان " و " مقعد " ، وص 961 (Sofa)، وقد أضيف إليها " تخْت " ؛ يوسف محمد رضا : الكامل الوسيط ، قاموس فرنسي عربي ، مكتبة لبنان ، بيروت ،1997، ص110 (Canapé)، وقد أضاف إليها " كَنَبَة " ، وص949 (Sofa). ينظر :

(26) Le Petit Robert , Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Le Robert , Paris , 1987, p.1825.

وينظر أيضا :

Dictionnaire historique de la langue française , Le Robert , Paris,1992 , 2/1960.

ينظر :

(27) Collins Cobuild English Language Dictionary , Harper Collins Publishers , London , 1987, p.1384 .

ينظر

(28) The Random House College Dictionary, Revised Edition , Random House Inc, New York , 1984 , pp. 1248 - 1249

(29) Collins Cobuild English Language Dictionary , p. 320 .

(30) The Random House College Dictionary , p. 305 .

(31) ينظر :

R. Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes , 3 èmé ed., Leyde Paris , 1967, 1/834

وهو ينقل عن القاموس الفرنسي العربي لإلياس بقطر :

.E. Bocthor : Dictionnaire français - arabe

(32) قارن بين تعريفهما مثلا في : المعجم الوسيط ، 15/1 و 832/2؛ لاروس المعجم العربي الحديث ، ص 68 و 1011؛ المعجم العربي الأساسي ، ص 84 و 1055؛ المنجد في اللغة العربية المعاصرة ، ص 19 و 1251 .

(33) قد أكّد ذلك قبلنا أحمد مختار عمر ، ينظر له : المعجم والدلالة ، نظرة في طرق شرح المعنى ، في مجلّة المعجمية ، 12-13(1996-1999) ص ص 139 - 172، ص 150.

(34) لا يكون الاقتراض المعجمي لسد خانات معجمية فارغة فقط ، فقد تقترض الجماعة اللغوية وحدات معجمية من لغة مصدر تقابلها في لغتها المورد خانات مليئة . وهذا النوع من المقترضات يُعَدّ " بَذَخياً " لأنه خارج عن حاجة اللغة ، وهو يرتبط في الغالب بوجدان الفرد في الجماعة اللغوية المقترضة وبشعوره وميوله ونزعاته ومواقفه – وخاصة مواقف الإعجاب – الدافعة إلى التقليد أو مواقف التقدير الدافعة إلى الاتّباع ، وتمثله مقترضات في مختلف اللغات دالّة على أنماط العيش والتقاليد الاجتماعية وآداب السلوك ؛ ومن أمثلتها عند العرب في القديم استعمالهم فعل " باس " مقترضا من الفارسية بينما يوجد في العربية "قبلّ " الذي بمعناه ، واستعمال بعض العرب - عندنا في تونس مثلاً - كلمة " مرْسِي " من الفرنسية Merci عوض " شكْراً " التي تقوم مقامها ؛ وقد توسّعْنا في تحليل هذه الظاهرة والظواهر المتّصلة بالاقتراض المعجمي عامة في " الاقتراض في المعجم " ، وهو نصّ درس مخطوط معدّ للنشر قدّم أمام طلبة شهادة علوم اللغة في قسمي العربية بكلية الآداب بمنوبة وكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس سنتي 1993- 1994 و 1994- 1995 . وينظر حول قضايا الاقتراض المعجمي في العربية في القديم : إبراهيم بن مراد : المصطلح الأعجمي في كتب الطبّ والصيدلة العربية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، (1985 جزآن) - ينظر خاصة الجزء الأول ؛ وينظر حول قضاياه في العربية الحديثة : T. Baccouche : L'emprunt en arabe moderne، وخاصة القسم الأول منه، ص ص 13 - 157 وينظر حول الاقتراض باعتباره قاعدة من قواعد التوليد في المعجم : محمد رشاد الحمزاوي : أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1988؛ إبراهيم بن مراد

: مقدّمة لنظرية المعجم ، ص ص 160 - 162.

(35) بدانيوس دياسقوريدوس : المقالات الخمس وهو هيولى الطبّ، ترجمة اصطفن بن بسيل وحنين بن إسحاق ، تحقيق قيصر دوبلار (C.Dubler) والياس تراس (E. Teres)، تطوان ، 1957، ص 89 . (ف1-101).

(36) المرجع نفسه ، ص 245 (ف 3 - 12) .

(37) ابن البيطار الماتقي : تفسير كتاب دياسقوريدوس ، تحقيق إبراهيم بن مراد ، بيت الحكمة - تونس، ودار الغرب الإسلامي - بيروت ، 1990 ، ص 245 (ف 3- 93).

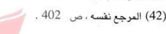
(38) المرجع نفسه ، ص 267 (ف 3- 153).

(39) الشيخ محمد بن عمر التونسي : الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية ، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 4641 في الرصيد العربي ، ص 105و ؛ والتكلّم البطني أو التكلّم المعدي " كيفيّة في التكلّم ينوّع فيها الإنسان صوته بحيث يظهر للسامع أنّ الكلام لم يخرج من الفم بل آت من مكان بعيد ، ويسمّى بالكلام المعدي أيضا لظنّ السامع أن الكلام خارج من المعدة " .

(40) المرجع نفسه ، ص 521 و - 521ظ ؛ و" هي آلة يُبْحَثُ بها عن الظواهر التي تحدث في داخل الصدر (...)، وتكون أسطوانة من خشب البقْس أو من غيره " .

(41) مصطفى الشهابي : معجم الألفاظ الزراعية (فرنسي عربي) ، ط . 3، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1982، ص 347.

(42) المرجع نفسه ، ص 402 .







إنتاج المصطلح في التّجربة العلمية العربية القديمة *

من خلال كتاب «المنصوري في الطب» للرّازي

الحبيب النصراوي **

1 - تمهيد:

لا شكّ أنّ الإبداع خلق، والخلق لا ينتجه إلاّ فكر قادر على أن يجدّد نفسه ويتجاوز المعتاد، طموحا إلى منزلة أرقى، فيها إثبات لملكة وتوق إلى انعتاق. ذاك شأن الإبداع منذ أن كان، تجسيد لكيان، وسعي للتعبير عن تجربة الإنسان بين "الواقع" و"المثال"، وتوقّع دائم لما بين طرفيها من صراع مرير تقدحه الرغبة في التّغيير بغية تطويع الواقع وتحسين شروط العيش فيه، إذ ليس الإبداع انعزالا عن محيط التجربة، بل هو من صلب واقعية المبدع، منه يستمدّ مقومات وجوده.

ومهما يكن الموقف من الإبداع أذاتيا كان أم جماعيا، فممّا لا شكّ فيه أنّ له شروطا لا غنًى عنها، وهي الأصالة والانفتاح والحرية: الأصالة في نفسه، والانفتاح على محيطه، والحرية في تدبرّ صلاته. شروط تحقّق الذات الفردية والجماعية وتسمح بالتالي بالإسهام الفعلي في بناء التطور الضروري لاستمرار دورة الحياة. ويدور حول الإبداع صراع بين الاكتفاء بالموجود والسّعي إلى الممكن، جدل لا مفرّ منه بين المحافظة والتجاوز.

من ثمّ كان على كلّ إبداع أن يتجذّر في تربته الثقافية والحضارية حتى يكتب له الثبات والانخراط في الحداثة. وهو ما يسمّى بالهوية وهي مجموع المميزات الحضارية عبر تاريخ الأمة. على أنّ هذا لا يعني تقديس الهوية وتحويلها إلى مشهد سكونيّ مكتمل أو مستوى نموذجيّ منته، ليس لنا إلاّ أن نتفانى في إجادته وحفظه، متهيّبين المساس به حتى لغرض التطوير أو التجديد. إنّ في ذلك بلا ريب قطعا لصلة هذه الهوية بالحاضر وتفضيلا للماضي على المستقبل بعد أن حولناه إلى هدف في ذاته.

إنّ الهوية، إضافة إلى ما ذكرنا، تظلّ حركة دائبة نحو المستقبل ومعطى ناجزا أبدا متحققا في ضمير الأمة. فليس الممكن أقلّ من المتحقق، ولكنه يؤكّده ويضيف إليه حتى لا يتوقّف الإبداع. فالمستقبل هو التحديث والتجديد حتى لا إبداع بدون مستقبل.

من هنا، ينصرف حديثي إلى واقع الثقافة العربية، وعمودها الفقريّ، في رأيي، اللغة العربية، فإنّ بقاء هذه اللغة ووحدتها رهن إسهام أبنائها في النشاط المعرفيّ الإنسانيّ العامّ، وجعلها بالتالي أداة من أدوات صنعه. ولا نقصد بالنشاط المعرفي ميدان اختصاصنا الأدبيّ واللغويّ فحسب، بل أساسا معناه العلمي الصحيح، فإنّ في تكامل الرافدين _كما حصل في الماضي - خلقا لنهضة فكرية حقيقية لا تنفصل أبعادها العلمية عن أبعادها اللغوية.

إننّا - أعني العرب - منذ أن خذلنا العلم في بلادنا لم نستطع أن نقيم أودا. وأملنا في أنّ رياح التغيير قد تنفستها بلادنا العربية وأنّ التوجّه إلى البحث العلمي حقيقيّ. ورغم أنّ العرب لطالما اعتقدوا أنّ نهضتهم لغوية، يختزلونها ربّما في إحياء مصنّفات من تراثنا الزاخر بآدابه وعلومه ونحوه ومعاجمه.. أو في

** أستاذ بالمعهد العالي للغات بتونس.

ترجمة المزيد من الإبداعات الغربية علومها وآدابها.. فإنّ الأمر هذه المرة أعقد بكثير، فلا مفرّ من جعل العقيدة العلمية وحرية الفكر في جميع أبعادها، ونشر المعرفة الصحيحة قاسما مشتركا، يسهم في بناء الذات العربية لجعلها قادرة على الإبداع. عندها سيكون شأن العربية آخر.

إنّ وضع هذه القضية في مستهلّ البحث إشارة متعمّدة إلى أزمة العربية، وهذه الأزمة ليست فقط أزمة مصطلحات علمية بما فيها من اضطراب ونقص وتناقض ممّا يؤول إلى فوضى معجمية واصطلاحية، ولكنّها أزمة شاملة يمكن أن يكون لها أثر في تنظيم علومنا وتطويرها وفي تعليمنا وحتى في تفكيرنا. ونحن إلى اليوم لا يزال تقدّمنا بطيئا. فرغم الإنجازات هنا وهناك، كان التيّار العالميّ أقوى، بحيث عندما نلتفت إلى الوراء نجد أنفسنا لم نزد كثيرا عن الحال التي وصفها ابن منظور عند اعتزامه وضع لسان العرب (في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي) عندما قال: "حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعدّ لحنا مردودا، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغتهم يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون" (1).

فإذا ما انتهينا إلى المصطلحية العربية وهي موضوع البحث وجدنا قضاياها عسيرة معقّدة، حتى أنّه لا أحد يفكر في فتح معجم مهما كان نوعه، عند مواجهة صعوبات النصّ الحديث، لتفاوت فجّ بين المنوال والاستعمال. إنّه المجال الأضعف في واقعنا اللغوي والثقافي تنظيرا وتطبيقا.

2- المصطلحيّة ومنهج التّوليد في المعجم:

لعلّ من أعسر قضايا الاصطلاح مسألة التطور في العلوم وصلة ذلك بحاجات لغوية متجدّدة ومجالات فكرية ومعرفية شديدة التعقيد والتشعّب، يرتبط فيها النشاط المصطلحيّ بالنشاط العلميّ والتقنيّ، وقد يكون ذلك سابقا لأيّ تصوّر نظريّ أو منهجيّ ينظّم هذا النشاط العضويّ المتكامل، وما يُطرح في تكوين العلوم عادة من مشاكل في تكوين الخطاب العلمي بين ميدان المعرفة ونظام اللغة.

ولهذا لا نعتقد أنّ البحث في المصطلحية بمنأى عن قضايا المعجم العامة سواء في مستوى التنظير أو التطبيق أي توليد المصطلحات واستعمالها الفعليّ. من هنا فإنّ النظرية المصطلحية بما هي جزء من عمل المعجم في النظرية اللسانية، لا تخالف مخالفة كبيرة نظرية المفردات في المعجمية العامة سواء في جانبها النظري (La lexicologie) ويقابله في المصطلحية (La terminologie)؛ أو في جانبها التطبيقي (La lexicographie) ويقابله في المصطلحية (La terminographie) وهو ما يجعل البحث في ظهور المصطلح ونموّه في الخطاب العلمي، شبيها بمفردات اللغة العامة، مع تميّز المصطلح بذاتية الدلالة، وأحاديتها، وخصوصيتها، إضافة إلى الانتماء إلى حقل مفهوميّ قابل للضبط والتحديد، وقابلية التعريف المنطقي (2).

2-1- قواعد التوليد المعجمي: هذا ما يفضي بنا ونحن نتحدّث عن إنتاج المصطلح إلى أن نعرّج على ما يسمّى بقواعد التوليد اللغوي، ومدى استلهام القدامى لها في وضع المصطلحات. على أنّنا لا نقصد باستقصاء الجهد المصطلحيّ عند القدامى، إلا البحث في مكوّنات التصوّر المنهجيّ الذي اعتمده القدامى في مرحلة نقل العلوم، ثم في مرحلة التطوير والإبداع، رغم أنّهم كثيرا ما استعاضوا عن التنظير بالتطبيق، ولكن البحث في ثنايا أعمالهم التطبيقية يرشدنا إلى ما استقام لهم من رؤى اعتمدوها في إنتاج حاجاتهم من المصطلحات.

وسنحاول في هذا البحث التّركيز على منهجيّة توليد المصطلح داخل النصّ العلميّ والتقنيّ القديم، وعلاقته بمذهبيات واضعه وخلفياته اللغوية والفكرية العامة. فربّما نبّهنا القدامى إلى كثير ممّا نحن فيه مختلفون، خاصة حينما يتعلّق الأمر

بالاتّجاهات اللغوية الفكرية والمذهبية والموقف من الفصيح وغير الفصيح، وحماية العربية والخوف على مصيرنا القومي...

نعرف أنّ اللغات تعتمد في توليد الوحدات المعجمية الجديدة على ثلاثة أصناف من التوليد هي: توليد شكليّ، وتوليد دلاليّ، وتوليد اقتراضيّ(3) .

- فالتوليد الشكلي، توليد صوريّ ينتج عنه ظهور دوالّ جديدة في اللغة، وهو في العربية توليد صوتيّ وتوليد صرفيّ، والصرفيّ هو الغالب، وفيه ثلاث قواعد أساسية هي: الاشتقاق (المعتزلة، والمرجئة، والدهرية)، والنحت (حيعل، وبسمل، وعبشمي)، والمعجمة (الروح الحيواني، الماهية، اللامتناهي، الماقبليّ)؛

- والتوليد الدلالي، وهو إحداث مدلولات جديدة في اللغة تحملها دوالّ موجودة فيها، وأهمّ قواعده التي استخدمت في العربية قاعدتان هما: المجاز (كمفاهيم: النفاق، والفسق، والكفر في الإسلام) والترجمة الحرفية وشرطها أن ترتبط بثقافة لغة أخرى، بمعنى أن يتمّ نقل مفهوم المصطلح الأعجمي الحرفيّ بمعناه اللغويّ الأصليّ إلى العربية. أي إنّ الترجمة الحرفية ذاتها هي ضرب من الاقتراض ينتقل فيه المدلول دون الدالّ من لغة مصدر مقرضة إلى لغة مورد مقترضة. فهي إذن إسناد مدلول مقترض أو غير أصليّ في اللغة العربية إلى دالّ من دوالّها القديمة فتكسبه دلالة جديدة لا عهد للعربية بها من قبل. والدافع إلى انتشار هذه القاعدة صعوبة إيجاد مقابل عربيّ لضروب من المصطلحات الأعجمية (كمصطلحات طبّ العين مثلا: الرطوبة الجليدية (Krustalloeides Ugron)، الطبقة العنكبوتية (Arakhneidés Khilton)، أنبوبة البصر (Optical-Sighted) .

وأمّا التوليد بالاقتراض فهو أن تأخذ لغة مورد وحدات معجميّة من لغة مصدر. وهو نوعان: معرّب (الجزية معرّب: كزيت، والفهرس معرّب فهرست، والرزنامة معرّب رزنامج، والبريد معرّب بريّده.. وجميعها من الفارسية؛ وقيراط معرّب (Kératon) وكيموس معرّب (Chimos)، وترياق معرّب (Thiryakos)؛ ودخيل (الاصطرلاب (Astrolabos)، والهيولى (Ili)، والباسليق (Vaciliki).. وجميعها من اليونانية).

لكن إذا كانت ألفاظ اللغة العامة ومصطلحات العلوم الإسلامية كاللغة والفقه.. قد نمت أساسا بوسائل التوليد الداخلية كالمجاز والاشتقاق، فإنّ مصطلحات العلوم الأعجمية قد نمت في الغالب بالاقتراض والترجمة الحرفية. فقد اقترن تأسيس العلوم الصحيحة عند العرب بالإحاطة بما كان يسمّى بعلوم العجم، ففتح ذلك أمام العرب سبل المعرفة عن طريق الترجمة أولا ثمّ الإبداع ثانيا، فصيغت العلوم العربية من مزيج من الثقافات (أهمها اليونانية: في الطب، والفلسفة والرياضيات، وعلوم الطبيعة؛ والفارسية: في الإدارة والآداب؛ والهندية في الأمراض والعقاقير، وأصول الحساب، والتصرّف) (4).

2-2 ـ الترجمة وأثرها في إنتاج المصطلح العربي: لا خلاف في أنّ نهضة العرب العلمية قامت على الترجمة. فقد تنبّه العرب إلى أهمية نقل العلوم من اللغات الأعجمية منذ أواسط ق3هـ/9م. فترجمت النصوص اليونانية خاصة إلى اللغة العربية. وقد أدّى ذلك إلى ظهور حركة علمية واسعة بين ترجمة ومراجعة وشروح.. تدلّ على ما بذله هؤلاء النقلة والعلماء من جهود مضنية بنقل أمهّات الكتب العلمية إلى الثقافة العربية. وذلك في مرحلة ثقافية مهمّة مرّت فيها الثقافة العلمية العربية بمرحلة الإنشاء والتأسيس، وكانت الترجمة الوسيلة الفضلى التي اعتمدت لتكوين ثقافة علمية عربية(5).

لكنّ عملية النقل والإبداع لم تقم في النصوص العلمية العربية على قاعدة أو قواعد بعينها من قواعد التوليد المعجمي، لعواملَ ذاتية: كوجود المقابل أو انعدامه في العربية، وموضوعية: كجهل التراجمة بالمقابل العربيّ حينا، وتفاوت العلوم حينا آخر، في درجة قبولها لقواعد التوليد الخارجية: (أي الاقتراض والترجمة الحرفية)؛ أو الداخلية: (أي الاشتقاق والمجاز).

فقد لاحظنا أنّ نقل مصطلحات الطب والصيدلة، كان خاضعا لطبيعة تلك المقترضات: فمنها صنف أول يمكن ترجمة مقترضاته بمقابلاتها العربية لأنّها موجودة في الثقافة العربية، ومن أمثلة ذلك نذكر:

أ ـ من مصطلحات النبات: «الحناء»، و«العوسج»...،

وب ـ من مصطلحات الحيوان: «التمساح»، و«الجراد»...،

وج ـ من مصطلحات المعادن: «الذهب»، و«العقيق».. (6).

ومنها صنف ثان لا تعرفه الثقافة العربية، ولكن يمكن نقل مقترضاته عن طريق ترجمتها ترجمة حرفية، وهو ما يسمى بالاقتراض الدلالي (ومن أمثلة ذلك في كتاب "الجامع" لابن البيطار مثلا ترجمة مصطلح "قونس باطس" بقوله: "تفسيره عليّق الكلب، لأنّ "قونس" باليونانية: كلب، و"باطس": عليق"؛ وترجمته مصطلح "أوراسالينون" بقوله: "هو الكرفس الجبلي، لأنّ "أورا" باليوناني جبل، و"سالينن" كرفس"..) (7). ومنها صنف ثالث يمثل القسم الأكبر، وهو ما لا يستطيع المترجم أن يجد لمقترضاته مقابلات عربية، فيقابلها بها، ولا يستطيع أن يترجمها ترجمة حرفية، فيضطر حينئذ إلى نقلها إلى العربية باقتراضها اقتراضا تاما.

لقد دلّ هذا التّوليد المصطلحيّ في هذه المراحل المبكّرة على أنّه كان جاريا وفق القواعد الطبيعية التي تملكها العربية، وهو ما يؤكّد مقدرتها التوليدية من ناحية ويسر إنتاجها للمصطلحات، وذلك بتطوير العقل العربيّ العلوم الدخيلة وإسهامه فيها، وتطويع العربية نفسها للتعبير عن المستحدث في المعارف الجديدة. فقد أثبت هذا الرّصيد المصطلحي أيضا إسهام العربية في جزء كبير منه سواء بطريق التوليد أو بما أمدّته به المدوّنة القديمة ممّا كان العربيّ يستعمله في بواديه.

غير أنّ أغلب هذه المصطلحات المولّدة أو المقترضة لا توجد جميعها في المعجم العربي، فإنّ الأسلوب الانتقائي الذي دأب عليه المعجم العربي جعله لا يعترف من بين هذه المصطلحات المستحدثة إلا بعدد قليل، فخلا نتيجة ذلك من كثير من مصطلحات الثقافة العربية الأساسية كمصطلحي الفلسفة والجبر وما اشتقّ منهما في هذين العلمين. فضاع على العرب رصيد مهمّ لطالما حاول علماء عصر النهضة ومعجميّوه إحياءه وإعادة استعماله، فلم ينجحوا إلا قليلا لملء الأعجميّ والعاميّ الخانات الفارغة قبل أن ينقّب الباحثون في جهود السابقين ويستخرجوا ما كانوا قد ابتدعوه، إضافة إلى أنّ طول الإهمال يؤدّي إلى تحوّل الأذواق إلى ما يستسيغه الاستعمال.

3 ـ من قضايا التّوليد المصطلحيّ في كتاب المنصوري في الطبّ للرازي:

إنّ مسألة إنتاج المصطلح تطرح إشكالات لغوية وثقافية تصل الجهد العلميّ بالبعد الثقافيّ والحضاريّ، فإنّ المصطلحية العربية لم تكن ضربا من النموّ العلميّ المحض بل كانت أيضا شكلا لغويا قائما على توسيع بنية العربية لاستيعاب مدّ حضاريّ ونشاط عقليّ وإنتاج فكريّ وإنجاز علميّ. في هذا الإطار يندرج عمل الرازي (توفّى 313هـ/925م)، فهو نموذج للتقارض الثقافي والتواصل العلمي بين العربية وما جاورها من اللغات والثقافات، يكشف لنا، من خلال ظاهرة الاقتراض اللغوي، الوظيفة المزدوجة التي كان يقوم بها هذا العالم: فهو من ناحية، عالم متخصّص ملتزم باكتشاف خصائص الأمراض والتنقيب عن سبل علاجها بالبحث في صنوف الأدوية والأغذية المناسبة لها؛ وهو من ناحية ثانية، معجميّ مصطلحيّ يجتهد في تعريف المصطلحات وتحديدها باستنطاق المستعملين لها، وبالتنقيب عنها في كتب المختصّين واستقراء الوثائق ومقارنتها ميدانيا، وقد يضطرّ إلى خلق بعضها أيضا.. فهو بهذا العمل يسعى إلى تصوير حركة الواقع المعجمي والمشاركة فيها بترسيخ محتوى المصطلحات الدلاليّ في حالة لغوية معيّنة. وبتتبّع حركة المصطلحات الواردة نتبيّن أنّ الرازي يستند في وضع مصطلحاته إلى أكثر قواعد التّوليد تداولا في العربية وهي أربع: المجاز والاشتقاق، والترجمة الحرفية والاقتراض.

ولهذا رأينا أن نعتمد في دراستها، على مصدر يمكن اعتباره إسهاما تأسيسياً في نشأة العلوم الطبية والصيدلية وتأصيل مصطلحاتهما عند العرب وهو كتابه: "المنصوري في الطبّ" للرازي(8) وهو في عشر مقالات.

رأينا أن نعالج المقالة الثالثة، وهي "في تعرّف قوى الأغذية والأدوية"، وتشتمل هذه المقالة على أربعة وعشرين فصلا، اخترنا فصلين منها رأينا أنّهما يسمحان ببلورة صورة واضحة عن قضايا التّوليد المصطلحيّ عند القدامى: قواعده ومناهجه. وأول الفصلين هو: "فصل في الأدوية التي يكثر استعمالها "وهو أقرب إلى معجم، يضمّ 238مصطلحا لأسماء عدد من مواليد الطبيعة (النبات والحيوان والمعادن).

وأسماء هذه المواليد، كما رأينا، هي أسماء ترجع إلى أشياء موجودة محسوسة لا تقبل التجريد، ولهذا بدا تعامل الرازي معها تعاملا مصطلحيا مباشرا، فقابل ما هو موجود ومعروف في البلاد العربية بأسمائه العربية (كالبان، والجعدة، والحنظل، والحضض، والحديد، والطين، واللوز، والسنبل، والسدر والسوس، ووالفضة والفلّ والعناب، والرماد، والشحم والشب والخردل والخروع، والخطمي، والذهب والضرو..)، وترجم ترجمة حرفية ما كان اسمه يقبل الترجمة الحرفية إلى العربية (كقصب الذريرة (Kalamosaromatikos) ، والنيـل البـري (Amúgdala pikrá)، وإكليـل الملـك (Melilotus offcinalis)،وقـوة الصـبغ (Eruthōdanon)، وعصا الراعي polúganon aven ، وذنب الخيـل(hippuris)، والنـيـل البـرّي (onoi ohhupo tàs hudrias) ، وأبقى على ما لا يمكن تسميته بمقابلات عربية أو ترجمته إلى العربية ترجمة حرفية (كأسارون، وأسقيل، وأفيون، وبيلسان، وبنج، وبلبوس، وبسفايج، وجنطيانا، وزنجبيل، وزراوند، وهوفاريقون، وزيبق، وكهربا..)؛

أمّا الفصل الثاني فهو "فصل في قوى الأغذية"، وهو فصل يحدّد منافع الأدوية وقواها ومفعولها في البدن، وهذه خاصيات مجرّدة يمكن التحكّم في دلالاتها العرضية بواسطة المجاز والاشتقاق، فنقول عن طبيعة الغذاء هو: قويّ أو ضعيف، أو مسهل أو مطهّر أو بارد أو حارّ أو ساخن.. دون أن نقصد بالتّحديد دلالاتها المعجمية لأنّ القوّة والضعف والسهولة والتطهير.. إلخ ترمز في هذا المجال المفهوميّ إلى وظائف غذائية ذات أبعاد علاجية كتطهير الأمعاء من الغازات أو تيسير الهضم أو تغذية البدن.. إلخ، أي إنّ هذا الفصل قائم على معجم مصطلحات هي مفاهيم تقبل التجريد. ولهذا لم يقم إنتاج المصطلح فيه على نفس القواعد التي قام عليها في الفصل السابق (وهي الاقتراض والترجمة الحرفية)، بل قام على قاعدتي: المجاز (كـ"لطيف" للغذاء اليسير الهضم، و"غليظ" للغذاء الشديد المكونات، و"ليّن" للغذاء المزيل لعسر الهضم، و"يابس" للغذاء الجاف، و"حارّ" للغذاء المنشّط للبدن، و"بارد" للغذاء المهدّئ..)، والاشتقاق: (كاشتقاق الفعل من أصل المصطلح "غليظ": وهو (غلُظ)، والمصدر (الغلظ)، وصفة الفاعل (مغلّظ)، وصفة المفعول (مغلّظ)، وصفة التفضيل (أغلظ)..). وجميع هذه النماذج تمثّل مادة مناسبة لدرس إشكالات المصطلح في المؤلفات الطبية والصيدلية العربية القديمة وعلاقتها بمسألة التوليد اللغويّ.

وتكشف المعالجة الدقيقة أنّ المصطلح ما زال في مرحلة التثبيت وهو في أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجريّين. وهذا ليس غريبا، فنحن نعرف أنّ وضع هذه المصطلحات، ومن ثمّ استعمالها في النصوص العلمية كان عملا شخصيا تطبيقيا احتيج إليه عند التأليف، دون أن يسبق بعمل نظريّ معجميّ يمهّد القواعد لوضع المصطلحات وفق أسس منهجية وتصوّر نظريّ متكامل.

ودليلنا على ذلك أنّ الرازي لم يسجّل في كتابه موقفا نظرياً من مسألة المصطلحات سواء من ناحية المستويات اللغوية، أو طرائق تصرّفها في النّصّ العلمي، وما قد ينتج عن ذلك من قضايا دلالية وبنيوية في مجهوده المصطلحيّ. وهو ما يوحي ربّما ببداهة المسألة عنده بما أنّ مجهوده كان منصبّاً على التطبيق الذي لا يلغي التنظير وإن لم يشر إليه

صراحة. فهل يمكن أن نتبيّنه في المستوى الإجرائيّ أي في ما ولّد من مصطلحات؟

4 ـ تحليل نماذج من المصطلحات المولّدة:

4 ـ 1 ـ بالاقتراض والترجمة الحرفية: إنّ لطبيعة المقترضات التي سنعالج في هذا البحث، خصوصية، وهي أنّها مصطلحات يمكن أن يكون لمعالجتها معالجة لسانية معجمية بعد آخر ينضاف إلى بعدها العلميّ وهو ما تمثله هذه الحركة الاصطلاحية في لغة العلوم عند العرب من دليل على أهمية وظيفة الاقتراض في توسيع المصطلحية العربية وإثراء معجمها. فقد عدّ هذا الضّرب من التّوليد المصطلحيّ الأكثر اطّرادا وتواترا في كتب العلوم من غيره من قواعد التوليد الأخرى. فكان فيها سمة بارزة، وأداة لغوية للاستعانة بلغات أجنبية أثرت العربية بمصطلحات علمية وفنية كثيرة نقلتها من لغة بدوية إلى لغة حضارية راقية.

كما أنّ لظاهرة الاقتراض بعدا آخر وهو كشفها لحقيقة حياة اللغات في عصور تطوّرها. فهي تعكس لا فقط حركة اللغات في تفاعلها الحضاريّ والثقافيّ، بل أيضا العلاقات المتنوعة بين المجموعات البشرية المتحاورة في هذا الكون(9)، خاصة ونحن نلج ميدان العلوم والتقنيات الذي هو مجال تعاون الحضارات والثقافات منذ القديم، لا بطريق الغزو والاحتكاك المباشر بين الشعوب بل بطريق العلم ونشر المعرفة الذي استدعته رحلة اللغات أو اقتراضها كلّما كانت ترحل المواد والبضائع.

إنّ ما يلفت الانتباه أنّ الرازي لم ير في الاقتراض ـ من جهة تأديته وظيفة العلم بأمانة ودقّة ـ عائقا لغويا، بل وقف من المسألة اللغوية موقف العالم المصطلحيّ همّه البحث عن النّافع لإيفاء العلم حقّه من الوضوح، فاستعمل لغة علمية وعملية تطغى عليها المصطلحات السائدة عالميا، وتجعل من الاقتراض وسيلة عونا لتجاوز المصاعب والوصول إلى الأهداف العلميّة. فاتّخذه قاعدة توليديّة وعملية لإنجاز عمله الاصطلاحي. وما يدعونا إلى تغليب هذا المبدإ المنهجي عنده أنّه لم يتحيّز إلى اللغة العربية، فيتشدّد في اشتراط الفصيح أو المولّد، ويبحث عن مقابلات عربية قد لا تكون معروفة أو دقيقة، وقد يحتاج القارئ وحتى الباحث إلى الاستعانة بالمصطلح الأعجميّ لفهمها.

فهو في مستوى الدّلالة يراعي جوانب الدّقّة ووضوح المفهوم الاصطلاحيّ وانتشار المصطلح وعالميته، دون تمييز للغة على أخرى. ولعلّه غلّب أحيانا المصطلح الأعجميّ رغم وجود مقابله العربيّ، أو المصطلح الفارسيّ على مقابله اليونانيّ أو العكس..إلخ، وفي ذلك دليل في اعتقادنا، على أهمية الاعتبارات العلمية والفنية عنده. وهو ما يجعل الاقتراض قضية منهجية دقيقة ذات قيمة وظائفية في تبليغ النّصّ العلميّ، وليس لمجرّد التيسير والسهولة.

لقد تجنّب الرازي بهذا التصوّر الشّامل للعلم أن يقيّد عمله بلغة واحدة(10) حتى وإن كانت اللغة العربية، فلم يغرق في قوائم من المقابلات العربية الفصيحة، لما في ذلك من تضييق لرسالة العلم التي ينبغي لها أن تظلّ عالمية، فهو يعرف آفاق خطابه العلمي ولذلك حدّد طبيعته من خلال طبيعة المتلقين، وهم فئة المختصّين في الطبّ والصيدلة الذين يشتركون معه في هذا الرّصيد المصطلحيّ العالميّ. ويمكن أن نعثر على أمثلة من المصطلحات الأعجمية الواردة في المقالة الثالثة لا تدلّ عُجمتها على عدم وجود مقابلات عربيّة لها أو بلغات أخرى، بل إنّ ورودها بلغاتها تلك هو نتيجة اختيار واع يغلّب الفائدة العلمية على العصبيّة اللغوية، كتغليبه مثلا: المصطلح اليوناني (أسقيل) على المصطلح العربي (بصل الفأر)، والمصطلح الفارسي (شليم) على المصطلح العربي (الزوان) إلخ.. أو عزوفه عن ترجمة المصطلح ترجمة حرفية فاستعمل مثلا: المصطلح اليونانيّ (أزادرخت) بدل ترجمته حرفيا إلى:(حرّ الشجر)، والمصطلح الفارسي (فيل هزرج) بدل ترجمته حرفيا إلى (مرارة الفيل).. إلخ.

وربما سمحت لنا بعض هذه الملامح باكتشاف بعض الخصائص التي قام عليها جهده المصطلحيّ،

فقد ظهرت في عمل الرازي علامات دالّة على مظاهر تصورّ منهجيّ في استخدام الاقتراض نذكر منها:

-إحلال الاقتراض منزلة مشروعة ضمن قواعد التّوليد المعجميّ المعلومة في العربية.

-إحلال المصطلح الأعجميّ أهمية كبرى في كتابه. إذ يرى أنّ العربية لا تستطيع أن تلبّي بمفردها ميدان العلوم حقّه، إذا ما اكتفت برصيدها المعجميّ الخاص؛

-اعتماد المصطلح الأعجميّ المشهور مدخلا في كتابه وتفضيله على مقابله العربي رغم علمه به أحيانا، لأنّ مصدر العلم كان أعجميا، ومصطلحاته لم تكن بعد منتشرة. وفي هذا الاختيار محافظة على لغة علوم عالمية؛

-وضع مقابلات لكنّها في الغالب غير عربية، إلاّ أنّها كانت معروفة متداولة عند الصيادلة، على الأقلّ. وهذه المقابلات هي في الغالب فارسيّة أو يونانيّة؛

-الاكتفاء في مستوى الشكل، برسم بعض المصطلحات الأعجمية بأحرف عربية؛

- تجنّب الإكثار من التّوليد بقاعدة "الترجمة الحرفية" لأنّ الدّلالة المصطلحيّة والعلمية للمصطلح لا علاقة لها بالدلالة المعجمية للمفردة. بل إنّها قد تؤدّي إلى مغالطة.

4 -1-1- اللغات المقرضة: إنّ الرازي لا يقدّم أي تعليق على المصطلحات المستعملة: كالأصل اللغوي، ودرجة تعريب المصطلحات، وكيفية قراءتها، ونوع المادة (حيوانية، أو نباتية، أو معدنية)، وموطنها، ومصادره الطبية.. وإنّما يكتفي بالمواصفات الطبية مشيرا في نفس الوقت إلى المنافع والمخاطر المحتملة. وربما يمثّل ذلك دليلا على انتشار هذه المصطلحات وشيوعها خاصة لدى المختصين. وهو ما يزيد في أهميّة بقائها بلغاتها الأصلية التي باتت عالمية متّفقا عليها بين المختصين. وهذه اللغات صنفان:

أ- صنف تمثّله لغات ذات منزلة ضعيفة، وتمثله لغات في الغالب تنتمي معها العربية إلى أصل ساميّ واحد، مثل السريانية والآرامية.. ؛

ب- صنف قوي المنزلة تمثله لغتان أساسيتان لهما إشعاع ثقافي وحضاري كبير سبقتا العربية في تطوّر العلوم ووضع مصطلحاتها، وهما اليونانية والفارسية، وهو ما نتبيّنه من الجدول التالي:

ويمكن تحديد المستويات اللغوية التي تصنّف بحسبها المصطلحات الواردة في فصل "الأدوية التي يكثر استعمالها"، إلى قسمين كبيرين هما:

أ- مستوى أعجميّ، ويضمّ جميع المصطلحات المقترضة وعددها: 153 مصطلحا من مجموع 238 مصطلحا. أي إنّ نسبة الأعجمي بلغت: 64%؛

ب- مستوى عربي، ويضمّ المصطلحات المنتمية إلى الرّصيد العربيّ، وعددها: 85 مصطلحا. أي بنسبة: 36%. وهذا المستوى العربي نوعان:

ب 1- رصيد عربيّ أصيل: 67 أي بنسبة: 28,5%،

ب 2- رصيد عربيّ لكنّه مترجم ترجمة حرفية عن إحدى اللغات الأعجمية: 18 أي بنسبة: 7,5%،

ما يلاحظ في هذا الرصيد أنّ المصطلحات غير العربية، أي الأعجمية المقترضة تمثّل ضعفي المصطلحات العربية تقريبا. ولذلك دلالته. فقد رأينا أنّ هذا العلم أعجميّ، إضافة إلى موقف العلماء غير المتحيّز منه، وميلهم إلى اتّخاذ العلم مصطلحات موحّدة.

مصطلحات عربية	مترجمة حرفيا	فارسية	يونانية	لغات أخرى	المجموع
67	18	84	47	22	238
28.5%	7,5%	35%	20%	9%	100%
الرطبة الطين الكثيراء اللوز	لسان الحمل (Arnoglosson) حيّ العالم الصغير Aeizoontomikron حيّ العالم الكبير (Aeizoon mega)	اشق (اشه) بنج (بنك) جلنار(كلنار) زبيق (زيوه)	اسقيل Skilla كرنب Krambe نفط Naphtha قيشور(Kisseris)	أمبربارس لاتيني: Berberis برز قطونيا : سريانية .زنجبيل: هندية . حاشا : آرامية	من فصل في الأدوية التي يكثر استعمالها من المقالة الثالثة، من كتاب «المنصوري للرازي

كما نلاحظ داخل صنف المقترضات تغليبا واضحا لمصطلحات اللغة الفارسية على مصطلحات اللغة اليونانية –رغم أنّ اليونانية تعدّ لغة مصدرا– إذ كان العرب يعدّون الفارسية وسيلة لرفع العجمة عن المصطلحات اليونانية، فضلا عن اعتبارهم الفارسية لغة إسلامية لا تخرجهم عن الذهنية الإسلامية..

وهنا نلاحظ أنّ الرازي لم يخرج عن اتّجاه حركة الإنشاء العلميّ التي قامت في القرنين الثاني والثالث على الاقتراض الثقافي (تـ313هـ)، بل كان امتدادا لها، فكان عمله صورة لهذا الواقع عكسه بوضوح مجال علم الصيدلة، وهو مجال أسماء المواليد.

إنّ بعض مصطلحات عربية ترد في مقالة واحدة من كتاب ظهر في ق3هـ/9م، تطلعنا على تداخل عالميّ في مستوى التأليف العلميّ في اللغة العربية للغات تمثّل حضارات وثقافات متنوعة، وتثبت من ناحية أخرى تنوّع الاقتراض وأهميته وعالميته. إنّه الوسيلة التي وحّدت في نصّ واحد بين لغات وثقافات مختلفة ولكنّها في الحقيقة متكاملة.

فالفارسية تقدّم لنا مثالا رائعا عن اللغة التي أسندت العربية، فهي باعتبارها لغة إسلامية –ومن العلماء والتراجمة من هم فرس يحسنون الفارسية تكوّنوا في مدرسة جنديسابور ببلاد فارس– مثّلت وسيطا بين العجمة والتعريب. فكان بذلك أكثر المصطلحات المقترضة فارسيا؛ واليونانية دلّت بالفعل على أسبقيتها العلمية بما أنّها الأصل الذي يعتمد عليه، رغم أنّها تحتلّ المرتبة الثانية في عدد المصطلحات؛ أما اللغات الأخرى سواء ما كان منها من أصل ساميّ أو هنديّ أوروبيّ، فقد أثبتت التواصل الحضاريّ العميق للمنطقة العربية ومحيطها الجغرافي. ويدلّ اللجوء إليها على التواصل والقربى، إضافة إلى ما تكشفه هذه الحقيقة من انتشار هذه اللغات بين العلماء والمترجمين خاصة.

وبالجملة فإنّ الاقتراض ظاهرة فذّة في اللغة العربية إليها يرجع الفضل في تمدين العربية لغة البدو وجعلها لغة العلم والحضارة. لكنّ إقبال العرب في الماضي على الأعجميّ كان عن قوة مادية وعلمية، بينما بدا اليوم للبعض خطرا يهدّد بقاء العربية، بسبب ضعف مشاركتها العلمية وتبعيتها لهيمنة الأجنبيّ.

4-1-2- بالمجاز والاشتقاق: يعرّف المجاز بأنّه إخراج الكلمة من دلالتها الأصلية أو الوضعية إلى دلالة جديدة تكتسبها من الأوضاع المجازية التي يضعها فيها المتكلم، وذلك بأن يعمّم الدلالة أو يخصّصها أو يحوّلها. وقد وصف الرازي هذه الظاهرة اللغوية في الاصطلاح الإسلاميّ بقوله: "فمن الأسماء ما أصبح يفيد معنى شرعيا ويختلف عن معناه القديم الوضعيّ، وأصبح بذلك يطلق على حدث أو حكم في الشرع كالصوم والزكاة..(11).

على أنّ قيمة المصطلح تتحدّد بموقعه من النظام المفهوميّ الذي يندرج فيه، لأنّ انتقال المصطلح من التعميم إلى التّخصيص يحدث تغيّرا في قيمته المعنوية حتى وإن حافظ على بنيته الدلالية، أما دلالته فترجع إلى طبيعة العلاقة المرجعية الجديدة التي تحدّد للوحدة المصطلحية مفهوما خاصّا لا يقبل الاشتراك أو الغموض. وعادة ما تتأسس هذه الدلالة بالمجاز، وأحيانا بالاشتقاق أو بالنّحت..

إنّ اهتمامنا بدلالة المصطلحات بما هي أفراد، يحصر بحثنا في إطار معجميّ خالص تعتبر فيه هذه الوحدات المخصصة أفرادا لغويّة، ذات معان مجازية (sens figurés) حاصلة من تحويل المعاني الحقيقية العامة (sens propres) تحويلا مجازيا، بعيدا عن المجاز البلاغيّ وصلاته بالبنى النّحوية والدلالة المنطقية. فليس المقصود من هذه المعالجة الأبعاد الفنية الذوقية، بل ما دعت إليه ضرورات الاصطلاح في العلوم والفنون. وفي القديم ضمّت أغلب هذه الاستعمالات المجازية إلى رصيد اللغة المعجميّ، ولم نعد نشعر إجمالا بأنّها مجازية. (سنلاحظ ذلك في البحث في الدلالة المعجمية: ففيها مزج بين الحقيقة والمجاز) هذا ما دفع الدراسات اللغوية الحديثة إلى الاتّجاه إلى المجاز بوصفه أساس التطوّر الدّلاليّ.

وقد استطاع القدامى أن يسندوا من خلاله المعاني الجديدة إلى الألفاظ القديمة في الاستعمال. فإنّ تجدّد النشاط الإنساني لا تبرزه اللغة دائما في شكل ألفاظ جديدة، بل إنّه يتمثّل كذلك في قدرة اللغة على إنجاز تحوّلات دلالية بتحريك دوالّها لتنزاح عن مداليلها المثبتة في المواضعة العامة، وتلامس مدلولات جديدة.

وأهمية المجاز تكمن في كونه من أهمّ وسائل التّوليد المصطلحيّ لأنّه يمثل انتقالا ضمن النظام اللغوي الواحد، بخلاف التوليد الشكليّ الذي يتطلب إحداث دوالّ جديدة، ولهذا كان المجاز أيسر لقيامه في الغالب على نقل الحقيقة بالمجاز في مستوى تسمية المفاهيم أو المستحدثات العلمية أو التقنية المحدّدة.

على أنّ لطبيعة المولدات المجازية التي نريد أن نعالج في بحثنا خصوصية، وهي أنّها مصطلحات، أو وحدات ذات معان اصطلاحية، أصبحت جزءا من الخطاب العلميّ في اللغة العربية العلمية، فإذا كانت المصطلحات السائدة في علمي الطبّ والصيدلة أعجمية، وإذا كانت العربية تشكو في هذا المجال من الخانات المعجمية الفارغة، فإنّ المجاز اعتمد أيضا وسيلة بديلة لحلّ جزء من مسألة نقل المصطلحات العلمية غير المعروفة في العربية. وهنا يمكن أن تمثل معالجة هذه المصطلحات في لغة العلوم عند العرب دليلا مهمّا لدرس وظيفة المجاز في توسيع المصطلحية العلمية العربية وإثراء معجمها.

هذا ما دفعنا إلى معالجة عدد من المصطلحات والنظر فيها من خلال سياقها النّصيّ عند الرازي، وهي مأخوذة كما أسلفنا من فصل "في قوى الأغذية". وهذه المصطلحات التي اخترنا تلتقي في كون الرازي اتّخذها صفات للأغذية، وأسندها مجازا واصطلاحا إلى طبائع الأغذية وقوى الأدوية.. وهي في الحقيقة وحدات من مفردات اللغة العامة تطلق في الواقع على طبائع الكائنات الحية كالإنسان والحيوان والنبات وعناصر الطبيعة.. وهي: (الملطّف، الغليظ، البارد، الحارّ، اليابس، الرّطب):

أ– بنية التعريف:

1- الملطّف: ورد مصطلح "الملطّف" أو مشتقاته أو مرادفاته ومقابلاته: اثنتين وعشرين مرّة، منها اثنتا عشرة "للملطف" ومشتقاته، وسبع لمقابلاته، وثلاث للتوضيح، وواحدة للمرادف. كما تظهره اللوحة التالية:

المصطلح	البنية	الاشتقاق	الترادف	التقابل	التوضيح	المج. العام
الملطف	ص . فاعل : *مفرد: ملطّف (2) * مركب :الأغنية * الملطفة (2)	ـ ص. مشبهة : * مفردة: لطيف (4) * مركبة: الأغنية اللطيفة(1) ـ فعل : يلطّف (2) ـ ص. تفضيل: ألطف (1)	ص. تفضيل أرقّ (1)	ص. فاعل : الغليظ (4) اللزج (1) إسم : الحدّة (1) الحرافة (1)	ـ إسم : قوى (1) كيموس (1) ص. فاعل : متوسط (1)	
المجموع	4	8	1	7	3	23

وهذا دليل على أنّ المصطلح ليس مفهوما بديهيا وأنّ تعريفه يمرّ بعمليات لغوية شديدة التعقيد يستدعي فيها العالم مقدرات اللغة العامة لتيسير مفهوم المصطلح وتقريب مرجعه من الأذهان، قصد حصر حدوده ومنع الالتباس عنه. ولذلك فالرازي عرّف المصطلح بذاته (ملطّف)، وبمشتقاته (لطيف/يلطف..)، وبمقابله (غليظ)، وبمرادفه (أرق)، وبخواصه (قويّ، متوسط)..

وتبدو جميع هذه المظاهر دليلا كذلك على ديناميكية المصطلح وقدرته على التفاعل داخل النّص بما يبدّد تلك الصورة القارة لنا عنه وهو أنّه مفهوم ثابت شديد الاستقرار جامع مانع. وهذه واحدة من خصائص معالجة المصطلح داخل النصّ. وما ظهور هذا العدد الكبير من الألفاظ المتّصلة بالمصطلح في تعريفه إلا دليل على مصاعب ضبط المفهوم وتحديد مراجعه بالدقّة التي يقتضيها العلم.

لكن إذا كان استخدام المقابل والمرادف والخواص التّوضيحيّة مفهوما في نص تعريفيّ، فإنّ التّساؤل يبقى قائما حول كثرة المشتقات حتى ليبدو النّص أحيانا كأنّه يغرق في التكرار، فلو أردنا أن نجمل التعريف لقلنا: (الملطف هو نوع من الغذاء يصنّف حسب قوته إلى لطيف ومتوسط وغليظ، يهمّنا منها الغذاء اللطيف لأنّ وظيفته هي أن يلطّف الشيء الغليظ ليردّه ألطف أو أرقّ) وهنا نعود إلى الدلالة المعجمية الأصلية وهي الرقة.

إنّ هذا الدوران في نفس الحلقة الاشتقاقية لم ييسّر في الحقيقة عملية الفهم بقدر ما يسّرها المصطلح المقابل (غليظ). ولهذا لاحظنا لدى الرازي تغليبا لتكرار المصطلح المقابل (سبع مرات) حتى كاد يضاهي درجة تكرار المصطلح المعرّف نفسه (أربع مرات، تضاف إليها ثمانية مشتقات ومرادف واحد). وهو ما فسّر وظيفة "الملطّف" وزادها إيضاحا، إضافة إلى وحدات ذات وظيفة تفسيرية مثل: (قوى، متوسطة) وهي للدلالة على درجة مفعول الغذاء المدروس.

2 ـ الغليـــظ:

المصطلح	البنية	الاشتقاق	الترادف	التقابل	التوضيح	المج. العام
الغليظ	ص . مشبهة *مفرد: غليظ(3) * مركب: كيموس غليظ (2)	ـ مصدر : * مفرد : غلظ (1) * مركب : غلظ الجرم (1)	ـ إسم * مفرد : حدّة حرافة تقطيع، (3) * مركب: قوة الحرارة (1) ص. مشبهة : رديء ، لزج (2)	فعل يلطّف (3) ص. تفضيل: (1) (لطيف (1)	ـ مركب إسنادي ما بقي من الشيء (1) ما يلقاه في البدن (1)	
المجموع	5	2	6	4	2	19

قام التعريف هنا أيضا على تعريف المصطلح بذاته (غليظ) في خمس حالات، وبمشتقاته (غلظ..) في مناسبتين، وبمرادفه (لزج..) في ستّ مرات، وبمقابله (لطيف..) في أربع مرات، وبخواصه (عسر الهضم والانحباس) في البدن في مناسبتين.. فيكون المجموع تسعة عسر استخداما سبعة منها فقط لأصل المصطلح وما اشتق منه، والباقي وهو اثنا عشر استعمالا مكملا لوظيفة التعريف..

وتبدو جميع هذه المظاهر دليلا كذلك على أنّ للمصطلح قيمة لا تبدو إلا من خلال تفاعله داخل النّصّ، وهي عملية إعادة صوغه والتصرّف فيه من التعميم إلى التخصيص، والمراوحة في كلّ ذلك من المصطلح إلى التعريف ومن التعريف إلى المصطلح.

وما ينتج عن ذلك من بدائل قائمة على استعادة التعريف بطرق مختلفة، إضافة إلى ما يصحب المصطلح في كلّ مرة من تعابير توضيحية، لمزيد التحكم في المفهوم وتمييزه عمّا يجاوره من مفاهيم قد تلتبس به.

والطريف هو استخدام الرازي نفس المنهج مع كلّ مصطلح من المصطلحات التي عالجناها. وهو ما يؤكّد منهجه التصنيفيّ الذي أشرنا إليه في البداية المبنيّ على فكرة الثنائيات الطبيعية وما يتولّد عنها في مستوى الأغذية من قوى تراتبية تنتظم طبيعة الأشياء نفسها كالبارد والحارّ واليابس والطريّ إلخ..

3 ـ البـــارد:

المصطلح	البنية	الاشتقاق	الترادف	التقابل	التوضيح	المج. العام
البارد	ص.مشبهة * مفردة: بارد (3) * مركب : الأغذية الباردة (1)			ص. مشبهة * مفردة : حار(3) * مركب:حار البدن (1) ـ إسم : حرارة (1)	ـ مركب : أقلّ حرارة (1) ـ ص. مشبهة :* لطيف (2) * غليظ (2) * عفص (2) * حامض (1) * ضارّ (1) ـ إسم : حموضة (1) عفوصة (1)	
المجموع	4			5	11	20

اشتمل التعريف على عشرين استخداما للمصطلح منها أربعة في تعريف المصطلح بذاته (بارد)، وخمسة بمقابله (حار)، وعشرة بخواصه (حامض، عفص..)..

4 ـ الحـــار:

المصطلح	البنية	الاشتقاق	الترادف	التقابل	التوضيح.	المج. العام
الحارّ	ص. مشبهة * مفرد : حارّ(1) * مركب : الأغنية * الحارّة (1)	ـ صفة تفضيل : أسخن (1)		صفة مشبهة : الباردة (2) ـ إسم : البرد (1)	ـ صفة مشبهة العتيق (2) الحلو (1) الأصفر (1)	
المجموع	2	1		3	4	10

ضمّ التعريف عشرة استعمالات منها اثنان للمصطلح نفسه وواحد من مشتقاته وثلاث من مقابلاته وأربع من خواصه التوضيحيّة.

5 ـ اليابس :

المصطلح	البنية	الاشتقاق	الترادف	التقابل	التوضيح	المج. العام
اليابس	ص. مشبهة * مركب : الأغذية اليابسة (1)			ص. مشبهة * مفرد : حارّ(1) * مركب : الأوقات والبلدان الرطبة(2) إسم: رطوبة (1)	مركب: ما يشوي، ما يطجّن، ما يقلي (3)	
المجموع	1			4	3	8

ضمّ التعريف ثمانية استعمالات، منها واحد فقط للمصطلح المدروس، وأربعة من مقابلاته وثلاثة من خواصه التوضيحيّة.

6 ـ الرطب :

المصطلح	البنية	الاشتقاق	الترادف	التقابل	التوضيح	المج. العام
الرطب	ص . مشبهة * مركب: الأغذية الباردة (1) والباقلي والحمص واللوبيا الرطب (3)			ص. مشبهة * مركب البلدان اليابسة (1) - إسم: - اليبس (1)	- مركب: ما يطبخ - بساق، يقلّل فيه (3)	
المجموع	4			2	3	9

اشتمل التعريف على تسعة استعمالات، منها أربعة للمصطلح المدروس، واثنان لمقابلاته وثلاثة لخواصه التوضيحية.

رأينا أنّ التعريف يمكن أن يقوم على عدّة أركان نظرية وتجريبية. ورأينا أنّ الرازي يعتمد تقريبا نفس المقاييس في التعريف. فنظرا إلى اختصاصه الطبيّ يقيم الرازي التعريف على أسس تقتضيها طبيعة الدّواء وهي:

- أساس لغوي: باعتماد مشتقّ من نفس الجذر، أو المقابل، أو المرادف..

- خصائص الغذاء ومنافعه ومخاطره..

- التمثيل له: بذكر: قوائم من أسماء الأغذية، أو تجارب معيّنة، أو شروط الاستعمال..

- بناء مرجعية مصطلحية تصبح أساس تفسير مصطلحات وتعريفها، كتفسير الحارّ بالبارد وتفسير الرّطب باليابس.. والعكس صحيح.. وربّما نتج عن

هذا التصورّ بناء المصطلحات بناء ثنائيا توضع فيه المصطلحات بشكل متقابل يفسرّ بعضها بعضا. فما يكون هنا مدخلا يصبح هناك تعريفا وهكذا.. فتعرّف المصطلحات ببعضها. ربما لإيمانه ببناء الطبيعة على هذه الثنائيات الحكيمة. فالغذاء الحارّ للبدن البارد، والغذاء البارد للبدن الحارّ..

ومع ذلك يظلّ كلّ تعريف من هذه التعريفات في حاجة إلى مزيد توضيح وهو ما سينجزه الرازي في المرحلة التي سمّيناها التحليل:

ب-المصطلح والتحليل:

إنّ الخصائص المرجعية للمصطلح تعطيه موقعا خاصا في النظام المعجميّ، إذ لا يكون تحديده كافيا إلا إذا اقترن تعريفه وتحديد مضمونه بواقع مادي معيّن. فلا يمكن مثلا تحديد المضمون المصطلحيّ إلا داخل بنية السيّاق: فتحلّل عناصره الأساسية المكونة له، وينظر في علاقته بمصطلحات مقابلة أو مرادفة، وفي كيفية استعماله في النّصّ، وفي بنيته الاشتقاقية، وبنيته المفهومية.. ليتجاوز بذلك مجرّد تبرير وجود المصطلح باعتباره علامة مصطلحية ذات علاقة عضوية بوظيفته المرجعية إلى معالجة موقعه ضمن بنية النصّ أي على أساس التحامه باستعمال منظّم لممارسة معرفية حسب تطور المفاهيم العلمية.

فما أسميناه تفسيرا هو ما جاء في شكل إضافات لجوانب مكمّلة للتعريف ممّا لا تسمح بنية التعريف بظهوره بسبب نزعتها الشمولية والتجريدية. فالرازي احتاج في مناسبات كثيرة لمزيد توضيح مفهوم المصطلح: فيعمد إلى:

*تبرير خصائصه العلاجية أو بالتّنبيه إلى آثاره الأخرى،

*اللجوء إلى ذكر أمثلة عنه،

*تقريب مدلوله بالمقابل أو بالمرادف،

*توليد مشتقات منه..

ج- المصطلح والدلالة :

المصطلح	الدلالة المعجمية	الدلالة الاصطلاحية	الشاهد النّصي
الملطّف	1 ـ لطُف به لطْفا ولَطَفا: رفق ولطّف الشيء: جعله لطيفا أي رقيقا، 2 ـ لطُفَ: رقّ (1) صغر. (عود لطيف) ، (2) ضدّ خشن (ذو خلق لطيف) 3 ـ ضدّ كثف (هواء لطيف)	1 ـ المولّد دما خفيفا 2 ـ المخفف لبقايا الغذاء الغليظ 3 ـ المزيل للترسّبات الغليظة	1 ـ ما يتولد منها دم خفيف فيقال لها ملطفة 2 ـ ومن الأغذية الملطّفة جنس آخر يلطّف ما بقي من الشيء الغليظ بما فيه من الحدّة والحرافة..» ص 112. 3 ـ يلطّف ما يلقاه في البدن من الكيموس الغليظ
الغليظ	ـ غلُظ صفقة مشبهة خلاف رقّ، 2 ـ غلظ : اشتدّ، اكتمل، ضدّ سهل، وغلّظ الشيء : قوّاه 3 ـ الغلَظ من الأرض: الخشن، الغليظ : الصعب، الشديد	1 ـ المغذية النافعة : 2 ـ اللاذع الحادّ : 3 ـ الثقيل : 4 ـ الكثيف الأجرام : 5 ـ الرديء الفاسد : 6 ـ الأطعمة القويّة الشديدة 7 ـ التصلّب المرضي : 8 ـ البطيء الهضم والانحدار	1 والأطعمة الغليظة إذا... انهضمت وغذّت البدن غذاء كثيرا. 2 ـ ما بقي من الشيء الغليظ بما فيه من الحدّة والحرافة. 3 ـ وهو في نفسه غليظ.. 4 : وبقي جرمه غليظا رديئا 5 ـ وأما الهواء فأصلحه الصافي اللطيف الذي ليس فيه بخارات غليظة. 6 ـ ولبن البقر أغلظها وأرفقها لمن يريد أن يخصب بدنه 7 ـ والتين إذا أكل وحده زاد غلظ الكبد والطحال 8 ـ من كان الطعام يفسد في معدته، فأجود الأطعمة له ما غلظ وتصلّب وأبطأ فى استحالته

البارد	1 ـ برد : هبطت حرارته فهو بارد، 2 ـ برد : فتر، سهل، 3 ـ برّد : حقّق، 4 ـ البارد : الهنيء	1 ـ الخفيف المكونات : 2 ـ تخفيض حرارة البدن 3 ـ البطيء	1 ـ الأغذية الباردة يحتاج إليها من كان حارّ البدن وفي الأوقات والبلدان الحارة. 2 ـ العدس بارد يابس.. يطفئ ويبرّد 3 ـ الشعير، منفخ مبرّد ضارّ لمن يشكو الرياح والأمراض الباردة والقولنج
الحـار	1 ـ حرّ الماء والهواء: سخن، والحار: الساخن، والحرارة السخونة.. 2 ـ حرّ الرجل : حزن، 3 ـ حرّت الكبد: يبست من عطش،	1 المسخّن : 2 : المنشّط 3 ـ حدّة المذاق	1 ـ الأغذية الحارة يحتاج إليها من كان عليه البرد في الأوقات الباردة. 2 ـ والشراب يسخّن المعدة والكبد ويزيد في الدم واللحم والحرارة الغريزية 3 ـ حارّ حرّيف مقطع كالخردل والحرّف والثوم والكراث.
اليابس	1 ـ يبس : جفّ بعد رطوبة، فهو يابس 2 ـ اليابس : الصلب، واليابسة : الأرض لصلابتها، 3 ـ أيبس ويبّس الشيء: جفّفه،	1 ـ انعدام الرطوبة : 2 ـ الصلب العاصم : 3 ـ الجفاف	1 ـ والأغذية اليابسة : يحتاج إليها من كان الغالب على بدنه الرطوبة 2 ـ البلوط بارد يابس عاقل للبطن ممسك للبول 3 ـ الحليب نافع من الدقّ والسلّ والسعال اليابس وحرقة البول
الرّطب	1 ـ رطب رطوبة: ندي وابتلّ فهو رطب، ضدّ اليابس 2 ـ رطّب :نعّم، والرطب: اللين الناعم	1 ـ النّدى : 2 ـ الغضّ الطريّ 3 ـ اللين الناعم	1 ـ الأغذية اليابسة يحتاج إليها من كان الغالب على بدنه الرطوبة. 2 ـ والتين رطبه ويابسه ينقي ويجلو الكلى 3 ـ كلما كان الحيوان أطرى فلحمه أرطب وهو خير.

تعليـق على اللوحـة :

- المصطلحات الستة: وردت صفات مفردة (صفة الفاعل: الملطّف، وخمس صفات مشبهة: الغليظ، والبارد، والحارّ، واليابس، والرطب)، ويمكن أن تستعمل مركبة ـفي أي موطن في النصـ فيزاد إليها الاسم (الغذاء أو الأغذية أو الأطعمة أو الأدوية) فيقال مثلا: "الغذاء الملطّف، أو الأغذية الغليظة".

- الدلالات العامة تشير إلى وضوح تصنيفيّ عند الرازي اعتمد فيه على طبائع الأشياء في إسناد المفهوم ووضع المصطلح. وجعل حركة المصطلح الداخلية قائمة على نسق وتقابل وتراتب، فهناك: الثنائية والضدية والتسلسل..: (الملطف/الغليظ، البارد/الحارّ، واليابس/الرطب)، فإنّ عناصر الطبيعة المستمدة منها هذه المصطلحات هي نفسها قائمة على ثنائية: القوّة (الملطف أو اللطيف، والبارد، والرطب) والضّعف (الغليظ، الحارّ، واليابس). بذلك يكاد يكون الاصطلاح وتصنيفه مستمداً من تصنيف طبائع الأشياء، وهو ما ييسرّ حصر المفاهيم ويسهّل إدراكها وضبطها.

- لكنّنا لاحظنا مشكلا صرفيا يتمثل في عدم انسجام هذه الصيغ شكليّا مع أحادية دلالتها الاصطلاحية المفهومية، ماعدا مصطلح «المطلّف» الذي ورد صفة للفاعل دالة على إحداث تغيير، بينما نجد الصفة المشبهة في (غليظ وبارد وحارّ..) تدلّ حينا على صفة الغذاء نفسه، وخينا آخر على مفعولها في غيرها أي الغلظ أو البرودة أو الحرارة..

- قدرة هذه المفردات على الانتقال اليسير من الحسيّ إلى المعنويّ المجرّد والعكس. مثلا (برد: هبطت حرارته، وبرد: سهل)، ولعلّ ذلك راجع إلى أنّ مادتها الجذعية تدلّ إمّا على حدث الفعل (لطف،

وغلَظ) أو على الاتّصاف الدائم به (لطُف ولطَف) مثلا،

لكنّ تحوّل المفردة من العمومية إلى المصطلحية، بفضل نقول مجازية وما يواكب ذلك في الاستعمال من حيوية دلالية وشكلية، يكشف على نشاط لغويّ يفتح أمام المفردة ظلالا معنوية تكسبها القدرة على الدخول في علاقات دلالية وفق الحقول المفهومية التي توظّف ضمنها، وهذه العملية تقوم أساسا على مبدإ التجريد الذي يحرّر المفردة من مجالها الدلالي المتّفق عليه إلى مجال اصطلاحي وفق علاقة مجازية ما. فكيف يظهر المصطلح في نصّ الرازي؟

ـ الوحدة المصطلحية علامة، وهي وحدة مفهومية في جدول مصطلحي، وهي وظيفة تصنيفية دالّة على موقع المرجع في نظام استعماله وميدان استغلاله (الحقل المعرفي). ولن يتأتّى لنا إدراك ذلك إذا عالجناها منعزلة عن النّص، فإنّ وظيفة التركيب النسقيّ المؤسس للوحدة المصطلحية هو بالأساس: الضبط الدّلاليّ، أي الدقّة في تحديد المضمون المفهوميّ لنجاح الوظيفة المرجعية.. فإنّ التحديد الدّلالي في مستوى التركيب المصطلحيّ يستند إلى ضبط المفهوم وعزله عن مفاهيم مجاورة عاملة في حقول معرفية أخرى، كذلك حصر له بالنسبة إلى المدلول المعجميّ العامّ المؤسس لوجود العلامة اللغوية.

إنّ مرور المفردات من العمومية المعجمية إلى الخصوصية المصطلحية تحصر الحقل الدلاليّ للمفردة في مدلول خاص يؤهلها للقيام بوظيفة اصطلاحية، أي يؤسس علاقته الخاصة بالمفهوم العلميّ لتتحول المفردة إلى دالّ لمدلول اصطلاحيّ جديد كعلامة لمفهوم لا تقبل الاشتراك أو الغموض.

على أنّ ظهور هذه المصطلحات في شكل أفراد لغويّة يدلّ على أنّها مولّدة مجازا أو بانزياح دلاليّ لتنتقل من وحدة عامة إلى مصطلح، ولكنّ ذلك قد يؤدي إلى الاشتراك. بينما يحدّ ظهورها في شكل مركب اسميّ من الاشتراك، لأنّ مدلول المصطلح المركب لا ينبني على المعنى الحرفيّ أو المعجميّ لمكوناته. والمصطلحات التي نتناول ترد أفرادا في الغالب وقد ترد مركبات اسمية. وهي إن وردت مفردة جاءت في شكل صفات اكتسبت خاصية الاسمية بواسطة نقل مقوليّ من الوصفية إلى الاسمية (فالتمر الرّطب يصبح: الرّطب، والأغذية الملطفة تصبح: الملطفة وهكذا..)

كما تثير المصطلحات الستة التي أجرينا عليها البحث وهي: "الملطّف، والغليظ، والبارد، والحارّ، واليابس، والرّطب "في النّص" جملة من العلاقات الصرفية الاشتقاقية النّاجمة عن دخول المصطلح في نسيج نصّ يقوم على الوصف حينا وعلى التحليل والتمثيل حينا آخر، وهو ما يُحوج الكاتب إلى استخدامه في سياقات تؤثر في بنيته ودلالته. ويثير ذلك تساؤلا عن صلة هذه المشتقات بالمفاهيم الاصطلاحية للمصطلحات الأصلية المدروسة، ومدى تداخل دلالاتها الاصطلاحية مع دلالاتها العامة.

فقد لاحظنا أنّ المصطلح يستعمل في مستويين: الأول: باعتباره مدخلا أو مفهوما يعرّف ويشرح ويمثّل له، باعتباره مكوّنا من مكوّنات الرّصيد المصطلحيّ لهذا العلم؛ والثاني: باعتباره أداة لشرح مصطلح آخر. فنجد هذه الثنائية مثلا في «اليابس / الرطب»، و«الحار / البارد»، و«الملطف / الغليظ» تستخدم كبدائل لشرح المصطلح وضدّه. وهذه الثنائيات الاشتقاقية تتبادل فيما بينها وظيفتي المدخل والتعريف. ويستدعي وجودها الاستفسار عن اختيارها الاشتقاقي: فلماذا مثلا يقابل مصطلح: «الغليظ» مصطلح «الملطّف» وليس «اللطيف». وإذا قلنا إنّ الرازي خيّر صيغة (مفعّل) للدلالة على التأثير في غيرها بما أنّها أغذية أو أدوية لها فاعلية؟ فلماذا لم يستعمل حينئذ «مغلّظ» بدل "غليظ" التي تفيد صفة الشيء لا فاعليته في غيره.. ونفس الشيء يقال عن (بارد وحارّ ويابس ورطب) لتصبح الصّيَغ المناسبة(مبرّد ومحرّر وميبّس ومرطّب) لا (البارد والحارّ واليابس والرّطب) لأنّ المصطلح في هذه

الحالة دالّ صرفيا على صفته القارة وليس بالضرورة دالا على مفعوله في غيره.

على أنّ هذه المصطلحات قد انتقلت صيغها الأصلية إلى أشكال اشتقاقية متعدّدة، وذلك في سياق النصّ فتراوحت بين المصدر والفعل والاسم وصفات الفاعل والمفعول والمشبهة، ويوحي ذلك بنوع من المرور المتبادل بين التّعميم والتخصيص. فقد ظهرت صيغ مختلفة اقتضاها سياق النّص، حتى لا تكاد تتمايز عن الاستعمال اللغوي العام. فهل لهذه الصيغة أثر دلاليّ يراوح بين العمومية والخصوصية؟ أم تظلّ جميعا حاملة لنفس المفهوم الاصطلاحيّ للمصطلح المركزي فلا تتغيّر بتغيّر اشتقاقاتها في النّص؟

وشبيه بذلك إدخال المصطلح في علاقات ائتلافية أو اختلافية مع مقابله أو مرادفه لتيسير شرحه توسلا بألفاظ اللغة العامة، على أنّ بعض هذه الألفاظ قد نجد له امتدادا في النصّ العلمي ليتحوّل هو نفسه إلى مصطلح مدخل، ولكنّ أغلبها تظلّ بمدلولاتها العامة التي تفقد المصطلح جانبا من صرامته العلمية.

وبصفة عامة نلاحظ أنّ المصطلح رغم قيامه في الأصل على مقولتي الاسم والصفة، فإنّ تنوّع بنيته عند الرازي (مصدر، اسم، صفات الفاعل والمفعول والمشبهة والتفضيل إلى جانب الفعل) ربّما ساعد على بلورة المفهوم الواحد، وفق سياقات متنوعة، ويسرّ اندراجه في الخطاب حتى لكأنّه امتداد طبيعيّ له. فإن صحّ ذلك فإنّه يعدّ بعدا آخر من أبعاد مجهود الرازي العلميّ بما انّه وفّق إلى هذا التبسيط واليسر في توظيف المصطلح في مجال علميّ صارم، من المفروض أن تكون أدواته شديدة العسر على غير المختصين، ومصطلحاته شديدة الانغلاق بنية ودلالة.

وفي اللوحة التالية بعض الصيغ الصّرفية التي ظهرت عليها المصطلحات المدروسة حسب درجة تواترها. وفيه نلاحظ كشفا لمختلف الدلالات الاصطلاحية حسب حركة المصطلح في النصّ سواء تغيّرت بنيته الصرفية أم لم تتغيّر:

المصطلح	إسم	ص.مشبهة	فعل	مصدر	ص.تفضيل	ص.فاعل	ص.مفعول	الجملة
ملطف	+	+	+	+	+	+	–	6
غليظ	+	+	+	+	+	–	–	5
بارد	+	+	+	+	–	+	+	6
حارّ	+	+	+	+	+	–	–	5
يابس	+	+	+	–	–	–	–	3
رطب	+	+	–	–	+	–	–	3
المجموع	6	6	5	4	4	2	1	

5 – الخاتمـــة :

إنّ مسألة البحث في المصطلح المناسب مطروحة فعلا بالنّسبة إلى المترجم، لكنّها بالنّسبة إلى العالم ليست كذلك دائما. فهي عنده اختيار واع يقصد منه التوفيق بين حقيقتين: واحدة علمية مفهومية تبحث عن الدقّة والأمانة العلمية والوضوح وترويج العلم في عالم المختصين؛ والأخرى معجمية لغوية ترتكز على ما يعرف في جميع اللغات من وسائل التوليد.

وما نستنتجه أنّ غلبة قاعدة الاقتراض في العمل المصطلحيّ العربيّ القديم وما أثمرته في الثقافة العربية،

ما كان له أن يتحقّق في غياب أمرين أساسيّين: الأول مقدرة العربية على استيعاب الأعجمي وصهره في طاقتها الإنتاجية لتكوين ثقافة علمية ذات لغة حيّة طيّعة؛ والثاني عقلية التسامح الثقافي والحضاري في المجتمع العربيّ الإسلاميّ بسبب ما كان عليه من استقلال وقوة، فإنّ العامل الأساسي في نجاح الاقتراض يعود إلى مدى اتّساع المجال الحيوي للغة المتقبلة، والمجال الاجتماعي والفكري والثقافي للمتكلمين.

وقد حاولنا في هذا البحث إبراز الأسس النظرية والمنهجية التي قام عليها المجهود الاصطلاحي العربي في القديم، وهو مجهود مكّن العربية من أن تتحولّ إلى لغة متطورة تتلاءم باستمرار مع الظروف ومجالات العلوم المستحدثة بعيدا عن الجمود والصفوية. وهو ما مكّنها فعلا من أن تقود الفكر البشري طيلة قرون من الريادة العلمية.

الهوامـــــش والإحـــالات

* - ألقي هذا البحث في الدورة الحادية عشرة لملتقى علي النّوري حول «الثقافة العربية وترجمة العلوم» الذي نظمته اللجنة الثقافيّة الجهويّة بصفاقس وجامعة صفاقس يومي 15 و 16 أفريل 2005.

1 - ابن منظور : لسان العرب، 8/1 .

2 - ينظر : ابن مراد، مسائل في المعجم، ص 31.

3 - ينظر تفصيل قواعد التوليد في كتاب : مسائل في المعجم لإبراهيم بن مراد، فصل : توليد المصطلح العلمي العربي الحديث، القضايا والإشكالات، ص 45–77

4 - محمد حسن عبد العزيز : التعريب، ص 78–158 .

5 - يمكن أن نذكر من الرواد:

أ - في التراجمة يوحنّا بن ماسويه تـ 243 هـ / 852 م، وقد أسهم في حركة الترجمة وأشرف على بيت الحكمة، وألّف كتبا وحنين بن إسحاق العبادي تـ 260 هـ / 873 م، وكان صاحب مدرسة في النقل والتأليف، واصطفن بن بسيل ...

ب - ومن العلماء الذين لم يسهموا في الترجمة لكنّهم أفادوا منها في مؤلفاتهم : أبو يوسف بن إسحاق الكندي، ت حوالي 256 هـ /870 م، وأبو يعقوب إسحاق بن عمران تـ 279 هـ / 892 م، وأبو بكر محمد بن زكرياء الرازي تـ 313 هـ /925 م. وبسبب تأخّره النسبيّ عن علماء هذه الطبقة، فقد استفاد منها، وكانت مصادره في الغالب مصادرها، وهو ما جعله أوسع تأثيرا في مؤلّفات الطبقات التالية، فهو من أهمّ مصادر أبي الريحان البيروني في الصيدنة، كما اعتمد عليه الغافقي في الأدوية المفردة، ورجع إليه ابن البيطار في كتاب الجامع حوالي 400 مرّة (المعجم المختصّ 78)

6- ابن مراد : المعجم العلمي العربي المختص، ص 92.

7- ابن مراد : المصطلح الأعجمي، 193/1.

8 - كتاب المنصوري في الطب، لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي، تحقيق : حازم البكري الصديقي، منشورات المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، 1987.

9 - Deroy : L'emprunt Lexicale ج.7

10 - نوّه أبو الريحان البيروني تـ 440 هـ في مقدّمة كتابه (الصيدنة) بالعلماء الذين كانوا يتّخذون في كتبهم معاجم متعدّدة اللغات، lexiques ، تشتمل على غرائب اللغات وتفسير المشكل منها. قائلا : «وفي الإحاطة باسم الدواء بصنوف اللغات فوائد. انظر : ابن مراد : مسائل في المعجم ص 186.

11- الرازي : الزينة، 132/1 . (انظر أمثلة أخرى من الصاحبي لابن فارس).

المراجع :
ابن فارس: الصاحبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب الوطنية، دمشق، 1987
ابن مراد إبراهيم: -المصطلح الأعجمي في كتب الطبّ والصيدلة عند العرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985

- المعجم العلمي العربي المختصّ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

- مسائل في المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1990.

- المسدي وآخرون: تأسيس القضية الاصطلاحية، بيت الحكمة، قرطاج، 1989.

- الرازي أحمد بن حمدان أبو حاتم: الزينة، تحقيق: حسين فضل الله الهمداني، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1957.

- الرازي أبو بكر محمد بن زكرياء: المنصوري في الطبّ، تحقيق: حازم البكري الصديقي، الكويت، 1987.

- عبد العزيز محمد حسن: التعريب في القديم وفي الحديث، دهر الفكر العربي، القاهرة، 1990.

- اليسوعي الأب رفائيل نخلة: غرائب اللغة العربية، ط4، بيروت، 1986.

Deroy Louis; L'Emprunt Lexical, Paris, 1956.

Guilbert Louis. La créativité lexicale, Librairie Larousse, Paris, 1975.

Baccouche Tayeb; L'Emprunt en Arabe moderne, Tunis, 1993.

ملف العدد

المصطلح الفنّي وحدود الترجمة

نزار شقرون*

1- في مشكلية المصطلح الفني:

تمثل المصطلحات الفنية أهمّ المشكليات الفكرية التي واجهت الخطاب النظري الفني العربي. وهي لا تخرج عن سياق أعمّ وأشمل إذ يذكر عبد السلام المسدي أن قضية المصطلحات تمثل «إحدى المعضلات القائمة في واقع الفكر العربيّ المعاصر منذ انبعاث نهضته الحديثة» (1) وعلاوة على ذلك فإنّ قضيّة الاصطلاح الفنيّ تعد واحدة من القضايا التي هدف إلى النظر فيها وإحلالها مكانة الصدارة مجمع اللغة العربية وهو المؤسسة التي عنيت منذ عشرات السنين بمشكلية المصطلح العلمي والفني على السواء، إذ بادر مجمع اللغة العربية منذ سنة 1962 بوضع المصطلحات اللغوية العصرية بإيعاز من عضوه اللغوي ابراهيم أنيس وذلك بغية وضع معجم عربيّ في المصطلح اللغوي على غرار ما يوجد في اللغات العصريّة الأخرى.

إنّ بناء أيّ خطاب نظري من ضرورات استدعاء جهاز اصطلاحيّ كفيل ببلورة تصوّرات هذا الخطاب وإكسابه النّجاعة في مقاربة العمل الفني، ولما كانت التجربة الفنية التشكيليّة العربية المعاصرة تحيا في مناطق تقاطعية منها التواصليّ ومنها الانفصاليّ مع التجربة الغربية عموما، فقد فرض على الخطاب النظري نوع من التواصلية التي تدخل في مدار إشكاليّ.

لقد واجه الخطاب النظريّ للفنون التشكيليّة العربية، مشكلة المصطلح سواء في الجانب النقديّ أو في الجانب التنظيري للتجربة الفنّية عموما، فالمصطلح جزء من الخطاب ومن لغة الخطاب أساسا. لذلك عبّر عدد من الباحثين والمشتغلين بهاجس الكتابة التنظيريّة عن معضلات المصطلح العربي، إذ يرى أحمد نوار أنّ أكبر مشكلة تواجه المصطلح هي غياب الاتّفاق حوله:«أعتقد أنّ المصطلح نظرا لما فيه من تركيز للخبرة والدلالة يلعب دورا هاماً في مسألة لغة النقد .في الثقافة العربيّة لا يوجد اتّفاق حول المصطلح وهناك خلط في دلالات المصطلحات، عفيف بهنسي يستخدم مصطلحا بدلالة تختلف عن استخدامه عند د. ثروت عكاشة ويختلف الاثنان عن دلالة المصطلح في موسوعة جامعة الدّول» (2) . ويعني ذلك أنّ واقع الاصطلاح غير رديف لتعريف الاصطلاح ذاته بما هو إحلال لتواضع مجموعة من المختصّين على معنى محدّد لكلمة ما ويعدّ إشكال الاختلاف من أبرز العوامل التي شوّشت الجهاز الاصطلاحيّ ومردّ ذلك أيضا إلى سوء استعمال المصطلحات وغرابة التعامل معها وهو ما ندركه بشكل دقيق في أغلب الكتابات الصحفية المهتمة بالشأن الفني حيث جرت المصطلحات إلى وضع تهميشي، يذكر أسعد عرابي:«لقد قاد اختلاط الصحافة بالنّقد إلى اختلاط المصطلحات وعدم دقّة حدودها، وقد رأينا كيف تميع الفروق بين مفاهيم التّنزيه والتّجريد، بين التشخيص والتشبيه، وبين التشخيص والواقعية.. ناهيك عن أنّه لا يوجد إلى اليوم قاموس عربيّ يحدّد المصطلحات الفنية ذات الأصل الغربي» (3) ولم يكن هذا التشوّش نتاجا لتقلّص المعرفة بالمصطلحات فحسب، بل كان من أسبابه وقوع المصطلح العربي عامّة تحت طائلة الفعل الترجمي، والباحث العربي عامّة مضطرّ إلى ذلك بحكم انتساب العديد من المصطلحات إلى فضاء معرفيّ غير عربيّ أي إلى المدارس الغربية

* أستاذ بالمعهد العالي للفنون والحرف بصفاقس. تونس

عموما وهذا يجبر آلية الاصطلاح على التعثر في أحيان كثيرة. وقد عانى الخطاب النظري العربي من هذه المشكلة، نظرا للاستعمال المباشر للمصطلح الغربي أو لترجمته بشكل لا يخضع إلى نواميس ترجمة المصطلح ووضعه الذي يقوم على أربعة عناصر أساسية:الاشتقاق ـ المجاز ـ التعريب ـ والنحت (4) رغم المجهودات التي بذلت في سياق تنسيق تعريب المصطلحات ومن ذلك سعي المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم في سلسلة المعاجم الموحّدة حيث خصّت الفنون التشكيليّة بمعجم إنجليزي ـ فرنسي ـ عربي (5) ولم يذلّل هذا السّعي تفاقم المشكل الترجمي في الخطاب النظري الفني العربي حيث يذكر أسعد عرابي:«إن ترجمة المصطلح التشكيلي الغربي يفرض البحث عن معادل دلاليّ متواز يحمل نوعية الخصائص الحضارية ويبصم بتمايزها. وهكذا فالمصطلحان في هذه الحالة يشبهان مسيرة الخطين المتوازيين، مهما ترافقا لن يتطابقا. وهذا يعني أن المصطلح المقترح يتجاوز محاكمات المجتمع اللغوي بما هو واجب في كفّتي الترجمة بل ويتعدّى مبادئ السيميولوجيا لأنّه بحث حثيث عن جزئيات المعادل الذهني الذي يدفع بالمصطلح إلى التشكّل عبر الاستخدامات النقديّة والجمالية ليتقمص بالتدريج نفس اللبوسات الإيحائية التي تحملها تربة ومناخ المصطلح الغربي» (6). ويدلّ رأي عرابي على حدّة الوعي بمشكلة المصطلح وأثر ذلك في الخطاب النظري العربي، وما يؤكّد عليه هو تجاهل منبت المصطلح الغربي وإسقاطه على الممارسة التشكيليّة العربية دون إدراك الخصوصيات أو الفوارق السيميولوجية، وهو رأي يذهب في اتجاه تأهيل الاصطلاح العربيّ، ويفضي هذا الوضع إلى النظر في تجليات الفوضى الاصطلاحية لتبيّن ما تصيبه من افتراق وانشقاق في الخطاب الفني العربي.

2 ـ نماذج من واقع الاصطلاح :

لقد شمل الاضطراب الاصطلاحي منظّري الفنّ والفنّانين على السواء وداهم مصطلحين أساسيين، عدا مفتاحين لفنّين بارزين، وهما La Peinture ـ Le dessin وبادر أسعد عرابي إلى الاعتراف السّاخر بأنّ إشكاليات الترجمة تبتدئ من إسم المهنة ذاتها، فالتصوير La peinture في العربيّة يختلط بالتصوير الضوئي La photographie لذا فبعض النقّاد يستخدمون تعبير «رسم» ولكن «الرسم» في الفرنسية يقتصر على الفنون الخطية Le dessin (7). وفي الاتجاه ذاته يذهب عبد الحميد شاكر إلى ترجمة مصطلح La peinture بفنّ التصوير الذي يعرّفه بأنّه تنظيم للألوان على سطح مستو ويترجم le dessin بالرّسم الذي يتمّ بالخط فقط مع الاهتمام بعنصر الظّلال أيضا (8)، وتسود هذه الترجمة كتابات وافرة للنقاد في المشرق العربي في مقابل استعمال دارج، عمومي وأكاديمي لنقيض هذه الترجمة في المغرب العربي، إذ يترجم سامي بن عامر، مثلا، مصطلح la peinture بـ «الرسم» ومصطلح le dessin بـ «الرسم الخطي» (9) وتكاد هذه الترجمة تطغى على جلّ كتابات النّقد في تونس، من ذلك أنّ الحبيب بيدة أو علي اللواتي يستعملان هاتين الترجمتين في كتاباتهما.

وقد أدّى هذا التباين في ترجمة المصطلحين إلى خلق تذبذب لدى القارئ عموما ولدى المختصّ أيضا وانتهى في الوقت ذاته باستخدام بعض الباحثين للترجمتين في نصّ واحد أي بالوقوع في تشوّش الاصطلاح. حيث ترجم شاكر لعيبي لفظة la peinture في كتابه «خرافة الخصوصيّة في التشكيل العربي المعاصر» بلفظة «الرسم» لكنّه أردف في مكان آخر من الكتاب ذاته ترجمة مصطلح le dessin بـ «الرسم» أيضا، ويبيّن ذلك مدى تشوّش المصطلح لدى المترجم الواحد.

كما انقاد الفنانون منذ عقود إلى استعمال المصطلحات العربيّة بغية تقريب فنّهم من عامة الناس ومن القراء في أوطانهم، لكن نية التقريب لم تسلم في إجرائها من إثارة الفوضى، وإذا كانت مكوّنات العمل الفنّي من خصائص الفنّان والمنظّر على السّواء فهم أولى بتمحيصها وتدقيقها، فإنّ ما هو شائع بين الناس في الاختلاف، يمسّ الاصطلاح

المتعلّق بمدارس واتجاهات الفن التي شهدت بدورها اختلافا في الترجمات حيث نجد الكثير من الفنانين يترجمون التيار الفني Impressionnisme بـ «التأثرية» بدل الانطباعية ومن بينهم الفنّان المصري رمسيس يونان (10) الذي يترجم cubisme بـ «المكعبية» والدارج استعمال مصطلح التكعيبية (11) كما يترجم سامي بن عامر مصطلح land art بـ «فن الأرض» (12) وهي ترجمة حرفيّة لا تراعي مقوّمات هذا التيار ودواعي تسميته، في حين يحاول أسعد عرابي أن يقترب أكثر من محتوى المصطلح ويترجمه بـ «النّزعة التصحرية» بدعوى صلة هذا التيار بالأعمال الفنية التي أنجزت في صحراء نيفادا (13) . ولكن إلى أيّ مدى يبقى مصطلح land art أسيرا لنشأته ؟ هل أنّ الأعمال الفنيّة المنجزة في الساحات العامة يجوز أن تنتسب إلى هذا المصطلح أم تنتسب إلى مصطلحات أخرى مثل Art Environnemental.

إنّ فوضى المصطلح تعكس أيضا تداخل النزعات الفنيّة الغربية وبقاء الفنان والناقد العربي في طور الهشاشة واللهاث، حيث تتسارع حركة الفن المعاصر، وتتداخل نزعات الفن الراهن Art Actuel دون أن يستطيعا هضم هذه التجارب ودراستها للوقوف على خصوصيتها قبل السعي الى ترجمتها.

لذلك فإنّ الاختلاف حول ترجمة مصطلحات التيارات والمدارس والاتجاهات الفنية مستفحل أكثر في مصطلحات النزعات الفنيّة المعاصرة من ذلك أن مصطلح Ready made يترجمه سامي بن عامر بـ «الرادي مايد» أي يحافظ على حرفيته فينسخه ويعرفه بأنّه «مجسمات مصنّعة يغير وجهتها مرسال دي شامب يمضيها فيعطيها صفة العمل الفني كالمبولة وعجلة الدرّاجة»(14). ونلاحظ أن التّعريف في حدّ ذاته غير دقيق، فالقول بتغيير وجهة الشيء المصنّع لا يفيد الإنجاز الفني الذي قام به دوشمب وهو فعل تحويل هذا الشيء وفق تصوّر ذهنيّ وبحثيّ بعيد عن الاعتباطية وإن كان في ذلك إخراج «الشيء المصنع» من سياق الاستخدام الوظيفي إلى السياق الفني أي أن فعل الفنان لا يقتصر على الإمضاء كما أكد بن عامر. ويضطرب هذا المصطلح بدوره لدى سمير غريب فهو يترجمه بـ« الأعمال سابقة التجهيز» ويشدّد على ترجمته بقوله: «هنا أقول سابقة التّجهيز وليست أعمالا جاهزة كما يترجم المصطلح باللغة العربية ذلك لأنّ الفنان يستخدم أشياء جاهزة، ويعيد استخدامها في إطار جديد. أمّا إذا قلنا عن عمل الفنان إنّه «جاهز» فهذا ينفي الصياغة الجديدة التي وضعها الفنان للأشياء الجاهزة التي يستخدمها» (15).

والنّاظر لكلا التوجّهين يلاحظ نوعا من الاتفاق الضمني على أن ready made ينطلق من أشياء مصنّعة، وهو التعريف المركزيّ الذي ذهب إليه أندريه بروتون سنة 1934 وخبره مارسيل دوشمب نفسه منذ سنة 1915، لكن الفهم النسبيّ لدلالة المصطلح لم يدفع إلى نوع من الاتفاق الترجمي. وقد انتهى المعجم الموحّد إلى ترجمته بـ «أشياء جاهزة» وعرّفه بأنّه اتّجاه فنّي يعتمد على تجميع الأشياء الجاهزة وتوظيفها فنيا (16). لكن هذه الترجمة المهملة أكّدت مشكلة أعمق وهي مشكلة متجدّدة تتلخّص في نزوع عدد كبير من المختصّين في مجال الفنون التشكيلية إلى الانفراد بالاصطلاح دون التأكيد على طابع الاجتهاد فحسب.

يذكر قاسم محمد المومني «ليس كل اضطراب في دلالة المصطلح بناجم عن الترجمة. إنّ مثل هذا الاضطراب يمكن أن يكون محصلّة لعدم وضوح دلالة المصطلح في لغته الأصلية فيداخل الغموض والاضطراب ـ جراء ذلك ـ المصطلح في اللغة المنقول إليها» (17) . ولا يتوقّف الاضطراب عند حدود قصور الفهم بل تنقلب أحيانا وفرة المصطلحات للدّلالة على مفهوم واحد إلى اضطراب أقسى إلى ما يثيره في المتخاطبين والكتاب على السواء من معضلات في التواصل، فمصطلح Composition يترجمه سمير غريب بـ«البناء العضويّ العامّ للعمل الفنّيّ » (18) يترجمه شاكر لعيبي بـ «تأليف» (19) ويجمع كريم رشيد بين مصطلحي «تكوين» و«تصميم» اهتداء بعبد الفتاح رياض في قوله بأنّ« التعبيرين مترادفان

فالتكوين هو تصميم لجميع العناصر التي يتكوّن منها الشكل»(20) ويستخدم آخرون «التركيبة» مما يبرهن على تعدّد الترجمات للفظة الواحدة، وكان من الأجدى الاتفاق حول ترجمة واحدة سيما وأنّ كل الترجمات الآنفة الذكر تكشف اتّفاقا جوهريًا حول دلالة المصطلح.

من خلال هذه النّماذج نتبيّن حدّة الاضطراب، وهو ما يدعو إلى التساؤل عن أفق توحيد المصطلح الفنّي وضرورته. فإزاء تنامي الاضطراب الاصطلاحيّ تضيق فتحات التواصل في الخطاب النظريّ للفنون التشكيليّة، وتصبح الأجيال المتلاحقة من خرّيجي الجامعات في هذا الاختصاص مطبوعة بهذه اللخبطة الاصطلاحيّة ولعل ما يعمّق حدّة هذا الوضع فتور التوحيد.

3ـ الأفق المهزوز لتوحيد المصطلح :

إذا كنا نقرّ بأهمية التّوحيد الاصطلاحيّ في هذه الظرفية التاريخيّة فإنّ دعوة مثل هذه ـ وهي ليست جديدة، فهي امتداد لدعوات باحثين في قطاع علم المصطلح منذ عقود ـ ما زالت تواجه مآزق كثيرة، ترد إلى هذه العوامل :

1/3 ـ إهمال العديد من الباحثين والمنشغلين بتدريس المصطلحات لمجهودات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي أصدر مكتب تنسيق التعريب التابع لها معجما موحّدا لمصطلحات الفنون التشكيليّة (انجليزي ـ فرنسي ـ عربي) منذ سنة 1999 وقد شارك في إنجاز مشروع المعجم مختصون في المجال من الدّول العربيّة، وأغرب ما يواجهه هذا المعجم أنّ بعضا من منجزيه لا يستخدمون الترجمات الواردة فيه بل يساهمون في استشراء وضع الاضطراب، كما أنّ غالبية ساحقة من مدرّسي الفنون التشكيليّة ليس لهم علم بوجوده إضافة إلى افتقار مكتبات المؤسّسات الجامعيّة المختصة لأي نسخة منه.

2/3 ـ إزاء الدّعوة إلى التوحيد نجد فريقا من الباحثين يقرّ بمنطقيّة الفوضى الاصطلاحية، إذ يعتبر عبد الله الطيّب أنّ البحث عن توحيد اصطلاحيّ هو ضرب من العبث لأن «الله وحده هو القادر على إيقاع الائتلاف بين الناس» ويلقي باللوم على دعاة التّوحيد بقوله: «ومن عجائب زماننا هذا أنّ اللجان الموكلة بالتعريب تسعى إلى توحيد المصطلحات الحديثة وغيرها في جميع البلاد العربية والله سبحانه وتعالى يقول:« ولو شاء ربك لجعل النّاس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم »(21). وينخرط هذا الموقف في مدار إحباط العزائم من جهة والتخفيف عن أصحابها من جهة ثانية حيث يدعو أعداء توحيد المصطلح إلى قبول وضع الفوضى الاصطلاحيّة ولا يميّزون بينها وبين مقولة الاختلاف، ويتعارض هذا الموقف مع شرط رئيسيّ في قيام المصطلح وهو التواضع والإجماع أيضا.

ولئن صدر هذا الموقف من هاجس التقليل من شأن فظاعة الوضع الاصطلاحيّ عامة فإنّه يتصادى نسبيا مع مواقف أخرى تخفف حدّة التخوف من هذا الوضع بدعوى أنّ البحث عن المصطلح الجديد ليس شأنا خاصا بالعربيّة وحدها، بل هو شأن اللغات جميعا، ذلك أنّ كل لغة في العالم مدعوّة للتعبير عن المعاني المستجدّة والدّلالة على المستحدث في كل علم وفن»(22). ويرى الحمزاوي: «أنّ اضطراب المصطلحات وغموضها وتكاثرها ليس خاصية من خصائص العربية. فهي قضيّة موضوعة في كل اللغات وذلك حسب نصيب كل لغة من تراثها ومن العلم الحديث باعتبار أنّه توجد لغة تعطي ولغة تأخذ فالعربية اليوم تأخذ ولا تعطي كما الفرنسية تأخذ الكثير من الانكليزية والروسية مثلا » (23). ويكشف الرأيان وضعا علميا موضوعيا كثيرا ما لهج به أنصار الاضطراب الإصطلاحيّ وتشيّع له بعض الباحثين كلّما أشكل المصطلح واستعصى عن الترجمة.

3/3 ـ إذا كانت صلة العرب أمتن بالعلوم فإنّها أقلّ مكانة بالفنون ونعني تلك التي استجدّت في حياتنا المعاصرة ودخلت حضارتنا دون أن يكون لها مثيل تامّ

كالفنون التشكيليّة والسينما والمسرح، لذلك فإنّ الفوضى الاصطلاحيّة التي تعيشها هذه القطاعات المعرفية والفنية أعمق من غيرها في العلوم الانسانية أو التقنيّة، وهو ما أدّى إلى الانشغال بدراسة خصائص هذه الفنون وتجلياتها في الغرب استنادا إلى مراجعها الأصليّة دون عناء ترجمتها، لهذا انهمك المختصّون على قراءة المدوّنات النصيّة في لغتها الأصليّة وقد أثّر ذلك على طبيعة تكوين المختصّين الذين يدرس أغلبهم علم المصطلحات التشكيليّة باللغة الفرنسيّة وتسبب في إفقار الخطاب النظري الفني العربي، وقد أدّت هذه الوضعيّة إلى نفور المختصين والقراء على السواء من مطالعات الكتب العربيّة الخاصة بهذه الفنون لما تتخبط فيه من فوضى اصطلاحيّة قد تضرّ بالمصطلح الأصلي فتنحرف عن محتواه وتجعله مستهجنا خارجا عن دائرة الاستعمال.

إزاء هذه الوضعيّة بات من الحيويّ التّفكير في إنجاز معجم للمصطلحات الفنيّة العربيّة يراعي نواقص المعاجم الموجودة ويتدارك النّقص الفظيع الذي يعيشه الخطاب التنظيري العربي الخاص بقطاع الفنون التشكيليّة.



الهوامـــــش والإحـــــالات

1 ـ عبد السلام المسدّي:«تأسيس القضيهة الاصطلاحية»، بيت الحكمة قرطاج 1989 ص 7..
2 ـ ورد الشاهد في مجلة «عين»، إشراف عادل السيوي ـ ص 28.
3 ـ أسعد عرابي:«النقد الفني بين الشرعيّة والإدانة»، الوحدة، عدد 70/71 سنة 1990 ص 67.
4 ـ محمد رشاد الحمزاوي:«المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها»، دار الغرب الإسلامي، ط1، السنة 1986 ص.:40–41
5 ـ المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، سلسلة المعاجم الموحدة رقم 24: المعجم الموحّد لمصطلحات الفنون التشكيليّة ـ مطبعة دار النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء 1999.
6 ـ أسعد عرابي:«وجوه الحداثة في اللوحة العربية»، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 1999 ص 23.
7 ـ مرجع سابق، ص 67.
8 ـ عبد الحميد شاكر:«العملية الإبداعية في فن التصوير» عالم المعرفة، العدد 109.
9 ـ سامي بن عامر:«الفنون الجميلة، الاصطلاح وموقعه من الفكر الحديث»، مركز النشر الجامعي 2001، ص 104.
10 ـ رمسيس يونان:«الكتاب الفني»، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ط 1978.
11 ـ المرجع نفسه،
12 ـ مرجع سابق ص 104.

ظهر هذا التيار في الولايات المتحدة الأمريكيّة وبريطانيا في سنوات 1960 ـ 1970. وهو اتجاه معاد للخاصية التجارية للفنّ، ويباشر أصحابه أعمالهم في الطبيعة فيواجهون عناصرها من خلال طرائق مختلفة، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه أليس أيكوك وروبرت سميثسون.

13 ـ أسعد عرابي:«الحداثة أو الوجه الآخر من الارتباك التشكيلي العربي»، عالم الفكر، العدد الثاني 1997، ص 63.
14 ـ مرجع سابق، ص 83
15 ـ مرجع سابق، ص 45.
16 المعجم الموحد، ص 62.
17 ـ قاسم المومني:«ماهو المصطلح ؟ المصطلح النقدي في النقد المقارن»، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 102 ـ 103 ص 85.
18 ـ سمير غريب:«الفن الحديث والحداثة في الفن:مصطلحان في أزمة»، مجلة عالم الفكر، العدد الثاني، أكتوبر / ديسمبر 1997، ص 40.
19 ـ شاكر لعيبي:«خرافة الخصوصية في التشكيل العربي المعاصر»، الشارقة، دائرة الثقافة والإعلام، السنة 2003، ص 43.
20 ـ أورده كريم رشيد في:«تحليل المكان بوصفه تكوينا فنيا» مجلة الفنون، عدد 24 ص 54.
21 ـ عبد الله الطيب:«في المصطلح النقدي والبلاغي»، بحث منشور بمجلة كلية الاداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد خاص السنة 1988، ص 242.
22 ـ شحادة الخوري:«الترجمة قديما وحديثا»، دار المعارف سوسة، تونس 1988، ص 148.
23 ـ محمد رشاد الحمزاوي، مرجع سابق ص 47.



المصطلـــــح الطـــبّي

شحــادة الخــوري

إنّ المصطلح الطبي يمثّل شريحة واسعة من المصطلحات العلميّة ويخضع فيما يتعلّق بوضعه وصوغه إلى المنطلقات والطرائق والمبادئ التي تحكم وضع المصطلحات العلميّة ويماثل في أمور تنسيقه وتوحيده ونشر واستخدام تلك المصطلحات، وهو يعدّ مثلها حاجة ثقافيّة ولغويّة لاغنى عنها في مجال ترجمة العلوم العربية والتأليف بها والتدريس باللغة العربيّة.

ولذا فإنّني سأتحدث باقتضاب وإيجاز عن المصطلح العلمي بعامة ثمّ المصطلح الطبي بخاصة منتقلا من العامّ إلى الخاصّ بدون إغفال خصوصيّة المصطلح الطبي.

أوّلا - المصطلـــــح العلـــميّ:

ما هو المصطلح لغة «ومعنى» ؟ جاء في مستدرك التاج: «الإصطلاح هو اتّفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص» وجاء في المعجم الوسيط: «المصطلح هو اتّفاق طائفة على شيء مخصوص ولكل علم اصطلاحاته».

والمقصود بالاتفاق أن يتفق العلماء والمشتغلون في العلوم على تحميل كلمة ما معنى «لم تكن تحمله، فتصبح دالة على مدلول جديد قد يغاير معناها اللغوي أي دلالتها اللغوية في الأصل، فتدعى آنئذ مصطلحات أو اصطلاحا لاتّفاق أهل ذلك العلم على قبولها واستخدامها».

هذا ولكل ميدان من ميادين المعرفة مصطلحاته: للدين والفلسفة والآداب والفنون بكل تفرعاتها وكذلك للعلوم كلها. ويقصد بالعلوم جميع ما يقع تحت هذا الإسم: العلوم الأساسيّة (البحتة) والعلوم التطبيقيّة والعلوم الاجتماعيّة والعلوم الإنسانية والعلوم الجديدة المستحدثة، والمصطلح العلمي هو ما اتصل بعلم من هذه العلوم.

لقد حفل القرن العشرون الذي شهدنا نهايته منذ قريب بتطورّ مذهل في العالم، حتّى سمي «عصر التفجّر العلمي» أو «عصر الثورة العلميّة والتقنيّة».

إنّ العلوم المختلفة قد شهدت فيه حركة توسّع وتعمق وتفرّع تثير الدهشة. وليس من يوم يمرّ في القرن الجديد، الحادي والعشرين، الذي نعيش فيه، إلاّ ويطرق سمعنا خبر عن كشف أو ابتكار في ميدان المعرفة العلمية، وسرعان ما ينتقل ذلك من حيّز الفكر والنظر إلى حيّز الواقع والتّطبيق.

ويرافق هذه الحركة العلميّة النظريّة والتطبيقيّة، حركة لغويّة ناشطة، موازية لها، تتمثّل بسيل من المصطلحات العلمية الدالة على المسميات الجديدة، إذ أن كل مولود جديد يحتاج لفظا يدلّ عليه، ومن الطبيعي أن يسمّي المولود الجديدَ والدُه، من أهل الكشوف والابتكار اعتمادا على لغته أو اللغة التي يستخدمها في نشاطه العلمي، وبعده يكون على الآخرين، كل الآخرين، أن يتدبّروا أمرهم فبحثوا عن مقابلات لهذه التسميات في لغاتهم أو يقترضوا من اللغة التي وضعت بها.

أ. الطرائـــــق:

لقد أتى العلامة مصطفى الشهابي على ذكر الطرائق حيث قال: «إنّ اللغة قد نمت بالاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب، وهي الوسائل التي رجع إليها العلماء والنقلة عندما وضعوا آلاف المصطلحات في صدر الإسلام سواء في العلوم الفقهيّة أو اللغويّة أو علوم فارس واليونان والهند وغيرهم من الأمم» ثمّ يضيف «وهذه الوسائل هي التي نتّخذها في زمننا هذا

* رئيس اتحاد المترجمين العرب بدمشق.

لنقل العلوم الحديثة إلى لغتنا الضادية» ولا يسع المقام لتعريف هذه الطرائق الأربع: الاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب، وضرب الأمثلة عليها وكلكم بها عليم،

ب ـ المبـادئ:

وأمّا المبادئ التي يجب أن تراعى في وضع المصطلح، والتي تدعى منهجيّة وضع المصطلح فهي مبادئ يعتمد عليها في الوصول إلى مصطلحات واضحة الدلالة مأنوسة الجرس، قابلة للإندماج باللغة العربية غير نافرة ولا منفّرة.

وقد بذل عدد من الباحثين جهودا طيّبة لوضع منهجية لوضع المصطلح، ووضعت مجامع اللغة العربية مشروعات وأصدرت قرارات وتوصيات بشأن المبادئ التي ينبغي مراعاتها في هذا العمل.

بيد أنني أخصّ بالذكر المنهجية التي أقرتها «ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة» التي انعقدت بالرباط في المملكة المغربيّة من 18 إلى20 /1981/02، بدعوة من مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم. وقد صيغت هذه المنهجية في ثماني عشرة مادة أشير إلى أهمّها:

1 ـ ضرورة وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة بين مدلوله اللغوي ومدلوله الاصطلاحي، ولا يشترط في المصطلح أن يستوعب كل معناه العلمي.

2 ـ وضع مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد ذي المضمون الواحد في الحقل الواحد.

3 ـ استقراء وإحياء التراث العربي وخاصة ما استعمل منه أو ما استقرّ منه من مصطلحات علميّة عربيّة صالحة للاستعمال الحديث وما ورد فيه من ألفاظ معربة.

4 ـ تفضيل الكلمة العربية الفصيحة المتواترة على الكلمات المعربة.

5 ـ تفضيل الكلمة التي تسمح بالاشتقاق على الكلمة التي لا تسمح به.

وقد أغنيت هذه المنهجية في اجتماعات عقدت في الخرطوم وعمان وفي مؤتمر مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1999.

وأوكل إلى اتّحاد مجامع اللغة العربية وضع كتاب مرشد لواضعي المصطلحات العلمية في ضوء ما قرّر في تلك الاجتماعات.

ج ـ المنطلـــقات:

ولا يغيبنّ عن البال أنّ المنطلقات في الجهد اللغوي والعمل المصطلحيّ هو أن اللغة العربيّة هي لغة علم مثلما هي لغة دين وفقه وأدب وشعر. وإذا خيّل لبعض الناس غير ذلك فذلك ناجم عن خطأ أو جهل.

إن العربيّة لغة تتميّز بخصائص فريدة تتجلّى في فصاحة ألفاظها وعذوبة كلماتها ورقة عباراتها وجزالة تراكيبها وتنوّع أساليبها. وقبل كل شيء في قدرتها على التوالد والنماء لتعبّر عن كل ما يصدر عن عقل الإنسان وقلبه وخياله وكل ما استحدثه من أداة وآلة وكل ماحوت الطبيعة من كائنات حيّة وجامدة.

وحسب العربيّة «غنى وشرفا أنّها لغة القرآن الكريم، وأنها اتّسعت لمعانيه السامية ومقاصده العالية، فكانت أفصح اللغات لسانا وأبلغها بيانا وأبقاها على الدّهر زمنا».

ثانيا: العمـل المصطلـحي:

أ ـ في عصر النهضة الأولى:

لقد عرضت للمترجمين إذّ ذاك مشكلة المصطلح العلمي، ولم تكن مواجهتها بالأمر اليسير، فاضطروا في البداية إلى استخدام الكلمات اليونانيّة بألفاظها فقالوا الأريتماطيقي والفيزيا وقاطيغوراس وسواها.

وعندما تقدّموا في المعرفة والترجمة أوجدوا مقابلات عربيّة لها فقالوا: الحساب والطبيعة والمقولات...

وقد استدعت ترجمة علوم الأقدمين إلى العربيّة إيجاد مصطلحات علميّة كثيرة للدلالة على المعاني والأعيان. يقول العلامة مصطفى الشهابي: «إنّ المصطلحات العلميّة التي دمجت في لساننا في تلك الأيام هي آلاف مؤلفة من الألفاظ المعربة». ويضيف: «لقد جعلت تلك المصطلحات من العربية آنذاك لغة علميّة بل هي ما تزال صالحة للتعبير عن بعض موضوعات العلوم الحديثة».

وواقع الحال أنّه لم يكن في ذلك العهد مجامع لغويّة

أو لجان جامعيّة أو مكاتب للتعريب أو دوائر موسوعات ولذا نهض بهذا العمل الجليل أفراد دأبوا على العمل والاجتهاد.

لقد استطاعت اللغة العربيّة، في القرن الثاني للهجرة وما تلاه استيعاب علوم الأقدمين الفرس والهند واليونان من طب وهندسة ورياضيات وفلك وكيمياء وغيرها من العلوم بكل ما فيها من مصطلحات علميّة لم يكن للعرب دراية بها، فاتسعت لها العربية، لفظا ومعنى، حتى انعقدت لها الريادة والأسبقية عدة قرون.

ب ـ في عصر النهضة الحديثة :

وفي العصر الحديث، بداية من مطلع القرن التّاسع عشر، بُذل سعي حثيث لإيجاد المصطلحات العلميّة التي تطلّبها تدريس العلوم الحديثة في التعليم العام في أكثر الأقطار العربيّة وفي بعض مؤسّسات التعليم العالي بمصر (1826 ـ1887) وبيروت (1868 ـ 1886) ودمشق بداية من عام 1919 حتى اليوم، مع ما اقتضى ذلك التدريس من كتب علميّة ألفت بالعربيّة وكتب أخرى ترجمت إليها من اللغات الأخرى.

وفي مرحلة تالية أخذ العمل منحى جماعيا فأسهمت فيه مجامع اللغة العربية والجامعات والمجالس العلميّة والمنظمات العربيّة المتخصّصة والاتحادات المهنيّة العربيّة بل وبعض المؤسّسات العلمية الأجنبيّة والعلماء المتمكنون من العربيّة في مختلف البلدان العربيّة.

وقد قام باحثان بعمل إحصائي للمجموعات المصطلحية: «معاجم ـ قوائم ـ مسارد»، التي صدرت خلال مائة عام 1883 ـ 1983 فبلغ عددها 531 مجموعة. وليس من شك في أنّ هذه المجموعات قد نيّفت في نهاية القرن المنصرم على ستّمائة مجموعة، مما يدل على اهتمام كبير وجهد متصل.

ولكن لا يظننّ ظانّ أن كل شيء كان في غاية الإتقان والكمال، فقد شاب العمل المصطلحي في هذا لعصر، على الرغم من حسناته الكثيرة شوائب عدّة نذكر منها :

ـ تشتت الجهد: لقد نهض بهذا العمل أفراد أو هيئات لا علم لأحد بالآخر في كثير من الأحيان.

ـ التخلف الزمني: ليس من جهة عربية ترصد ما يدخل ساحة العلم في العالم من مصطلحات في كل يوم ولذا نتأخر غالبا في وضع المصطلح.

ـ الاختلاف في المنهج: لم يتقيّد واضعو المصطلحات والمعجمات المتخصصة بمنهج محدّد، حتّى الآن.

إنّ هذا كلّه لا ينقص من قدر الجهد المبذول، ويمكن تلافيه مستقبلا باعتماد منهجية واضحة ومحدّدة وتشجيع المؤسّسات العلميّة على تولّي هذه المسؤولية، واستخدام التقنيات الحديثة التي توفر الكثير من الجهد والوقت.

إنّ المهمّة ليست يسيرة إذ يدخل ساحة العلم كمّ هائل من المصطلحات الجديدة «7200 سنويا» فهل في وسعنا أن نتابع هذا الدّفق المستمرّ دون أن نجمع الجهود ونزيل الخطأ ونمنهج عملنا ونستفيد من تقنيات العصر ؟

ثالثًا ـ المصطلح الطبّي :

وبعد، فما هي خصوصيات الطب والمصطلح الطبّي ؟ نذكر بعضها بإيجاز :

1 ـ يُعدُّ الطبّ بتفرعاته العديدة من أوسع العلوم وأوفرها مصطلحات.

2 ـ يتصل الطبّ بصحة الإنسان ونشاطه البدنيّ والعقلي، ولذا كان من أقدم العلوم زمنا، وأدعى إلى اهتمام الناس به في كل زمان ومكان.

3 ـ أولى العلماء العرب للطّبّ جلّ عنايتهم ترجمة وابتكارا وتأليفا بالعربيّة، قديما وحديثا، فكان أن تركوا لنا وللبشريّة تراثا نقيّا.

4ـ حرص هؤلاء على تعريب الطبّ أي تدريسه بالعربية فوضعوا المعجمات الطبيّة والمؤلّفات والترجمات، وبلغ عدد المعاجم الطبيّة التي وضعت بين 1882 و1982 ثلاثة وخمسون معجما.

ثمّ جاء المعجم الطبّي الموحّد مشتملا على خمسة وعشرين ألف مصطلح ثمّ وسّع ليبلغ 150 ألف مصطلح بدعم من اتحاد الأطبّاء العرب والمكتب الإقليمي لمنظمة الصحّة العالميّة لشرق المتوسط.

5 ـ ترجمت في سورية مؤلفات ومراجع طبيّة عديدة أهمها موسوعة هاريسون للطب الباطني، وألّف الكثير، وثمّة في الوطن العربي مجلاّت عديدة متخصصة بالطب تصدرها بالعربيّة الوزارات

والاتحادات والنقابات والجامعات.

6 ـ أحدث لتعريب الطبّ مركز خاص بالكويت منذ عام 1985 بقرار من مجلس وزراء الصحّة العرب يدعى مركز تعريب الطب، وقد أصدر الكتب المترجمة والمعاجم العديدة في العلوم الطبيّة ومجلّة متخصّصة «تعريب الطب»..

7 ـ تبذل الجهود الحثيثة لتعريب الطب الذي درس بالعربيّة في مصر إحدى وستين عاما (1862 ـ 1887) وفي الجامعة الأمريكية في بيروت ثمانية عشر عاما (1866 ـ 1884) وفي سورية بدأ من عام 1919 حتّى الآن. وأمّا اليوم فالعلوم الطبيّة تدرس باللغة الفرنسيّة في المغرب وتونس والجزائر والجامعة اليسوعية ببيروت وبالإيطاليّة في الصومال وبالإنكليزيّة بالبلدان الباقية. ويقتصر التعريب على سورية كليّاً والسودان وصنعاء ومصر جزئيّاً.

ومن شأن التعريب أنّه يحث على الترجمة العلميّة لأنّه بحاجة إلى الكتب المترجمة والمؤلفة في آن واحد.

رابعاً: الترجمـــة العلميّـــة:

إنّ الترجمة بعامة وترجمة العلوم بخاصّة والطبّ على الأخصّ، تغني الثقافة العربيّة العلميّة وتصلها بمصادر المعرفة العلميّة في هذا العصر. وتدعم تعريب التدريس العلمي وتنقل إلينا التقنيات والثقافات الحديثة وتضعنا على درب النهضة الحقيقيّة. وشرط الترجمة العلميّة هو العبارة الواضحة والمصطلح الدقيق والأمانة في النقل.

فماذا نفعل لترجمة العلوم ؟ إنّه جهد العقل وإليكم الرقم: تنقل أسبانيا في مختلف المعارف سنوياً (250) كتابا لكل مليون من سكانها، وتنقل إسرائيل الدّولة المصنوعة (100) كتاب لكل مليون، وينقل العرب 1.2 كتابا لكل مليون فما أشدّ تقصيرنا.

كانت الترجمة زمن المأمون سياسة دولة مركزيّة قويّة، فنشطت وأثمرت، وفي هذا الزمن تتوزّع أمتنا العربيّة في اثنتين وعشرين دولة.

وفي مقدوري أن أقول إنّ الترجمة، وأقصد الترجمة بكل تفرّعاتها، والترجمة العلميّة في مقدّمتها، هي سبيلنا إلى دخولنا عالم المعرفة، حضورا ومشاركة وإبداعا.

لا ثقافة عربيّة معاصرة من دون ترجمة وهي جسرنا من ركن التلقي والتبعيّة إلى موقع المواكبة والمشاركة والإبداع. ولا سيما في مرحلة العولمة الحالية التي لا ترحم ضعيفا ولا تعرف إلاّ القوّة.

ونختم بروح من التفاؤل الحذر والرجاء الخجول:

إنّ جهدا عربياً جماعياً منظما حكومياً وأهليا، لقادر على النّهوض بترجمة العلوم في ترابط محكم مع التأليف والتعريب ووضع المصطلح وتوحيده ونشره واستخدامه، ليسهم ذلك كلّه في إعطاء ثقافتنا العربيّة ووضعنا على طريق الحداثة والتطوّر والتنمية البشريّة والمسيرة الحضاريّة في هذا العصر.

الإحالات والهوامش

1 ـ كتاب المصطلحات العلميّة في اللغة العربيّة في القديم والحديث للأمير مصطفى الشهابي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، طبعة ثانية منقحة ومزيدة 1374 هـ ـ1965 م.
2 ـ كتاب «اللغة العربيّة والصحوة العلميّة الحديثة» تأليف الدكتور كارم السيد غنيم عضو كليّة العلوم بجامعة الأزهر ـ مطبوعات مكتبة ابن سينا القارة 1989 م.
3 ـ كتاب «التّعريب والتنمية اللغويّة» تأليف الدكتور ممدوح خسارة ـ مطبوعات دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق 1994 م.
4 ـ كتاب «دراسات الترجمة والمصطلح والتعريب» تأليف شحادة الخوري ـ إصدار دار طلاس للدّراسات والترجمة والنشر، ط.2 1992 م.
5 ـ كتاب «الترجمـــة قديمــا وحديثا» تأليف شحادة الخوري ـ إصدار دار المعارف بسوسة تونس 1988 م.
6 ـ مراجع أخرى متعدّدة من كتب ودراسات حول الموضوع.

التّرجمة في بدايات المسرح التونسي:

بين التّعريب والتّغريب

د. بوبكر خلوج *

لئن كان للمسرح قي الربوع التونسية حضور معروف ومتّفق عليه بين المؤرّخين منذ العصور الأولى للحضارة الإنسانية، كما تشهد على ذلك مسارح دقّة والجم وقرطاج، لما عرفته مجتمعات هذه العصور من مظاهر للحياة الفنّية وطقوس الفرجة، فإنّ هذا الحضور في شكله المتطوّر بعد عصر الأنوار وتأثير المسرح الإليزابيتي والإيطالي قد كان بدوره بارزا في القرن التاسع عشر، كما تشهد على ذلك عدّة قاعات ومسارح خاصة في العاصمة، والتي كانت تتردّد عليها الجاليات الأجنبية وخاصة منها الفرنسية والإيطالية والمالطية، رغم أنّ هذه القاعات والمسارح كانت تقدّم مسرحيات بلغة الجالية المذكورة، ندر للتونسيين حضورها، وإلاّ بعدد ضعيف ومن بين المقرّبين إلى سلطة الحماية ومن بين النخبة العارفة بلغة موليار ودانتي وسكسبير.

ولذا فإنّ اكتشاف التونسيّ للمسرح والتمثيل كان مع بداية القرن العشرين ومن خلال فرق جاءت من الشرق، من مصر ولبنان والشام خاصة، لتقدّم مسرحيات باللغة الفصحى وفي ترجمات سرعان ما بدت للتّونسيين غير ملائمة للذّوق والهاجس الوطنيّين، كما بدت دون مفعول على الجماهير وعامة الناس(1).

هذا ما يمكن اعتباره تبريرا لبروز تيار تونسيّ للترجمة والاقتباس منذ العقد الثاني من القرن المنقضي وفي إطار تونسة المسرح وتعريب أعماله، سواء بالنقل إلى العربية الفصحى أو إلى اللهجة التونسية المحلّية أو بالإقتباس وإنتاج مسرحيات مأخوذة عن نصوص أوروبية معروفة وتقديمها في نسخ "متونسة"، أي بأسلوب موجّه إلى شرائح جديدة في المجتمع التونسي وهي الشرائح المنادية بتعريب الثقافة عامة والمسرح خاصة، بعدّة تبريرات منها تسخير المسرح إلى الدعاية وحشد الجماهير لمساندة النضال الوطني ومقاومة الاحتلال.

لكنّ هذا التيار وهذه المساعي لاقت عديد الإعاقات والصعوبات منها ضعف التقاليد وقلّة الممثلين. خاصة من العنصر النسائيّ وكذلك وبالأخصّ ندرة النصوص والمؤلفين الوطنيين أفضت إلى سقوط عديد الفرق المسرحية في إنتاج مسرحيات مترجمة عن نصوص معروفة من الرصيد المسرحي العالمي لكنها بعيدة كل البعد عن اهتمام الشرائح العريضة، ممّا أفضى إلى أشكال من التغريب والقطيعة، وأمكن الحديث عن مسرح من غير جمهور وجمهور من غير مسرح : وهي وضعية لم يتم تجاوزها إلا ببروز جيل من الرواد والمؤلفين التونسيين الذين قطعوا مع مواضيع وأساليب المترجمين، مما يجعلنا نستنتج أن المسرح التونسي الحديث نشأ إثر محاولات الترجمة وبسببها.

لن ندخل في تعريفات الترجمة ولا المسرح، لا لغة ولا اصطلاحا، نظرا لأن المصطلحين يغطيان حقلين واضحين حتى عند العامة فما بالك عند المختصّين.

"المسرح فنّ جديد في الثقافة العربية، وكذلك كانت الترجمة أسبق فيه من التأليف، واعتمد الكتّاب في أوّل الأمر على النصوص المسرحية الأوروبية فنقلوها إلى اللغة العربية، ثم اقتبسوا منها الأشكال وبعض المضامين ولاءموا بينها وبين بيئات بلدانهم..." (2).

* أستاذ العلوم الثقافيّة بالجامعة التونسيّة.

هذه المقولة تحوصل إلى حدّ كبير مسيرة الترجمة في المسرح التونسي. فعندما دخل المسرح البلاد التونسية في مطلع القرن المنقضي وجد دعما وتشجيعا كبيرين من السلطتين السياسية ممثلة في الاستعمار حيث أنّ الجرائد الفرنسية نادت وتحمست للمسرح والباي أسبغ النياشين والتوسيمات على جل مديري الفرق المسرحية التي زارت تونس وقدّمت عروضا فيها. ومن السلطة الفكرية أو الأنتلجنسيا التونسية ونخبتها الفكرية (الثعالبي، قلاتي، علي الخزامي، الشاذلي القسطلي...). حيث اتّفقت الفئتان على إيجاد مسرح عربي في تونس ولكن كلّ من وجهة نظره: الاستعمار برغبته في نشر ثقافته وبث قيمها في المجتمع التونسي لزعزعة تقاليده المتحجّرة وثقافته الرجعية وعقليته القروسطية. هذا ما عبرت عنه جريدة "لا ديباش" : عندما كتبت. "منذ حوالي السنة ونحن نطالب على صفحات جريدتنا بخلق مسرح عربي في تونس، طالبنا العديد من الجهات كي تنتدب فرقة مسرحية مصرية لتقديم عدّة عروض على ركح المسرح البلدي باللغة العربية. إنّ الفرق العربية زيادة عن مجموع نصوصها الوطنية التي ذكرنا بعضا منها تقدّم في نفس الوقت أعمالا مترجمة من آدابنا التي تروج لثقافتنا وحضارتنا وقيمنا الجمالية..." (3).

أمّا النخبة المثقّفة فقد رأت فيه، خاصة في البداية ومع جيل أحمد إبن أبي الضياف، وسيلة للرقيّ والتحديث وتطوير العقليات، يقول متحدثا عما شاهد من المسرح» "وأعماله حكايات بعض وقائع تقدمت يبرزونها من الفكر لحس المشاهدة، ويختارون لذلك البلغاء والخطباء ممّن لهم معرفة بالأخبار والتاريخ والأشعار... وهي من الصّناعات الشريفة عندهم لأنّ مرجعها تربية الناس وتهذيب أخلاقهم، لما يرون تحسين الحسن وتقبيح القبيح معاينة وذلك أوقع في النفس وفيها الموسيقى وتارة يكون العمل على الغناء والرّقص.." (4).

هذا ما قاله أحمد أبي الضياف الذي رافق المشير أحمد باشا باي في زيارته إلى فرنسا سنة 1846، ثم أضاف ناقلا الحوار الذي دار بينه وبين الباي بعد انتهاء المسرحية التي شاهداها : "ولما انسدل الستار قام الباي لموضع آخر وأشار إليّ فماشيته فقال لي: " أتعلم ما استحسنه هذا السلطان وصفق عليه؟ فقلت له نعم إنّ داغرانج عرّبه لي، فقال : سلطان الفرنسيس على قوة عدّته وكثرة جنوده الحالة في مراعاة الرعايا فكيف بنا أيها الشيخ؟ فقلت له : إنّ القوم سبقونا إلى الحضارة بأحقاب من السنين حتى تخلّقوا بها وصارت من طباعهم، وبيننا وبينهم بون بائن ولله فينا علم غيب نحن صائرون إليه. فقال: "نسأل الله حسن العاقبة..." (5).

كذلك نظر كل من خير الدّين باشا في أقوم المسالك ومحمد السنوسي في الرحلة الحجازية إلى المسرح باعتباره نتاجا حضاريا غربيا وجب على الثقافة العربية أن تأخذ به لما فيه من دعوة الى الرقي والتقدم.

اتفقت نخبة التاسع عشر على الاعتراف بفضائل المسرح وسار على نهجهم اللاحقون أمثال الثعالبي وقلاتي وبورقيبة وبوليمان، والشاذلي القسطلي (النهضة) وغيرهم، ولكن اللاحقين بحكم انخراطهم في حركة التحرر الوطني سرعان ما نظروا إلى المسرح نظرة براغماتية دعائية سياسية دون التركيز على الجانب الجمالي، وبالنتيجة أن وقع التركيز على النصوص.

"إنّ كل الأدباء الذين عايشوا الحياة الفكرية والأدبية بتونس خلال النصف الأوّل من هذا القرن قد أكّدوا لنا أنّ الترجمة في ميدان المسرح كانت أنشط منها في بقية الأجناس الأخرى ونذكر من هؤلاء محمد الحبيب والهادي العبيدي، وجلال الدين النقاش" (6).

لم يدم اعتماد التونسيين طويلا على الرصيد المسرحي المشرقي، إذ أنّ النخبة المثقفة التي بدأت تتذمر من غزو ثقافي مصري : "بعض أعضاء الهيئة المديرة لجمعية الكتّاب التونسيين قد أصيبوا بالذعر

من جرّاء غزو المسرحيات المصرية للفرق التونسية(7). وقد ظهرت نصوص مسرحية مترجمة منذ سنة 1911، إذ قام محمد المشيرقي بنقل سلطان الضلال في هذه السنة الى اللغة العربية Le Prince des ténèbres - تولستوي"(8).

انتشرت الترجمة في الأوساط المسرحية التونسية واعترف بها المثقفون ولكن الدّعوة إلى التأليف بدأت في الظهور حتى "أنّ عددا من الصحف والمجلات دعت إلى التنقيص من الترجمة والاهتمام بالتأليف لما لذلك من صلة مباشرة ببيئتنا وعاداتنا. كما دعت إلى صنف معين من المسرحيات : "فالجهد الذي نفرغه في ترجمة روايات تاريخية نحوله إلى ترجمة الروايات الشعبية الأخلاقية أو التاريخية فيما يخص تاريخنا القومي..."(9).

أولى التجارب في الكتابة المسرحية في العشرينيات كانت مع محمد الجعايبي في مبادرات بدأت محتشمة ومحاولات أولى في صياغة نصوص قصد تجسيدها فوق الخشبة . ثمّ تبعه آخرون (محمد الحبيب وخليفة السطنبولي)وأنتجوا نصوصا "مسرحية" ولكنها في أغلبها كانت عبارة عن لوحات غنائية تاريخية بعيدة كل البعد عن الحس والعمق الدّراميّين. حيث مجّدوا أبطال العرب ونقلوا الفترات المشرقة للتاريخ العربيّ الإسلاميّ ملجأ وهروبا من الحاضر المأزوم والمهزوم إلى الماضي المنتصر. فقد كانت هذه الكتابات الأولى أقرب إلى الرواية أو الحكاية التي تصف الأحداث والشخصيات وتكتب الحوار في شكل يركّز على القوالب والعبارات ذات الشّحنة والصدى لدى القارئ والمتفرج، مستعملة في ذلك الشعارات والمواعظ تاركة في رتبة ثانية عناصر الحبكة والفعل الدراميين اللذين يخدمان الصراع ويحدثان عناصر التشويق لدى المشاهد.

أحسّ المسرحيون أن ما يكتب ليس نصوصا درامية وأنّ الترجمات المصرية والسورية في مجملها ترجمات تنقصها الدقة والأمانة لضعف المترجم إما في اللغة المترجم إليها، هذا إن لم يكن في اللغتين (المترجمون أغلبهم مسيحيون وهم لا يتقنون العربية مثل مارون النقاش وخليل مطران ونجيب الحداد واسكندر فرح... والمسلمون لا يتقنون الفرنسية مثل حافظ إبراهيم، مصطفى لطفي المنفلوطي في "تلماك" مثلا ... أين هذا ممّا يقوله الجاحظ : "... إنّ الترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذهبه ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده، لايقدر أن يوفيها حقوقها ويؤدي الأمانة فيها... فكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها إلا أن يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه..." (10).

هل توفّرت لدى هؤلاء شروط الترجمة كما حللها وحددها الجاحظ عندما ذهب إلى القول في الترجمة والمترجم "ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيها سواء وغاية" (11) ؟.

هل سار المترجمون التونسيون حسب هذه القاعدة؟ هل كانوا على معرفة جيّدة باللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها؟ للإجابة نقول : إنّ الترجمات في مجملها لم تخضع للشروط التي وضعها الجاحظ سواء أكانوا من المشارقة أو من التونسيين.

لا شك أنّ التونسيين في البداية استعانوا بترجمات شرقية، ولكن بعد المعارضة الواضحة لهذه الترجمات والرغبة في تونسة المسرح تكوّنت فرق مسرحية تونسية أخذت على عاتقها ألاّ تقدّم إلاّ مسرحيات كتبها أو ترجمها تونسيون مثل جمعية السعادة التي تأسست سنة 1914 والتي : "لم تقدم إلا النصوص التونسية ترجمة أو تأليفا وكان يرأسها الأستاذ أحمد توفيق المدني المثقف الجزائري المعروف..."(12).

ليس غريبا أن يبحث المسرح التونسي عن الترجمة لإثراء رصيده من النصوص بل وجد أنّها

ضرورة حتميّة اعتقد فيها المسرحيون التونسيون ودعمتها التجربة الإنسانية في الإبداع .الرصيد التونسي من النصوص المسرحية فقير مقارنة بالأمم الغربية التي عرفت المسرح منذ 25 قرنا والثقافات تأخذ من بعضها وتعطي لبعضها : "إذ لا وجود لثقافة نقية تحيا بمعزل عن الثقافات الأخرى، الثقافات لا تحيا ولا تزكو إلا إذا استرفدت الثقافات الأخرى ورفدتها، أما إذا انكفأت على ذاتها واكتفت بإعادة إنتاج ذاتها فإنها ثقافة آيلة الى الموت..." (13).

إذا ليس هناك غرابة أن يأخذ التونسيون من المسرح العالمي عن طريق الترجمة والاقتباس ولكن الإقبال إلى درجة النّهم أوقع المترجمين والمقتبسين والمسرحيين في العديد من المزالق، منها ما لاحظه الجيل الأول في الترجمة مثل محمد العربي الكبادي الذي قال : "كنت أمقت ترجمة المسرحيات أكبر مقت لما أجده فيها من القضاء على الصبغة العربية حتى قرأت ترجمة مسرحية البخيل للكاتب الفرنسي موليار لمترجميها الفاضلين السيد محمود بن عثمان والسيد محمد زروّق فانقلب المقت حباً لما التزماه من المحافظة على أساليب اللغة، بارك الله فيهما..." (14).

التجأ التونسيون لترجمة المسرح لأنّهم لا يملكون رصيدا من هذه التعبيرة الفنية ومع الأيام والتجارب "يبدو أنّ طريقة ترجمة المسرحيات قد تطوّرت وازدادت إحكاما مع تقدّم الزمن فكثرت المترجمات وتنوّعت وكان لذلك التأثير الفعّال في ازدهار حركة المسرح بتونس (15).

كثرت الترجمات وتعدد المترجمون وتراكمت النصوص المترجمة حتى أن الباحث في هذا الباب يعترف أنّ التوصّل إلى معرفة جميع النصوص الأدبية المترجمة بتونس خلال النصف الأول من القرن العشرين أمر تعترض تحقيقه صعوبات جمّة.

من هذه الصعوبات أنّ عددا من هذه النصوص وإن تمّ التمكّن من معرفة عناوينها وأصولها الأجنبية فإنّه من الصعب التمكّن من معرفتها هي نفسها، لأنّها لم تطبع منفردة ولم تنشر في أي جريدة أو مجلة.

وينتمي أغلب هذا الصنف من النصوص إلى الميدان المسرحي. " فكثيرة هي المسرحيات التي نشرت عناوينها الجرائد والمجلات التونسية وتناولتها بالنقد والتحليل... ولم نتمكن من الاطلاع على نصوصها الكاملة رغم ما قمنا به من بحث..." (16).

ومنها ما لاحظه الجيل الثاني من تلاعب في الترجمات والاقتباسات والإعداد بحيث يقع السطو على العمل خاصة في حالتي الاقتباس والإعداد ويحذف إسم المؤلف الأصلي . هذا ما توصلّ إليه الباحث التونسي الأستاذ عمر بن سالم في دراسته للرصيد المسرحي من خلال النصوص المسرحية المكتوبة : "لاحظنا أيضا في هذا الميدان تهاون المتقدمين بالنصوص وعدم احترامهم لقوانين اللجنة (لجنة التوجيه المسرحي) وشروطها، فقد كانوا غالبا ما يرسلون المسرحيات المترجمة أو المقتبسة ممضاة بأسمائهم فقط...(17).

إنّ هذا "السّهو المتعمّد" لم يكن في صالح الأعمال المترجمة ولا المقتبسة إذ عادة ما ترافقه عملية تحريف وتصرّف مفرط إلى حدّ التشويه للعمل الأصلي، إما بغية إبعاد الشبه حتى لا يتهم بالانتحال وإما بسبب جهله اللغتين المترجم منها أو إليها، كما أنّ هذا "السـهو" يمكن أن يكون ناتجا عن الرغبة في الحصول على مزيد الدعم والمنح : "إذ غالبا ما يستحوذ مدير الفرقة أو المخرج المتقدم بالمسرحية إلى وزارة الإشراف على حقوق التأليف لنصّ قد اقتبسه أو تؤنسه ثم نسبه إلى نفسه، وذلك قصد الحصول على المزيد من العائدات المالية في شكل دعم وزارة الثقافة للنصوص المسرحية المكتوبة باللغة العربية إذ أنّ مردود حقوق التأليف في النصوص المسرحية هو ضعف مردود حقوق الترجمة والاقتباس. والسطو في هذا القطاع ظاهرة معروفة عندنا في تونس ولا حاجة بنا إلى ذكر العناوين والأسماء، بل إنّ من المسرحيات المنشورة في بلادنا ما هي كذلك في أقلها أو في جلّها ولا من حرج..." (18).

عاد التونسيون والعرب قبلهم إلى المسرحيات

الغربية، كوميدية، تراجيدية، فودفيل، وانهالوا عليها ترجمة واقتباسا، وإذا أخذنا فرقة مدينة تونس مثلا نجد أنّ أغلب إنتاجها مترجم أو مقتبس، وقلّ أن يتم إنتاج نص مؤلف للغرض من طرف مؤلف تونسي. كذلك هو الشأن مع المسرح الوطني، هذه المؤسسة التي علّق عليها التونسيون آمالا عريضة، كانت باكورة أعمالها "أنا الحادثة" وكانت مقتبسة. وازداد الانغماس في الاقتباس أو الترجمةمع الفترة الثانية من تجربة هذه المؤسسة إذ كانت جلّ أعمالها المنتجة من الأعمال المقتبسة أو المترجمة عن المسرح الغربي الأوروبي أو حتى الشرقي والآسيوي مثل "راجل وامرا" عن المسرح الياباني و«الهربة» عن المسرح الصيني.

فمسرحيات شكسبير وراسين وموليار وفيكتور هيغو، وكولتاس ويونسكو وبيكيت أعمال مرجعية ونصوص عالمية أبهرت التونسيين في البداية ولكنّها مع الأيام بدأت تبدو لهم باهتة، بحكم التكرار، عرفوا شخصياتها عن كثب، حفظوا أحداثها عن ظهر قلب، تجولوا عن طريق خيالهم في فضاءاتها الزمانية والمكانية فلم تعد تستهويهم ولا تشدّهم، لأنّهم لفظوها وأصبحوا يعتبرونها ترفا فكريا وجماليا بعيدين عن الواقع كل البعد. فالواقع اليوم يشدّ التونسيين، بأحداثه اليومية، بما يشغل الشارع ويشدّ اهتمام المجتمع بما في ذلك القضايا العربية المشتركة ومتناقضات المجتمع وأسباب ومظاهر الأزمات التي يمر بها المجتمع العربي في مختلف درجاتها وأبعادها.

في هذا السياق أضحت الترجمة تشكل وجها من أوجهه التداخل الحضاري والتواصل بين المجتمعات وتخلق نوعا من التلاقح في الأفكار والتقنيات وفي مفردات اللغة المسرحية. ويمكن التساؤل عن مدى تأثير هذه الترجمات في المسرح التونسي وفي تقنية الكتابة المسرحية التونسية؟. من ناحية التأثير المؤكد أنها أثّرت وبدرجة عالية. فإذا أخذنا مثلا المسرحية الحدث التي أنتجها المسرح الوطني "مراد الثالث" فإننا سنجد المؤثرات واضحة والتداخلات حاضرة والتفاعلات متوقّعة إلى درجة أنه أمكن للبعض الحديث عن بعض التغريب والإسقاط، إذ تمّت قراءة وتصوير الشخصيات وأحداث هذه المسرحية بطريقة تجعل ميزاتها وخصوصياتها تتقلص أمام أهمية التقنية والمؤثرات والمتمّمات الركحية. ويمكن سحب هذا الكلام على مسرحية "هدّث ..." عن "حدّث أبو هريرة قال..." التي تميزت كذلك بتطور الخطاب المسرحي بتقنياته وأشكاله الجمالية الجديدة على حساب النصّ الأصلي.

هذا ما يؤكد حدود الترجمة وكذلك الاقتباس، فهما عمليتان فرديتان مرتبطتان بتجربة من يتعاطاهما بما فيها من خصوصية ونسبية، قد تكون مناسبة لتركيب مفردات كتابة ركحية على مفردات كتابة نصية لكن تنحصر جدوى هذا التركيب في مدى تفاعل المقتبس للأثر الذي يقتبس عنه، وفي نوعية هذا التفاعل الظرفيّ والعرضيّ الذي لا يمثل إضافة نوعية للحقل المعرفي الخاص بالمسرح.

ومن هذه الزاوية فإنّ الترجمة في المسرح التونسي قد تعيقه وقد تدفعه إلى الكسل الفكري أكثر مما تحاول دفعه الى الإبداع والخلق وتكوين رصيد وطني من النصوص المسرحية التونسية، وهي من شأنها أن تبقي المسرح التونسي في حالة تبعية متواصلة للمسرح الغربي على الأقل فيما يخصّ النصوص المسرحية وفيما يخص الكتابة المسرحية التي تستمدّ روحها وصورها وشخصياتها من صميم الواقع التونسي. هل استسهل رجل المسرح التونسي ترجمة أفكار ونصوص غيره والإقتباس عنها إلى درجة أن أصبح شبه عاجز عن الكتابة، فلم يتطور الرصيد المسرحي لا على مستوى الكمّ ولا على مستوى الكيف؟. هل سيطرت الترجمة على عقول رجال المسرح التونسيين فأهملوا نصوصهم وكتّابهم وتركوا المجال واسعا وفسيحا لكتّاب من الدرجة الثانية والثالثة والرابعة؟ هل وجدوا الحلّ في هذه النصوص الجماعية المرتجلة؟ وهل تطرح هذه الصيغة الجديدة للكتابة الركحية قضايا وروافد المسرح التونسي الحديث؟ هل تؤسّس لجمالية

سيكتب لها التواصل والتطور مع الزمن والتجارب ؟ هل تجنب المسرح هذه الوضعيات التي يجد فيها نفسه يقترح فيها على الجمهور أعمالا بعيدة كل البعد عن هواجسه ومتطلباته وانتظاراته وعما يستسيغه ويقبل عليه برغبة وتفاعل؟ . وضعيات يتساءل المتفرج فيها من أين هذه الأفكار ؟ من أين هذه الصور؟ لماذا هذه الشخصيات بهذه المواصفات؟ وهي تساؤلات تعمّق الشعور بالغربة وتخلق وضعيات عرفها المسرح قديما في فترة شكا فيها جمهوره وشكا هذا الجمهور مسرحا قريبا منه .

درس الأستاذ عمر بن سالم رصيد النصوص المسرحية بوزارة الثقافة من سنة 1963 إلى سنة 1989، فوجد أنّ حوالي ما يزيد عن الثلث من هذا الرصيد (تحديدا 32،16%) مترجم أو مقتبس، قرابة 900 نص). هذا إذا استثنينا الاقتباسات التي تشطب إسم المؤلف الأصلي وتضع إسم "المؤلف" التونسي، ففي هذه الحالة يمكن للنصوص المترجمة والمقتبسة أن تتجاوز نسبة النصف.

وتدل هذه النسبة أنّ الترجمة قدّمت خدمات كثيرة للثقافة التونسية، ومنها المسرح، الذي يمكن القول إنّه ما كان ليعرف وليكتسب التجربة والوضعية التي هو عليها لو لم يقبل على الترجمات في مرحلته الأولى وذلك رغم الهنات الكثيرة التي التصقت بهذه الترجمات والتي تأتّت خاصة من ضعف المترجمين الذين اضطلعوا بهذه المهمة، لأن التعليم الذي تخضع له الترجمة بطريقة أو بأخرى كان مختلاّ في عهد الاستعمار وحتى بعيد الاستقلال لأنّ المترجمين كانوا يقبلون على الترجمة من باب الرغبة والتحمس وسدّ الفراغ أكثر من إقبالهم عليها من باب الكفاءة والحرفية . فهذا الفاضل ابن عاشور يحدّثنا عن هذا الخلل : "وإن كان هذا المنهج قد أبقى للمدرسة الصادقية مادة تعليم عربي ضئيل فإنّه قد قطع مادة الثقافة العربية بتاتا، إذ جعل اللغة الفرنسية أداة المعرفة الهامة، وأبقى اللغة العربية مادة تعليم لا تقصد إلا لذاتها على خلل فادح في طرائق تعليمها، فانقطع بذلك حاضر الأمّة عن ماضيها إذ أصبحت ثقافة أبنائها لا تستمدّ من عناصر ذاتيتها القومية..."(19).

هذا رأي الفاضل ابن عاشور حول تعليم الذين تصدوا للترجمة قبل الاستقلال. أما بعد الاستقلال فقد واصل المشرفون على حظوظ التعليم على نفس النهج، ضمن موقف متشدد نسبيا تجاه ازدواجية اللغة، إذ كانوا يرون في ذلك مزاحمة للّغة العربية من طرف اللغة الثانية وهي الفرنسية أي لغة المستعمر سابقا بثقافته وقيمه وتقاليده وممارساته . زد على ذلك ما عرفه الخطاب الرسميّ بعيد الاستقلال من تحمّس للفرنكوفونية ومن ميل واهتمام مفرطين لحوامل ورموز هذه الفرنكوفونية جعل اختيارها لغة للتعبير في أي مجال، سواء كان أدبيا أو سياسيا أو غيره هو عبارة على اختيار موقف من هذا الخطاب وينجرّ عنه اختيار للغة التخاطب والكتابة والقراءة والتثقّف والتعلّم .

لهذه الأسباب وغيرها كانت الترجمة التونسية في معظم الميادين قليلة لأنّ القارئ المثقف يستطيع الاطلاع على النصوص بلغتها الأصلية وبالتالي فهو ليس في حاجة أكيدة إلى الترجمة. فحتّى الأعمال التي ترجمت في مختلف الميادين لم تخضع لمقاييس الترجمة الدقيقة التي من بينها إتقان اللغتين ووجود مراجع للترجمة. وترجمة المسرح أين مكانتها في هذه الترجمات؟ لا شك أنّ المسرح يعتبر أكثر الميادين اعتمادا على الترجمة ولكن هل هي ترجمات تونسية ؟ إنّ أغلب الترجمات بين أيدي المسرحيّين في تونس هي ترجمات مشرقية سواء مع سلسلة روائع المسرح العالمي المصرية أو سلسلة من المسرح العالمي الكويتية. الترجمات التونسية للآثار العالمية في أغلبها لم تنشر باستثناء عدد قليل منها مثل ترجمة الطاهر الخميري أو حسن الزمرلي. كما أنّ جانبا كبيرا من الرّصيد المسرحي ومن الأعمال التي تمت ترجمتها لغرض تجسيدها ركحيا لم. تنشر بل بقيت بين المخطوطات التي لا يعرفها ولا يقبل عليها سوى المختص .

إنّ الترجمات المسرحية قد أضافت إلى المسرح التونسي، إذ عن طريقها عرف هذا الفن وأهله وجمهوره روائع المسرح العالمي ولكنها الآن أصبحت تعيقه

وتمنعه من أن يكتسب شرعية الانتماء إلى الثقافة العربية التونسية وتكوين رصيد من النصوص المسرحية تكون رافدا مهمّا لإبداعات فنية أصيلة، بها روافد التميّز وتعطي المثال في الاختلاف والتسامح وقبول الرأي الآخر مع أنها تدعو وتتقاسم القيم الإنسانية الخالدة في الحق والخير والجمال.

وخلاصة القول، إن التونسيين ترجموا المسرح في بداياته واقتبسوا وتونسوا وأعادوا كتابة العديد من الآثار من الأدب والمسرح العالمي وكان من بين نتائج هذه الحركة أن عرف التونسي هذا الفن الشامل وعرف روائعه العالمية وكان بمثابة البوّابة التي دخل منها إلى الحداثة. لكن في سياق الترجمات ندرت المبادرات في كتابة نصوص مسرحية تونسية أصلية شكلا ومضمونا وفي هذه الندرة ما يدفع إلى التساؤل : كيف وجد المسرح الحديث طريقه لصياغة خطاب يميّزه عن غيره من المسارح بناء على التجارب الأولى التي كانت تعتمد على التراجم ؟ وما هو إرث هذه التجارب الحديثة من حركة البدايات التي كانت معظمها ترديدا متونسا لنصوص عالمية دخلها التونسيون من باب الترجمة ؟ هذا الموضوع يتعلق بمصادر المسرح الحديث والمعاصر يستحق دراسة تتمّم موضوع الترجمة في بدايات المسرح التونسي .

الهوامـــــش والإحــــالات

1ـ انظر كتاب «قرن من المسرح التونسي»، تأليف جماعي : حمدي الحمايدي، المنصف شرف الدين، أحمد الحاذق العرف، تنسيق ومراجعة بوبكر خلوج منشورات وزارة الثقافة ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس 2001.

2 ـ حركة الترجمة في تونس، " لمحمد مواعدة ـ الدرار العربيّة للكتاب، تونس 1986، ص 276.

3ـ La Dépeche Tunisienne,25/09/1908

4ـ إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" لأحمد إبن أبي الضياف، تحقيق لجنة من الأساتذة، كتابة الدولة للشؤون الثقافيّة والأخبار، تونس، ج 4، ص 102.

5ـ نفس المصدر السابق، ص 103

6ـ مواعدة، محمد، حركة الترجمة في تونس"، مصدر مذكور، ص 276

7ـ محمد مسعود ادريس:دراسات في تاريخ المسرح التونسي "، دار سحر للنشر، تونس 1993، ص 106.

8ـ مواعدة، محمد، " حركة الترجمة في تونس"، مصدر مذكور، ص 359.

9ـ مواعدة، محمد، : حركة الترجمة في تونس". مصدر مذكور، ص 276.

10ـ انظر كتاب "الحيوان" للجاحظ ـ الجزء الأول تحقيق عبد السلام هارون ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ص 75ـ 76.

11ـ نفس المصدر ص 76.

12ـ انظر كتاب "تطوّر الفعل المسرحي بتونس : من النشأة إلى التأسيس" لمحمد عبازة ـ دار سحر، تونس 1997 ص 76.

13ـ نفس المصدر

14ـ المنصف شرف الدين :" من رواد المسرح التونسي وأعلامه"، المكتبة العتيقة، تونس 1997، ص 227.

15ـ مواعدة ، محمد، " حركة الترجمة في تونس"، مصدر مذكور، ص. 338

16ـ مواعدة، محمد، مصدر مذكور، ص 221

17ـ عمر بن سالم :" الرصيد المسرحي بوزارة الثقافة"، مركز الدراسات والأبحاث الإقتصاديّة والإجتماعيّة، تونس1993، ص 15.

18ـ عمر بن سالم ـ نفس المصدرو ص 16

19ـ محمد الفاضل ابن عاشور :" الحركة الأدبيّة والفكريّة"، مطبعة دار الهناء، تونس 1956، ص 58ـ57.

فنون

مشروعيّة الفنّ، مشروعيّة النقد

د. الحبيب بيدة

تعتبر قراءة النّاقد، بعد قراء الفنّان، أقرب القراءات الممكنة إلى العمل الفنّي لكونه يقرأ العمل الفنّي قراءة مباشرة وحينيّة في الزمان والمكان فهو مترصدّ لإبداعات الفنّان ويعرفه ويعرف فنّه عن قرب. وهو أيضاً يحاوره ويحاور فنّه فيستبطن الفكر الذي ينشّط معرفته ويبلور عمله. ويبني الناقد الملتحم بالعمل الفنّي بفعل معرفته به نصّاً كتابياً يحمل معانيَ متّصلة بمعاني الفنّ وربّما يكون هذا النّص موازيا - وهو بالفعل كذلك - لاختلاف لغته عن لغة الفنّ ولكنّ صلته به تتحدّد في صورة ما، يمكن تحليلها هي الأخرى. وحتّى وإن كان هذا النّص إنشائيا أو شاعرياً أو وصفياً تحليليا أو تأويلياً فإنّ له قرابة بالأثر الفنّي، قرابة حسيّة أو جوهريّة ظاهراتية أو باطنية وهي قرابة ما ناتجة عن إحساس ما أفرزه العمل الفنّي. لذلك من الضّروري الانتباه إليه باعتباره قراءة وتقييما حسب مقاييس معتمدة لها جذور وأصول، كما أنّ للمبدع مراجعه ومقاييسه النابعة من مراجع ثقافيّة والمعتمدة في مجال هذه المرجع.

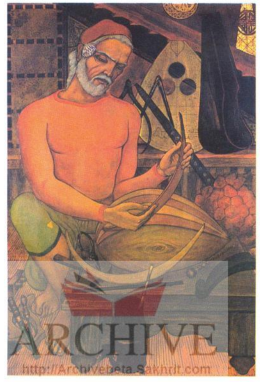
ومهما كانت نوعيّة القراءة متّصلة اتّصالا عضويا بالأثر الفنّي أو منفصلة عنه تبقى ضروريّة لإنارة

لوحة للفنان عبد العزيز القرجي

العمل الفنّي أو للجدال حوله وبالتّالي مولّدة لمعرفة أخرى موازية لملعرفة التي أفرزتها الممارسة الفنية في حدّ ذاتها. إذ لا يمكن تصورّ ممارسة بدون فكر معطى هو الآخر للفكر أي للقراءة والتأويل لذلك بقي سؤال النّقد متّصلا بسؤال الممارسة الإبداعيّة والمبدعة منذ ولادة هذه الممارسة وهذا الإبداع. إذ لا يمكن تصورّ إبداع لم ينتج عن فكر نقدي ولا تصورّ فكر نقدي لم ينتج عن إبداع ولكن يبدو أنّ هذه المعادلة المتّصلة عناصرها اتّصالا جوهرياً منذ أفلاطون قد أصابها الترهّل والاضطراب وعدم وضوح الرؤيا وذلك في بعض البلدان التي يظهر من خلال انتاجاتها أنّها تبدع فناً في حين أنّها تنتج صوراً لا غير، صوراً منشؤها التقليد أو العفويّة، صوراً تفتقد إلى الأهداف التي تجعل منها عملا فنّيا مشروعا وذا شرعيّة حتّى أنّ النقد وجد نفسه هو أيضاً في حيرة من أمره: هل يصطنع صورا لفظية نمطية يشرّع بها لهذه الصور التي تفتقر إلى الوعي بها كسؤال عن القيمة وإبداع لها أم يلتزم الصمت أمامها وفي كلتا الحالتين ينتفي دوره كإبداع مواز مولّد للمعنى.

وربّما يصعب أن نتصورّ الحال الذي عليه الفنّ التشكيلي المعاصر بصورة شموليّة وذلك للشّرخ الذي أصابه في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، خاصةً منه في بلداننا العربيّة إذا اعتبرنا أنّ فنّ هذه البلدن ومنذ بداية القرن هو تواصل طبيعي لفنّ الغرب بحكم الجغرافيا والتاريخ والثقافة ومواصلة لتجاربه ومقارباته ورؤاه. إذ أنّ الناظر والملاحظ للحركة التشكيليّة العربيّة عموما يجد أنّه بعد قرن من الزّمن رغم وجود الفنّ التشكيلي ومدارس الفنّ وأسماء لفنّانين تخرجوا من هذه المدارس أو من مدارس غربيّة ورغم المسيرت التي أنجزوها طوال تعاملهم مع فنّهم والتزامهم به، ورغم وجود هذه العناصر إلى جانب عناصر أخرى لازالت هذه الحركة مشتّتة ولازالت المعارف والقيم الجمالية التي أنتجتها خافية ومخفيّة عن المتقبّل العام وعن المؤسسة الثقافية التي تمثّل هذا المتقبّل. في حين أنّ فنّاني الغرب المحدثين منهم والمعاصرين يكادون يكونون معروفين من طرف الخاصّ والعامّ إضافة إلى أنّ فنّهم قد أثّر تأثيرا مباشرا وواضحا في مدنهم ومحيطهم واندمج بهذا المحيط بحيث أصبح من الممكن أن نشهد مدينة كبروكسال وباريس تشهد على الفنّ الجديد في بداية القرن، ومدنا أخرى اصطبغت برؤى مدرسة الباوهوس وأخرى اندمجت بفنّ ديكو والأمثلة كثيرة على رسوخ الفنّ والتحامه بالرؤى الجماعية للمدركين والمتقبّلين وتعبيره بفعل هذا الالتحام عن هذه الرؤى. ولا غرابة إذن أن نشهد المتاحف التي تعتبر كنوافذ لهذه الرؤى ومداخل لفهم تاريخها وتاريخيتها إلى جانب المؤلفات النقديّة التي تتداخل فيها النظريات العلميّة والفلسفيّة والاجتماعية لتفسير وتأويل التطورّ الذي حدث في الرؤى وفي الظواهر التي أنتجت من خلالها. ورغم التطورّ الذي حدث في مجال هذه الرؤى والذي أخرج الفنّ من بوتقة التّقاليد المعروفة في بداية القرن العشرين، ورغم الجرأة التي تميزّ بها الفنانون التشكيليون في فتحهم للأبواب الجديدة منذ ظهور الحداثة. فقد كان النّقد أيضاً جريئا في التخلّص من المقاييس التي اعتمدها في الحكم على النتاج التشكيلي بل أصبح يلهث وراء الإبداع الجريء ويبحث في مقاصده ويؤسّس من خلاله النظريات الجديدة مبقيا على التحامه الأزلي بالفنّ والدّليل على ذلك أنّه يكاد أن يكون وراء كلّ حركة ووراء كلّ تيار فنّي ناقد دافع عنها وعنه وأسّس لها وله وجعلها وجعله قيمة من القيم المرجعيّة التي ساهمت في توليد قيم أخرى وهكذا دواليك.

ويمكن على سبيل المثال ذكر مسيرة النّقد في



لوحة للفنان جلال بن عبدالله

الغرب منذ عصر النهضة بموازاة مع مسيرة الفنّ ممّا يؤدّي إلى الجزم بأنّ هذا الفنّ كان مخترقا بفكر وعقل ألّف بينهما الوعي. وأدّى هذا الاختراق إلى توليد الفكر النّقديّ الذي كان بدوره مظهرا لهذا الوعي ومولّدا للمفهوم والمعنى الذي حمله اللفظ بل إنّ اللفظ هو الآخر قد ابتكر انطلاقا من هذا الوعي. وكما يمكن التأريخ للفنّ والفنانين يمكن التاريخ للنقد والنقاد الأمر الذي ولّد منظومة ينشط فيها ويتحرك كلّ من الإبداع والنقد. إذ كان النقد تابعا للإبداع منذ نشأة الفلسفة كحبّ للحكمة والمعرفة، معرفة الإنسان ومعرفة إمكانيات ملكاته المبدعة في علاقتها بالمحيط الذي تبدع فيه طبيعياً كان أو إنسانياً.

ولا ننسى أنّ النقّاد هم الذين كانوا وراء إنارة العمل الفنّي، وأعني بالنقاد الفنّانين والقريبين حساً وإدراكا ومعرفة من هذا العمل إذ لا يمكن قبول قول ناقد لا يعرف آليات العمل الفنّي أو بعضها على الأقل. فليوناردو دفنشي كان ناقدا والبرتني كان ناقدا وفزاري كان ناقدا أيضا. ولننتبه إلى مسيرة النقد على الأقل منذ الرومنطيقيين لنتعرّف على رواده، فبودلار هو الذي أعلن الحداثة عبر إبداع دلاكروا وكوربيCOURBET كان وراء تسمية

«الواقعية» عبر إبداعه وإبداع Millet وCorot ولوي لروا وراء تسمية الانطباعيّة وآرسان الكسندر Arsene Alexandre وراء تسمية الانطباعيّة الجديدة وما حملته من تجديدات وفوسال Vauxelles وراء تسمية الوحوشية، وهو أيضاً الذي ولّد تسمية التكعيبيّة. وأما أبولينار Apollinaire فكان مدافعا عن التجريديّة ومبدعا لمفهوم الأورفية والشعاعية. وقد كان دولوني يفضل تسمية الأورفية بالحينيّة Similtanisme. أمّا مالفيلش فكان مبدعا لمفهوم المافوقية Suppre matisme. وتتوالى التسميات على ألسنة النقاد فمفهوم اللولبيّة Vortisme فقد أبدعه Ezra Paound والرسم الميتافيزيقي قد أبدعه الرسّام Carlo Carra والرّسم غير التشبيهي قد أبدعه Jean Bazaine. أمّا الناقد Robert Coats فقد أبدع مفهوم التعبيريّة التجريديّة والرّسام جون ديبيفي أبدع مفهوم الفنّ الخام Art Brut والناقد هرولد روزنبارغ Harold Rosenberg قد أبدع مفهوم الفنّ الحركي Action Painting الخ . . .

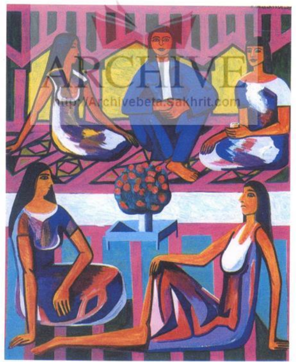
إنّ الأمثلة كثيرة وهي تدلّ دلالة واضحة على مدى التضامن الموجود بين الفنّانين والنقّاد حتّى وإن التحموا داخل نفس المفهوم ـ مفهوم القراء ة النقديّة المولّدة للمعرفة المفهوميّة والتي على أساسها بنيت التصوّرات والتطوّرات الأسلوبيّة والمضمونيّة لفنون تشكيليّة باحثة عن المعنى عبر الممارسة الواعية.

لذلك لا نندهش أمام بقاء جدوى النّقد التشكيلي اليوم في البلدان التي بنى فيها المسؤولون عن الفنّ التشكيلي فيها من فنّانين ونقاد ومتقبلين ومقتنين ومسؤولين ثقافيين وسياسيين منظومة تمتاز بمشروعية وشرعيّة توازي حركة الحياة، وتندمج فيها في نفس الآن. ولازلنا نسمع عن سلطة الفنّ وسلطة النقد وسلطة السوق وسلطة الثقافة. في هذه البلدان سلطات تمتاز بالحركية الاجتماعية وتتغيّر رؤاها حسب ما تفرضه الحركيّة الاجتماعيّة والسياسية والأهمّ في كلّ هذا أنّ الفنّ التشكيلي لا زال فاعلا ومحدثا لحركية ثقافية وعمرانية بكل ما يحتويه مفهوم العمران من معاني شموليّة، تهمّ كلّ ما يخصّ المحيط المعيش للمواطنين في كلّ المجالات العلميّة والتكنولوجية. بل أنتج هذا الفنّ تصوّرات جديد وعدّد من الوسائط وانفتح على العلم والتكنولوجيا المتطوّرة كما انفتحت عليه وعلى أنماطه العديدة والمختلفة، حتّى أصبح السؤال حول علاقته بالعلم والتكنولوجيا ملحّاً بل أصبح الفنّ التشكيلي لا يختلف كثيرا في مناهجه وطرقه عن مناهج البحث العلمي النظري والتطبيقي. وهذا أدّى إلى تطوّر الخطاب النّقدي بفعل تطوّر التّقنيات الحاملة للتشكيل والذي بدوره أصبح حاملا لإشكاليات جديدة. وهنا لا نقول إنّ النّقد أضاف إلى العمليّة الإبداعيّة ولا نقول أيضاً إنّ الإبداع قد أضاف إلى العمليّة النقديّة بل نقول إن الاثنين أصبحا واحدا. والعلاقة بينهما أصبحت التحامية جدليّة إذ النّاقد يستنير بفكر المبدع والمبدع يستنير بفكر النّاقد وأصبحنا أمام جيل جديد من النقّاد الأكاديميين الباحثين ذوي الأطروحات المعمقّة، وأمام جيل من الفنّانين الباحثين في فنّهم عن فكرهم المولّد لفكر نقديّ ذاتيّ، فكر إنشائي يكون قاعدة معلوماتيّة لفكر نقدي إنشائي هو أيضا.

وبالنّظر إلى ما هو حادث ويحدث في البلدان العربيّة نظرة شموليّة نجد أنّ هناك جهوداً تذكر فتشكر سواء على مستوى الإبداع الواعي والصّادق والذي ينشد إبداع القيم المعرفيّة والجماليّة الجديدة أو على مستوى النّقد الذي يتابع هذا الإبداع ويحاول الالتصاق به وتأليف الأفكار التي أنتجها هذا الإبداع. لكن هذه الجهود الإبداعيّة والنقديّة لم تجد منذ ولادتها من يجعل منها منظومة مؤسساتية من شأنها المشاركة والفعل في المحيط الحياتي

العامّ. وبقيت ممارسة الفنّ ممارسة فرديّة يقوم بها بعض الحالمين المتقّدين إحساسا وحبّا للمعرفة إلى جانب الكثير من المقلّدين الذين وجدوا في هذه الممارسة ربحا ماديّا ومعنوياً أو بعض «الرومنطيقيين الجدد» الذين وجدُوا فيها تعبيرا عن هموم نفسيّة أو خيّل لهم ذلك. واختلطت هنا كلّ هذه المواقف ممّا جعل المتقبّل العام للفنّ لا يفرّق بين فنّ مبدع وفنّ مقلّد وفنّ غايته التعبير ولا شيء غيره. إلى جانب الفنون المصطنعة والفنون الاعتباطيّة الخالية تماما من المعنى. حتّى أصبحت وظيفة الفنّ - إن كانت له وظيفة - عند هذا المتقبّل العامّ هو «تزيين» جدران المنازل لا فرق بينه وبين آنية طريفة أو سجاد قديم أو تحفة مجلوبة كذكرى من إحدى البلدان.

ولا ننفي وجود محبّي الفنّ الحقيقيين الذين يقتنون الأعمال الفنيّة كما هي كذلك، قيما ثقافية رؤيوية لها قيمة تاريخيّة حسب صمود كلّ فنّان ولكن هؤلاء قلّة ولا يمكن لهم تأسيس منظومة يعمل في إطارها المبدع والنّاقد ومتقبّل الفنّ ووجود متاحف تبرز هذه الأعمال كأفعال فنيّة مرتبطة بالزمان والمكان الفنيين. ويجعل غياب المتحف - المكان الثقافي - الخطاب النقدي متناثرا بين أوراق الصحف والمجلاّت وأدلة المعارض وأشباه الكتب الفنيّة.



لوحة للفنان إبراهيم الضحّاك

وقد أدّى غياب المنظومة المتكاملة التي تشترك في إنشائها أطراف عديدة خاصّة وعموميّة إلى اختفاء الفكر التشكيلي الذي ينتجه الخطاب الإبداعي. ويتيه طلبتنا الباحثون في فكر فنّان عبر النقّد بين أوراق الصحف اليوميّة للبحث عن نقد ينير الفعل الإبداعي بقراءة واعية لخفاياه. وعادة ما يجد أوراقا حبّرها أشخاص لا علاقة لهم بميدان الفنّ التشكيلي ولا بلغته الخصوصيّة ولا بالمعاني التي تحملها هذه اللغة. وحتّى النقّاد الذين آمنوا بقدراتهم على لمتابعة والقراءة التحليليّة العلمية هجروا هذه الفضاءات الصحفيّة أيضاً أو أنّهم يكتبون فيها بصورة عرضيّة مناسباتية. وقليلة هي أو معدومة المجلاّت لمختصّة التي تعنى بالفنّ التشكيلي كتعريف وتحليل واستكشاف للقيم المعرفيّة والجماليّة التي ينتجها وإن صدرت فهي تصدر أيضاً بصورة غير متواصلة الأمر الذي يجعل الاعتماد عليها لتتبّع مسيرة فنّ ما أمرا بالغ الصعوبة.

وهنا يطرح السؤال الأزليّ الأبديّ في بلداننا العربيّة ومنها بلادنا : هل للفنّ مشروعيّة وشرعيّة حقيقية حتّى يتواصل مع نقد له مشروعية وشرعية حقيقية أيضاً؟ يبدو غياب المؤسسة الثقافيّة الحاضنة للإبداع كفعل مادي حامل لجوهر فكريّ سببا من الأسباب الأساسيّة التي جعلتنا دائما وفي كلّ مناسبة نحاول فيها لمّ شتات هذا الفنّ وتاريخه ومعرفته وجماليته نصطدم بسؤال وجوده أولا كمنظومة، إذ في غياب هذه المنظومة غياب لهذا الوجود حتّى وإن وجد بصورة أو بأخرى. ويجعل من المتابعة وبالتّالي النقّد الحقيقيّ غير ذي نفوذ فعليّ في تطوّر الفنّ وتخليصه من الشّوائب التي أصبحت طاغية عليه ممّا يفقد الإيمان به كحقيقة اجتماعية ومجتمعيّة ويجعله مجرّد نزوات فرديّة لا فعل حقيقيّ لها في المحيط المعيشي ولا في الحياة الذهنية والفكريّة للمجتمع الذي يعيش فيه.

ونعتقد أنّه قبل الحديث عن أسئلة النقّد بالنّسبة لأسئلة الفنّ في بلدانا أن يقع السّعي إلى تصحيح مسارهما وجعلهما ينشطان داخل التاريخ لا على هامشه. ونقصد بالتاريخ هذه المنظومة المتكاملة التي تشرّع للفنّ وللنقد معا، وإذ نعيد طرح السؤال حول ماهيّة الفنّان وماهيّة الناقد وفي أيّ مجال يعملان وما هي الأهداف التي يريدان تحقيقها.

هل هي مجرّد الفعل والكلام أم الفعل الواعي بإشكاليات الإبداع والكلام المعبّر عن خفايا هذه الإشكاليات ؟.

حينذاك يمكن الحديث عن مشروع وعن مشروعيّة وبالتالي عن شرعيّة فعل المبدع النّاقد وفعل الناقد المبدع وشرعية ما ينتجانه من خطاب يلتحم بمغامرة الفكر، سواء كان كامنا في الإبداع أو كامنا في الخطاب النقّديّ المولّد من ولهذا الإبداع.

فنون

مسرحـيّة «ومن العشق ما قتل»

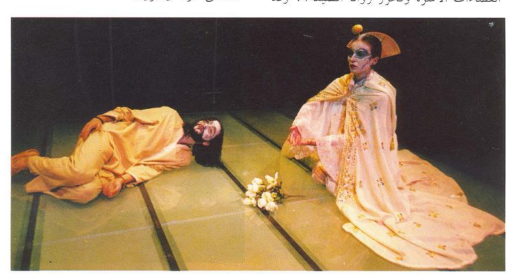
الحـركة الأنيـقة من وحي الشعـر

كمـال العـلاوي

هما إثنان في إثنين: الأوّل شاعر هام في المسرح والثاني مسرحي هام في الشعر وعندما يلتحق هذا بذاك وذاك بهذا يحدث شيء يشبه السحر.. طبعا يكون المستفيد الأكبر هو الجمهور، وكم هو بحاجة إلى الاستفادة!

محمّد العوني الساهر على حظوظ المركز الوطني لفنّ العرائس يتقلّب دوما على الجمر كلّما داهمته شياطين الشعر وأوحت له بالترّحال في تفاصيل الحلم المتشعّبة للإمساك بإبداع مسرحي يتعالى على المستهلك والمألوف.. وقد تقذفه أحلامه إلى الأقاصي ليستلهم من عوالمنا مفردات جديدة تحطّم الفضاءات الآسرة وتحرّر رؤانا الضيّقة.. وقد وجد محمد العوني في حسن المؤذّن السّهم الذي يصيب الهدف. أقول هذا وأنا أعرف أنّ المسألة ليست بهذه البساطة فالتدرّب على استعمال القوس يتطلّب جهدا، والجهد يتطلّب أعصابا قويّة تواجه حدّة الزمن، زمن الإبداع الذي لا يرحم.

ومهما كان من أمر فإنّ هذا الثّنائي ينتهي بهما المطاف دوما إلى نتائج مبهرة، فيها من الإضافة ما يؤهلّها لتمثيل بلادنا في المحافل الدوّلية. ولقد لمسنا ذلك في «حنبعل» ثمّ «العندليب والوردة» وأخيرا في «ومن العشق ما قتل» وهي بحقّ تجربة صعبة تستلهم شاعرية العرب لفظا وشاعرية الشرق الأقصى حركة وصورة.

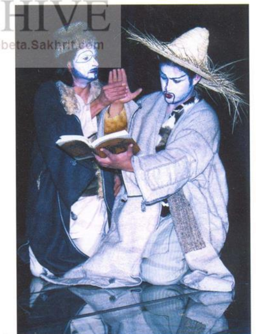




الشعراء يتبعهم . . الشعراء .

حكايات العشق عند العرب ليس لها نهاية بالرغم من أنّ الكثيرين منّا لا يعرفون جلّها إذ اقتصروا على حكايات قيس وليلى وكثير وعزّة وعنتر وعبلة وجميل بثينة، وقليل هم الذي يعرفون قصّة وضّاح اليمن وما جرى له مع أم البنين. وضّاح هو أيضا من فصيلة الشعراء، وقد يذهب الشعر بهذه الفصيلة إلى حدود غير ممكنة أدناها الجنون وأقصاها الموت، خاصّة إذا كانت إصابتهم بالعشق. . فمن العشق ما قتل.

وضّاح اليمن هو ملُهْمُ العوني» وهو شاعر روَى عنه الإخباريون من الروّاة ممّنْ يهيمون بالغرائب ويتزيّدون بالعجائب لنفُوس تستميلها أحاديث الحبّ وخفايا القصور ومصارع العشّاق . .



وكان الروّاة يصفونه وصفا ساحرا فقالوا عنه: كان جميلا كالبلبل يعرف في نفسه جمال الريّش وجمال الصوت وهو لا ينفكّ في حذر من الصائد وخوف من القفص (ككل الشعراء) . وكان يغشى المواسم والأسواق وهو مقنّع منتقب خيفة من الحسّاد وحذرا من لمرأة، ولكنّ المرأة كانت تعترضه في كلّ سبيل وهو لا يزداد إلا تمنّعا لأنّه محبوب، ومن طباع المحبوب الدلال. على أنّ وضّاحا قد خلُقَ للحبّ وكتبت عليه الشهادة فيه .

وضّاح مسّه الحبّ مرتّين. . الأولى حين أحبّ «روضة الفارسيّة» حبّاً كاد يدفعه إلى مصرعه بيد إخوتها، ثمّ نجا بنفسه إلى مكة ليتغزّل بأمّ البنين زوجة الخليفة «الوليد»، وزعموا أنها أحبّت الشاعر وصحبته من مكة الى قصرها بدمشق فكان رفيق خلوتها، حتّى اكتشف أمره حين دخل الخادم فجأة فارتاعت أمّ البنين وأدخلت حبيبها في صندوق أعدّ لاختفائه . وطار العبد بالنبإ الأليم إلى الخليفة، فقتل المبلّغ كي لا يذيع الخبر ثمّ أسرع فحمل الصندوق ورمى به في حفرة وردمه بأكداس من التّراب دون أن يشكف عن محتواه. .



محمد العوني ذهب إلى أبعد من هذه الحكاية فالشّاعر يلجأ إلى الخيال ليعينه على رسم الحقيقة. ولا أقصد هنا الحقيقة التّاريخيّة وإنّما حقيقة الشعراء الذين يقتلهم شعرهم.. ومحمّد العوني لم يكن متوجّسا حين أبدل الشاعر بنحّات، بل أراد بذلك أن يقول (شعرا) بأنّه يوجد شبه كبير بين من ينحت في الصخر ليخلّد ذاته من خلال صور الآخرين وبين من ينحت بالكلمات.. فوضّاح هو الشاعر وهو النحّات والرّسام والموسيقيّ وكلّ من تذوب صورته في إبداعاته أو كل من يموت عشقا في ملهماته تماما مثل «ريلكة» الشاعر الألماني الذي ألهمته «صالومي» وألهمت نيتشة أيضا أو «العقّاد» وملهمته «مي زيادة» أو «ألفريد دي موسيّ» وملهمته «جورج ساند» إلى آخره.. وموت هؤلاء هو في توحّدهم مع ملهماتهم».

ومن أشعار وضّاح في العشق :

يا أيها القلب بعض ما تجد
قد يعشق المرء وهو يتّئد
قد يكتم المرء حبّه حقبا
وهو عميد وقلبه كمد
ماذا تريدين من فتى غزل
قد شفّه السقم فيك والسهد.

موضوع الحبّ إذن يغري الحديث عنه كلّ ذي قلم، وينجذب إليه كلّ إنسان خاصة في عصرنا هذا حيث تلاشت الأحاسيس أمام مغريات الأجساد.

الحكايــة هي المنطلــق :

مراكبيّ يحمل ورقا إلى حيث كانت مدينة ولكنّها اختفت.. مهمّة الوراقين هي اقتفاء سِيَرِ الأولين :

الورّاق: ... أهيّج الآثار والأحجار.. أفكّ تعازيمها وأتنسّم غبار عشاقها..

المراكبي: وعمّ جئت تبحث في مدافن المدينة المرفوعة ؟ عن قصّة حبّ ؟

الورّاق: كأنّه شيء كذلك ! حكاية ظلالها مرسومة ما بين هواء وماء.. منذ زمان وأنا أستنطقها من مخطوط إلى مخطوط فتحطّ وتطير «تتبدّى ثمّ تختفي.. تراها عيناي ولا تدركها يداي.

محمد العوني مولع بسيرة هذا الشاعر الذي شكّ في وجوده «طـه حسـين» مدّعيا أن العصبيّة قد تفاقمت بين المضريّة واليمنية فإن افتخرت هذه بشيء افتخرت الأخرى بما يعدلّه. وقد افترخرت المضرية بالغزليين من شعرائها فلا بدّ أن يكون لليمنيّة شعراء. فاخترعوا وضّاح اليمن. ولكن ما يهمّ العوني ليست حقيقة وجوده أو عدم وجوده. فهو موجود كمادّة تختزل الزّمان والمكان في خيال الشاعر فيحولّهما زمانا ومكانا مسرحيّين.

المراكبي: هذا المكان كان هديرا من أغان

وعمودا من ضياء. اضطرمت فيه نار الحبّ وتوهّجت حتّى أتت على حجارته وعلى أهله.

ما الحكايــــة ؟

الملك «فخر الدين» يمتاز بالعدل وطهارة النفس ولكنّ أخاه «بدران» حقود يحسده على زوجته «درة القصور» وعلى إبنه «تاج الملك». فيقتله ويستولي على الملك وعلى الزوّجة التي تقبل الزواج خوفا على ابنها من بطشه. يحطّ طائر أحمر العنق على نافذة الإبن فيوحي له بأن يأتي بنحات يصنع تمثالا لأبيه حتى يخلّده. يأتي بنحات من أصل روميّ فيبدع في نحت صورة الأب الى درجة أن استحوذت روح الملك القتيل على التّمثال وأفشت حقيقة قتله لإبنه «تاج الملك» كشبح الملك الذي كان يراود «هاملت» كل ليلة بعد قتله من طرف أخيه فأفشى حقيقة أمره.

ينتقل بنا العوني إلى زمن آخر حيث يلتقي الورّاق بدرّة القصر وهي عجوز تصلح تمثال زوجها.

الورّاق: قادتني بعض الروايات المتناثرة في الكتب والمخطوطات إلى زيارة هذا المكان اللّغز..

العجوز: ليس لغزا.. كان مدينة بهيّة قائمة على الأرض وذات يوم رُفِعت..

الورّاق: كيف رفعت ؟ رأيتها مشعّة خلاّبة في ماء النّهر.

العجوز: ما رأيته هو ظلالها.. المدينة تمرّدت ورفعت. أمّا الظلّ فليس له أن يتمرّد.

الوراق: وتقولين إنّها ليست لغزا ؟

العجوز: الأفكار ليست ألغازا والمدينة المرفوعة فكرة لا حجر..

الوراق: وأنت هل ترمّمين في هذا التّمثال الفكرة أم الحجر ؟

العجوز: أنا لا أرمّم شيئا.. لجأت إلى هذه الأطلال بعد أن تشرّدت لياليَ طوالا لأتقي الوحوش وقطّاع الطرق.

الورّاق: وهل يقيك هذا الخراب من الوحوش وقطّاع الطرق ؟

العجوز: لم أنم ليلة على سكينة إلا بعد أن أقمت في هذا المكان فما انتابني خوف ولا مسّني جوع كأنّ عينا ساهرة ترعاني.. أظنّها روح هذا التّمثال المهشّم.

وكأنّي بالشاعر محمّد العوني يقول: إنّ ذاكرة الشعوب المتمثّلة في أعمال وآثار فنّانيها هي حماية لهذه الشعوب. لذلك بقيت الملكة ألف سنة وهي تحرس وترمّم التّمثال والتّمثال يحرسها أيضا ويحميها.. إنّها قصّة حبّ لا تنتهي.

الورّاق: أترثين ملكا مات منذ ألف سنة ؟

العجوز: الملوك العدل يظلّون أحياء وإن غبروا.

الورّاق: أتعرفين من صنع هذا التّمثال ؟

العجوز: يقولون إنّ عاشقا صنعه. والحجر الذي مسّة عاشق حين تمسح عليه ينهض من نومه ويرتجف..

وفي الجزء الثاني من المسرحيّة يعود بنا في ا لزّمان الى الملكة «درّة القصور» وقد وقعت في حبّ النّحات الذي يجسّد صورة زوجها.

الملكة: صلصالك هذا حياة بعد موت.. أتدري يا ماء العينين أنّ التّمثال يشبهك أيضا ؟

ماء العينين: يشبهني في ماذا ؟

الملكة: في هذه الرأس المرفوعة..في هذه

الطاقة الهائلة.. وفي هذين العينين الحالمتين ..[يحني رأسه خجلا] لا تخفض رأسك.. أخاف أن ينحني رأس تمثالك فيسقط الأفق.. سموّ روحك في أصابعك..

نرى هنا كيف أصبحت الملكة ترى في الفنّان رفعة الملوك الذين يبنون أسس المستقبل ويرفعون دعائمه، حتّى تجمّل الأفق.. نصّ يمجّد الفنّ ومبدعيه و يرفع من شأنهم خاصّة إذا كان هذا الفنّ مجاوزا للواقع ومتمردّا على النّسيان وحفاظا للكرامة.

ماء العينين: الخير في من علّمني وفتح قلبي على أسرار هذا العالم.. كنت قبل ذلك أرى الشجر شجرا والحجر حجرا، أمّا اليوم فالكون بكلّ ما ومَنْ فيه مرقص أرواح تتبدّى وتتباهى بتبدّيها.

الملكة: حيثما توجد جنّة فثمّة دائما شجر حرام .. ها إنك تجعل ممنْ أحبُّ وثنا.. أهمّ به فتكلّمني يداك.. أغضّ عنه طرفي فأراك.. روحك أم روحه؟ وهم تندلق فيه مياه الحياة أم حياة بللّها الوهم ؟ ربّاه ! ماذا أصنع ؟ لوْ أمرتك بتحطيمه فسأكون كمن تموت مرتّين.

إنّه إعلان عشق غريب فالملكة أحبّت زوجها فخلّده التّمثال، ولكنّها أحبّت صانع التّمثال لأنّه صنعه على صورته فأصبحا متشابهين..

الملكة: أنا الملكة.. سيدّة الهيبة والتّماسك والحكمة فكيف أنطح الجدران برأسي وأنساق إليه بكلّ هذه اللهفة وكأني صبيّة تلثغ ؟! المشهد عشق خالص.. هاوية تسحب روحي إلى أعلى والنّار تأكل أعضائي وأصوات البهجة تناديني..

ربّاه.. خذ بيدي فقد عزمت على هذا الهلاك.

هذا العزم على الهلاك يذكّرنا بالتراجيديا اليونانية حيث نرى الأبطال واعين بسيرهم نحو الهلاك، وبالرّغم من ذلك فهم لا يتراجعون.. لذلك فسّر الكاتب «جان أنوي» مفهوم التراجيديا بقوله: «في التراجيديا ليس هناك بصيص من الأمل» فأنطغون تعرف أنّها إن وارت أخاها التّراب ستذهب إلى حتفها.. ولكنّ موقفها نبيل ويرفع من شأنها لذلك اختارت الموت. وهكذا الحال بالنّسبة للملكة إنّها تتمردّ على «بدران» الذي يمثّل صورة الموت وتعشق صانع تمثال زوجها لتموت.

الملكة: أمن أجل هذا جئت ترجوني ؟

النّحات: جئت ليبلغ حلمي مداه

الملكة: كأنّك مولع بتسليم رأسك للمجزرة ؟

النّحات: لا يهمّني رأسي إذا لم أفلح في نحت وجه كأنما ريشة رسمته.

الملكة: هل تجمّلني أكثر إن أنت نحتّني ؟

النّحات: أجمّل العالم وأجدّده.

الملكة: في شخص تمثالي ؟

النّحات: فيك وفي شخص تمثالك.. تجميل العالم وتجديده لا ينفصلان ولا ينتهيان..

الملكة: من ينحت علامة كالتي أمامي توقف العواصف وتحوّل الأسماك إلى نبات يجنّح لا يخشى السقّوط.

الملكة: سيقطعون رأسك..

النّحات: إن قطعوه سيسقط سعيدا..

الملكة: سيحشرون في الصندوق جسدك ويلقون بالصندوق في قعر البئر.. والبئر تحت عرش السلطان.

النّحات: قدري أن تكون يد الزمّان على الرحى وأكون كمن نام وما صحا.

كلّ العشّاق يخلدّهم موتهم من أجل المعشوق ولكن هل بقيت هذه القيم تسود المجتمعات في عصرنا ؟ ربّما تبقى لدى المبدعين إن كانت غايتهم

الحقيقيّة هي إنقاذ الإنسان من الانحطاط، والبحث عن خلاصه بالفنّ.

انتقال رؤى الشاعر إلى رؤى المخرج :

محمد العوني وحسن المؤذّن لهما نفس المراجع فهما كغيرهما من أصحاب الحيرة الجمالية يستطلعان الشرق الأقصى أو حتّى تأثيراتها على الشرق الأدنى. نحن نعلم مثلا أنّ فنّ «النّو» وهو من أقدم الأشكال المسرحيّة قد ألهم «برتولد بريشت» و «بول كلوديل» و«غروتوفسكي». «النّو» يسحر كلّ المسرحيين المعارضين لأنّه فنّ ذو طابع طقسي درامي. وهو أيضا شبيه بـ «البسيكودرام» ذي الطابع الإشفائي.

إنّ هذا الانجذاب الذي دفع بعباقرة المسرح الغربي إلى الاطّلاع عن كثب على مكوّنات مسرح لا «النّو» فقط بل حتّى «الكابوكي» و«البنراكو» هو نتيجة التطلّع إلى ثقافة ذات نظام دلالاتي يمكن أن تصبح لغة مشتركة بين كلّ الشعوب. . إنّه حلم واعد بإنسانية أفضل يراود كلّ فنّاني عصرنا الحاضر حتّى يخرجوا من الذّهول الذي أصابهم نتيجة تآكل البشريّة فرمى بهم في شبه اليأس.

هذه المسائل طبعا لا تغيب عن العوني والمؤذّن. . ونظرا لطبيعة المؤسّسة القائمة كما يعلم الجميع على مسرح العرائس فقد ذهب بهما الحلم إلى مقولات المسرحي الإنقليزي «إدوار غوردون غريغ» الذي ثار نوعا ما على النّص المسرحي ودعا إلى تكثيف العمل مع الممثل كجسد ينقل إلى المتفرّج كلّ الأحداث والأحاسيس والأفكار بشكل مجرّد تمما كما يحدث مع مسرح العرائس. أي أن يصبح الممثّل في مثل العروسة في تحرّكها وتعابيرها بواسطة الإشارات والدّلالات ذات الشفرات الدقّيقة. هذا التّوجّه هو في الواقع من وحي «البنراكو». . وهو مسرح عرائسي بالأساس. . فلماذا لا نستخدم الممثلين فنلغي منهم الإحساس المفرط ويكون الشكل العام سردا (وهذا وارد في شكل النّص)؟. .

وهذا ما حدث فعلا والعمليّة صعبة جداً إذ لا مجال في هذا النّوع من المسرح للإرتجال والتّسيّب العاطفي. . وعلى هذا كان «برتولد بريشت» الذي يدعو إلى نبذ العاطفة والوصول بالمسرح إلى عقل المتفرّج قد وجد في مسرح «النّو والكابوكي والبنراكو والكيوغين» ضالّته، فاستغلّ هذه الأشكال وساعدته على الوصول إلى غايته.

الممثل إذن ينقل إلى المتفرّج دلالات بكلّ مكوّنات جسده، أي برأسه ويديه وساقيه وعضلات جزئه الأعلى وحتّى حنجرته وقد كان «بتربروك» يدعو دوما ممثّليه أن يجدوا دلالات من خارج ذواتهم حتّى لا يغرقوا في العواطف ويفقدون الدقّة في التّعبير والتّبليغ. هذا النّوع من المسرح يعتمد أيضا القناع ويعتبر المسرحيّون القناع أكثر ثراء من الوجه وأكثر حقيقية.

من كلّ هذه المنطلقات اندفع حسن المؤذّن في مغامرة البحث عن الشكل الذي يلائم نصّ محمّد العوني.

فمنذ بداية المسرحيّة تراءى لنا الفضاء على غير ما تعوّدنا عليه. . لكأنّنا أمام لوحة ذات رسم صيني . . نهر بالاضاءة (إضاءة تحت المنصّة) والرسم هما «المراكبي والورّاق» بملابس مكيفة على نعت الكيمونو ووجوه مقيّقة كالأقنعة. . المراكبي يجذّف على وقع إيقاعات منتظمة، وحركة التّجذيف هي التي تحدّد في أذهاننا وجود المركب. لكأنّنا إزاء رقصة باليه في مساحة ضوئية صغيرة تحسّسنا بتراقص ضوء القمر على لجّة الماء. . هذه الشاعريّة لا شكّ أنّ ما يعادلها قطعا هي شاعريّة النّص،

الكلمات والصوّر تتناغم والمشاهد يحسّ بمتعة نادرا ما يجدها في المسارح العاديّة..

المهمّ هو أنّ هذا الإيقاع يصل إلى النّهاية بدون أي خلل، فالصّعب ليس في البداية ولكن في الاسترسال المرتّب. هذا الاسترسال يوجب على الممثلين أن يكونوا يقظين منتبهين حتّى النّهاية، فكما أسلفنا فإنّ هذا المسرح يلغي الأحاسيس ويعتمد الجماليّة بتوخّي الحركة المدروسة والدقيقة..

فالممثّل عندما يمشي نحسّ وكأنّه يتزحلق..عندما يجلس لكأنّه كتلة من الصلصال منحوتة.. وأذكر فيما أذكر ذلك التّصادم الفكري بين المراكبي والورّاق والذي جسّده الممثّل الطاهر عيسى بلعربي جسدياً ببراعة فائقة تدلّ على أنّ هذا الممثّل قد شرب منابع الشرق وارتوى .. كذلك الأمر بالنّسبة لإيمان النّاصري التي استطاعت أن تؤدّي دورها المتراوح في الزّمن ما بين عهد الكهولة وعهد الشّيخوخة ومن خلال استخدامها للمروحة الصينيهة أستحضر عديد الدلالات والمعاني في استعمالها لدى ممثّلي مسرح «النّو» الصينيين إذ أنّ كلّ حركة بالمروحة سواء في الأعلى أو في الأسفل لها معنى خاص كأن ترفعها إلى حدّ العينين وبحركة حزينة من الرأس ويعني ذلك أنّها تمسح دموعها..

كذلك الأمر بالنّسبة لعامر المثلوثي وياسين العبدلّي وبهرام العلوي فقد كانوا جميعا في مستوى من الإتقان والإضافة ممّا ينبئ بمواصلة البحث في مجال المسرح الشّرقي الذي يسحر الألباب..

إنّ المركز الوطني لفنّ العرائس لا ينفك يبدع ويضيف مع محمّد العوني ورفيق دربه حسن المؤذّن. فهل من مزيد ؟

فنون

نوبـــة النّـــوى التّونسيّـــة

لسعد الزّواوي

إنّ الدّراسة التّحليليّة التّي أنجزناها في إطار بحثنا حول الطّبوع التّونسية مكّنتنا من التّعرّف عن كثب على تركيبة كلّ النّوبات شكلا و محتوى. وقد تبيّن لنا أنّ نوبة النّوى وردت منقوصة من أجزاء لم تحتفظ بها الذّاكرة الجماعيّة. فعمدنا إلى إعادة صياغتها وإكمالها و تعريفها بطريقة تقربها إلى الجمهور (1).

وفي دراستنا هذه نهتمّ بنوبة النوى على الصعيدين :النّظري و التطبيقي. ففي مرحلة أولى نلفت النظر إلى بعض الجوانب التاريخية التّي تخصّ طبع ونوبة النّوى. ثم نسعى في مرحلة ثانية إلى تقديم النّوبة في شكل جديد معتمدين في ذلك على قراءة موسيقيّة جديدة. كما نقدّم تلحينا للأقسام النّاقصة حريصين في نفس الوقت على الوفاء للموروث الفنّيّ والاقتراب كذلك من مستوى الاستماع لدى المستمع التّونسي المعاصر.

1 ـ الجانب النّظـــري

أ ـ النّـوى لغة :

جاء في لسان العرب: «النوى من التحوّل من مكان إلى مكان آخر أو من دار إلى دار غيرها . . . والنّاوي: الذي أزمع على التحول . . . والنّـوى أو النية و معناها القصد لبلد غير البلد الذي أنت فيه مقيم»(2) ويضيف منجد الطلاب، «النّوى أيضاً البعد. . . الوجه الذي يذهب فيه وينويه المسافر»(3).

واضح إذن من خلال هذين التّعريفين أنّ النّوى يعني في الأصل أساسا الفراق والهجر فماذا عن معناه اصطلاحا؟

وهل من وشائج بين المعنيين؟

ب ـ النــوى اصطلاحًا :

يقول الصفدي «ومبدؤه من بردة أصل الجهاركاه إلى نصف بردة السيكاه، وتمتدّ إلى بردة الدوكاه، ثم إلى بردة الراست، وهو المحط.(4)».

و جاء في كتاب الشجرة ذات الأكمام « ...وأما الفرع الثاني، وهو النوى، فصفة استخراج الشعبة الأولى من شعبتيه وهو (نوروز ناطق) هو أن تبدأ من أصل الدوكاه إلى السيكاه، إلى نصفها ثم تهبط إلى السيكاه، إلى الدوكاه إلى أصل الراست، ثم إلى الدوكاه وهو المحط» .(5)

نلاحظ أنّ التعريف الأول يعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي و الثاني إلى القرن السادس عشر. و معنى ذلك أنّ مصنّفات المقامات العربية خلال القرون الوسطى تتضمن ما يفيد الإقرار بوجود مقام النوى.

من جهة أخرى تجدر الإشارة أن الموسيقيّين التونسيّين كانوا لا يتداولون بكثرة هذا الطبع لأنهم يتشاءمون منه فلا يقدمون منه سوى وصلات قصيرة و يتحاشون تقديم نوبة كاملة.

و يؤكد المنوبي السوسي هذا الموقف قائلا :

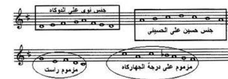
هكذا يبدو أنّ نوبة النوى قد تعرّضت إلى نوع من الإقصاء أو على الأقلّ من التهميش قلّص من تداولها بين المجموعات الموسيقيّة، فكان أن سقطت بعض الأجزاء من النّوبة، فاختلّ بذلك ترتيب أقسامها وأصبح الموسيقيّون يكتفون بعزف بعض البراول كلّما دعت الضّرورة. و نحن نقدّم في الجدول الموالي مختلف الأقسام والأجزاء المكوّنة لنوبة النّوى مع التّنصيص على الإضافات التّي قمنا بها لاستكمال نواقصها :

Nawa est la prononciation dialectale tunisienne du mot arabe «nawa» qui signifie: éloignement, ou le lieu auquel on se propose de parvenir... Selon une superstition populaire qui a du reste crédit même dans les milieux bourgeois, le mode nwa a le pouvoir de provoquer la séparation des amis. Il est à ce titre frappé d'une sorte d'interdit, que l'on se plait, du reste, à enfreindre avec plaisir (6).

القسم	الجزء	المضمون	ملاحظات
الاستفتاح والمصدرّ	الاستفتاح	مفقود	تلحين المؤلّف
	المصدر	مفقود	تلحين المؤلّف
	الطّوق	مفقود	تلحين المؤلّف
	السّلسلة	مفقود	تلحين المؤلّف
البطائحيّة	دخول الأبيات	إذا سعدت	تغيير في التنفيذ
	بطائحي 1	من يعشق الغزلان	تغيير في الحركيّة الايقاعيّة
	بطائحي 2	ما هو بالإختيار	
	بطائحي 3	خلوني مع حمامي	
	بطائحي 4	ما هي لذّة الغزلان	تنويع في الخلايا اللّحنيّة
	بطائحي 5	طاف علينا بكاس الراح	
	بطائحي 6	يا من هو مولوع	
	بطائحي 7	خدمني سعدي	
	بطائحي 8	لي في حماكم مسائل	
التّوشية		مفقود	تلحين المؤلّف
البراول	برول 1	نعمل حُضيرة	
	برول 2	الهوى سلطان	
	برول 3	إن كنت من أهل الهوى	
	برول 4	اش لزني صرت نعشق	إضافة جمل لحنيّة .
	برول 5	لقد نقلها الخليفة	
	برول 6	ركبت بحرا من الدموع	
	برول 7	تغنى حمام البستان	
	برول 8	هيا رقيب	
الأدراج	درج 1	قد طاب التفاح	
	درج 2	حياك السحر	
	درج 3	يا جيرة انزلوا	
	درج 4	أصبحنا جميع	
الخفائف	خفيف 1	هل ترى يا حبي	
	خفيف 2	في ساعة بدت هنية	
	خفيف 3	أحبة قلبي عزمتم رحيلا	
	خفيف 4	الخلاعة نقيم على وادي فاس	
	خفيف 5	يا أهيل الحمى	
الأختام	ختم 1	ليس لنار الهوى خمود	اعتماد التدرّج نحو القفلة
	ختم 2	يا أملح الناس	

وقد ارتأينا القيام "بترميم" هذه النّوبة فقمنا بتلحين الأجزاء النّاقصة وفق التمشّي التّالي :

- تحليل للأقسام المتداولة في النّوبة ثمّ استخراج الأجناس المكونّة لها وتصنيفها.



- تعداد الخلايا الإيقاعيّة التي أمكن استخراجها من مختلف الموازين المكونّة للأقسام، ثمّ ترتيبها حسب تواترها.

- تعداد الخلايا اللّحنيّة التي أمكن استخراجها من مختلف الأجناس اللّحنيّة المكونّة للأقسام، ثمّ ترتيبها حسب تواترها.

- استنتاج الخلايا الإيقاعيّة - اللّحنيّة المميّزة للطبع.

- إعادة كتابة الأقسام الموجودة مع اعتماد الأساليب الجديدة في الكتابة الموسيقيّة والتّي نقترب من خلالها إلى دائرة الاستماع المعاصرة.

مع التّأكيد على ضرورة الالتزام بالمميّزات الأساسيّة للطبع حتّى نتمكّن من المحافظة على الرواية الأصليّة. (مثال البطائحي الرّابع).



وضع ألحان الأجزاء النّاقصة مع الأخذ بعين الاعتبار كلّ ما تمّ استنتاجه من خلال الدراسة التّحليليّة وذلك على النّحو التّالي:

التقيّد بنفس القالب بالنسبة للاستفتاح والمصدّر والطّوق والسلّسلة و كذلك التّوشية.

اعتماد ثلاث خطوط لحنيّة متوازية موزّعة على النّحو التّالي:

- خطّ لحني خاص بآلة العود و القانون و النّاي
- خطّ لحني ثان خاص بآلة الكمنجة
- خطّ لحني ثالث خاصّ بآلة الكمان الجهير والكمان الأجهر

وتجدر الملاحظة أنّ الخطوط الثّلاث تتكامل لنسج اللّحن المناسب و المتناسق مع بقيّة أقسام النّوبة. وقد حرصنا على تثبيت الخلايا اللّحنيّة المميّزة لطبع النّوى من خلال أحد الخطوط اللّحنيّة المذكورة. هذا إلى جانب ترك مجالات للعازف قصد القيام بالارتجالات الآنيّة والتّي تبرز خاصّة في قسم "التّوشية" . علما بأنّها كانت تمثّل عنصرا قاراً في الممارسة الموسيقيّة القديمة.

2 ـ الجانب العملي

لقد قمنا، مثلما ذكرنا آنفا، بقراءة موسيقيّة جديدة لنوبة النّوى اعتمدنا فيها على آليّات التّعبير الحديثة. وقد استوجب منّا ذلك توظيف عدد كبير من الآلات الموسيقيّة (مقارنة بآلات التّخت التّقليدي)، بالإضافة إلى تلحين الاستفتاح والمصدّر والتّوشية.

2 ـ 1 ـ الاستفتاح

كان الاستفتاح قديما عبارة على هيكل موسيقي يرتجل فيه أحد العازفين، تم مع الرّشيديّة ضبط مجموعة من الجمل المميّزة لطبع النّوبة يتكفّل عازفو الآلات اللّحنية بتنفيذها في شكل حرّ غير مقيّد بوزن موسيقي أو بخلية إيقاعيّة مضبوطة. وقد حاولنا من خلال تأليفنا لهذا القسم الآلي من النّوبة، أن نجمع بين الشكل التّقليدي وبين تقنيات الكتابة الموسيقيّة المعاصرة والتّي تقوم على التنوّع والتكامل بين الأصوات l'ethero-Phonie وذلك كالآتي:



2 ـ 2 ـ المصدّر

هو يقارب شكل و تركيبة البشرف التّركي غير أنّ مساره المقامي "التزم" بمميّزات النّوبات التّي ينتمي إليها، بالإضافة إلى الوزن الموسيقي الّذي زاد في تأكيد اللّهجة المقامية التّونسيّة. فأصبح بذلك من القوالب الموسيقيّة التّونسيّة والتّي رغم محدوديّة عددها(7) تميّزت بخصوصيات تتفرّد بها عن القوالب المشرقيّة والتّركيّة. وقد التزمنا بوضع اللّحن المناسب لطبع النّوى والمتوافق مع الخصوصيات الإيقاعيّة واللّحنية للنّوبة. وبذلك احتوى المصدّر الخاص بنوبة النّوى على أربع خانات يتخلّلها تسليم يعزف بعد انتهاء كل خانة. وتخضع جميع هذه الخانات لوزن واحد هو وزن المصدّر:

6/4

2 ـ 2 ـ 1ـ الطّوق:

وهو يتبع نفس النّسق اللّحني للمصدّر مع تغيير طفيف في الدّيناميكية الإيقاعيّة:



2-2-3 – السّلسلة

هي جملة موسيقيّة متكوّنة من تسلسل خلايا لحنيّة وإيقاعيّة محدّدة، وهي لا تلتزم بخصوصيّات طبع النّوبة بل إنّ كلّ النّوبات تعتمد على نفس هذه الجملة مع تغيير طفيف في مستوى اللّحن. وقد اعتمدنا على نفس الجملة لتلحين مصدر النّوى وذلك على النّحو التّالي:



2-3- التوشية:

تحتوي التّوشية على قسمين اثنين ينبني الأول على إيقاع ثنائيّ (وزن البرول) والثّاني على إيقاع رباعيّ (وزن البطائحي) وهي اعتبارا لموقعها في منتصف النّوبة، تكون في صياغتها اللّحنيّة بمثابة الإشهار للنّوبة القادمة. وإذا علمنا أنّ النّوبات التّونسية تخضع إلى تنظيم محكم و ترتيب محدّد، فإنّ التّوشية المفقودة تكون في طبع الأصبعين.

إنّ هذه المحاولة المتواضعة التّي قمنا بها والتّي كان الهدف منها تقديم نوبة النّوى في صيغة جديدة، تمّ عرضها في عديد المناسبات المختلفة. و لعلها تصبح نموذجا يحتذى للمساعدة على إنجاز مقاربات موسيقيّة معاصرة لكلّ المالوف التّونسي.

الهوامش والإحالات

1- لقد حرصنا على تقديم هذه النوبة إلى الجمهور العريض حتّى نساهم في التّعريف بها وبالإضافات التي قمنا بها. وقد تمّ عرضها إلى حدّ الآن في المهرجانات التّالية:
- اختتام المهرجان الدّولي للموسيقى التّقليديّة بتستور (جويلية 2004)
- افتتاح أيام قرطاج المسرحيّة مناتمالاتتتار تغار لؤلؤي - عرض بمهرجان المدينة بقابس.
- عرض بمهرجان المدينة بالمهديّة.

2- ابن منظور (جمال الدين)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، المجلّد الخامس عشر، ص 384

3- البستاني (فؤاد افرام)، منجد الطلاب، بيروت، شركة الطبع والنشر اللبنانيّة، الطبعة السابعة والأربعون، 2000، ص 853

4- الصفدي (صلاح الدين)، رسالة في علم الموسيقى، تحقيق عبد المجيد دياب وغطاس عبد الملك خشبة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، الطبعة الأولى، 1991، ص 139.

5- مجهول المؤلف، كتاب الشّجرة ذات الأكمام الحاوية لأصول الأنغام، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة وإيزيس فتح الله، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1983، ص 75.

6- Snoussi (Manoubi)m Initiation a la Musuque Tunisienne 1 (musique classique),p.53.

7- يبلغ عدد البشارف التّونسيّة تسعة وهي كلّها مجهولة وتتوزّع على النّحو التّالي: خمسة بشارف (مزموم، نيرز، نواصي، رمل، قماروn) وأربعة بشارف سماعيّات (اصبعين، سيكاه، رصد الذّيل، الكبير) هذا ونودّ الإشارة إلى أنّ البشرف التّونسي يتركّب من قسمين: الأوّل يكون على إيقاع بطيء كالمربّع تونسي أو السماعي ثقيل، وقسم ثان يسمّى الحربي يكون على إيقاع سريع كالختم أو وزن الحربي.

متابعات

الشيخ المصلح سالم بوحاجب:
تأصّل المرجعيّة التونسية في مجال الإصلاح والتنوير

فتحي القاسمي*

انعقدت في رحاب المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» ندوة علميّة حول المصلح التونسي الشيخ سالم بوحاجب كامل يوم الجمعة 27 جانفي 2006 وقد تولّى افتتاحها الأستاذ الدكتور محمد العزيز ابن عاشور، وزير الثقافة والمحافظة على التراث. وقد أثير في الجلستين العلميتين جمٌّ من القضايا والإشكاليات التي تتنزّل في إطار تجلية ملامح المدرسة الإصلاحية التنويريّة التونسيّة وبيان خصوصياتها ومظاهر الفرادة فيها.

فما هي العلامات المميّزة للشيخ المصلح سالم بوحاجب ؟ وإلى أي حدّ أسهم في بلورة خطاب إصلاحي تنويري استشرافي في تونس وهل كان لآرائه ودروسه التي امتدّت خمسا وستين سنة تأثير في أجيال طلبته وطلبة طلبته وماذا يبقى من هذا المصلح بعد مرور تسع وسبعين سنة على ولادته (1847) وإحدى ثمانين سنة على وفاته (1924) ؟

إنّنا إزاء مصلح برز في علوم كثير (اللغة ـ الفقه ـ المقاصد ـ المنطق ـ الجدل ـ التفسير ـ الحديث ...) وفير الزّاد وجاب المغرب والمشرق. وتخرّجت على يديه صفوة علماء الزيتونة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين من أمثال إسماعيل الصفايحي ومحمد السنوسي ومحمد النجّار والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومحمد الخضر حسين وصالح الشريف وغيرهم. وليست الغاية من تناولنا لهذا اللقاء العلمي تعقّب المداخلات وتلخيصها وإبراز مضامينها(1) وإنّما نروم وضعها في الإطار المعرفي والحضاري والاجتماعي والديني وبيان ما يترتّب عن ذلك من إشكاليات متّصلة بمسيرة الإصلاح في الفكر التونسي، جديرة بعناية الدارسين خصوصا أنّ الشيخ بوحاجب عاش على امتداد قرن جلّ أحداث عصره ولم يكن من الذين يؤمنون بأن الوقوف على الربوة أسلم، بل سعى مثل لفيف من المصلحين التونسيين الحركيّين إلى إنتاج خطاب إصلاحي صريح وهادئ ينخرط بوضوح وثقة في مسار معرفي كوني يُراهن على العلوم وأسباب التطوّر والمدنيّة وأن كره المغالون من شيوخ الزيتونة ممّن نظروا إلى آراء هذا الشيخ المستنير «بعين السخط»(2). ويمكن اختزال تلك الإشكاليات التي تمحورت حولها المداخلات والنقاش في أربع أردناها جامعة لأهمّ ما تمّ التطرّق إليه والتساؤل عنه :

1 ـ الإشكالية الأولى: تضافر عوامل كثيرة لبروز هذا الركن الإصلاحي المتين: خطي الشيخ سالم بوحاجب القادم إلى الحاضرة التونسية من قريته الساحليّة «بنبلة» وبعد حفظه للقرآن واتقانه لمبادئ الكتابة، بعناية العلماء وقد تتلمذ في جامع

* أستاذ الحضارة بالمعهد العالي للّغات بتونس.

الزيتونة على ثلة من كبار العلماء من أمثال الشيخ إبراهيم الرّياحي والعالم محمد بن ملوكة والشيخ محمد بيرم الرّابع الذي استنجبه وقرّبه وفتح له أبواب مكتبة الجامعة «واتّخذه صديقا يطارحه الأدب ويساجله الشعر»(3)، والشيخ المصلح محمود قابادو، وارتبط بالشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الجد، واقترن احتكاكه بهؤلاء العلماء المالكيّة والحنفيّة بدوام المحاورة والمجادلة والجرأة «في مراجعة الشيوخ»(4).

وكانت علاقته الحميمية والعلمية هذه كفيلة بتجذير ثقافته الدّينيّة وحمله على الاستزادة من المعارف الشرعيّة والعقليّة والنقليّة وأتيحت له فرصة نادرة لملازمة أحد أقطاب الإصلاح وهو الجنرال حسين وسافر معه إلى إيطاليا حيث أقام الشيخ سالم ست سنوات كاملة، واستطاع أن يطّلع عن كثب على فتوحات العلم ومظاهر المدنيّة والتطوّر في كلّ من إيطاليا وفرنسا التي زار معرضها السنوي العالميّ الذي تُعْرَضُ فيه أحدث ما توصّل إليه الفكر البشري. وكان الشيخ سالم مواكبا عن كثب في إيطاليا للتحوّلات الكبرى التي أضحت عليها الكنيسة والعزلة التي كان يعاني منها البابا بيّوس التّاسع. ونعتقد أنّ أثر الشيخ سالم في مؤلفات الجنرال حسين شديد الوضوح(5). وكذا الشأن بالنّسبة إلى خير الدين التونسي أيضا، الذي كان معجبا بهذا الشيخ ومقدّما له وموقنا بأنّ سبيل الصّلاح يكمن في «تعاون بين رجال السياسة والعلماء من أجل النّهوض بمصالح الأمّة من طريق تطبيق التنظيمات»(6). وجسّم ذلك في كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، وقد أقرّ في خاتمته باستعانته في تهذيب ألفاظ كتابه «ببعض أبناء الوطن»(7). ومن أهمّهم الشيخان سالم بوحاجب ومحمد بيرم الخامس، والناظر في تقاريظ كتاب خير الدين يتأكّد من بصمة الشيخ سالم من خلال ثلاثة تقاريظ حبّرها الشيخ سالم في هذا الكتاب، اجتمعت على تأكيد فضل الكتاب وأنّه «أقوم مسلك»(8) و«أساس للسيّاسات»(9) ويمتاز بـ «أدلّة العقل والتجارب»(10). ونزعم أنّ تأثير الشيخين سالم بوحاجب وبيرم الخامس يتجاوز «تهذيب الألفاظ» وإصلاح الأخطاء ليطال الأطروحات الخيريّة المتّصلة مثلا بضرورة أن يكون للشريعة دور في حياة المسلمين وفي السياسة. ولا شك أنّ استدلال خير الدين في خاتمة مقدمة مخطوطة أقوم المسالك برسالة في السّياسة الشرعية كان قد ألفها الشيخ محمد بيرم الأول في آخر القرن الثامن عشر واعتباره هذا الشيخ «محط رحال الإفتاء بالديار التونسيّة، من لم يزل على نقوله وأفهامه المعول»(11) دليل على توفّق خير الدين إلى هذه الرّسالة العلامة بفضل الشيخ محمد بيرم الخامس وصديه الشيخ سالم بوحاجب.

ومن العوامل التي صقلت مواهب هذا الشيخ ونمّت مداركه ودعمت حضوره الفكري وتأثيره في المسار الاصلاحيّ كثرة احتكاكه بالمصلحين وانفتاحه على الآخرين وتردّده على المجالس والنوادي الخاصّة التي كان يعقدها ثلة من العلماء والوجهاء من أمثال أمير الأمراء محمد البكوش بأريانة وطاهر الزاوش بالمرسى فضلا عن صالون الأميرة المصريّة نازلي زوجة ابنه خليل بوحاجب وكانت تعقده بالمرسى أيضا. وكذلك مجلس الشيخ محمد بيرم الرابع بتونس.

وقد حظي الشيخ سالم بمواكبة المدنيّة الغربيّة وفهم أسرارها وكان احتكاكه بالجنرال حسين من

أهمّ العوامل التي جعلته يتقن اللسان الايطاليّ ويعود إلى طلبة الزيتونة فيحدثهم بغيرما ألفته أسماعهم من خلال إقحامه لألفاظ دخيلة اقتضاها العصر، وتعرّضه الى بعض الأعلام الإيطاليين مثل مكيافال(Machiavel)ولوكريس(Lucrèce)وغيرهما.

إنّ كلّ ذلك جلب التقدير والتمكين لهذا الشيخ من لدن العلماء وكذلك البايات الحسينيين(12) خصوصا أنّ الشيخ سالم كان أستاذ محمد الناصر باي ومربيه وهو «الأب الروحي والمعلم والمرشد لأبناء الأمير المنصف والهاشمي. وحسين»(13). وكان يعمّق تلك الثقافة وينقلها بما أوتي من علم وفصاحة إلى الطلبة المتهافتين على دروسه بالزيتونة، وقد شهد البشير الفورتي بعض دروس الشيخ فلاحظ أنه «يتدفق كالسّيل المنهمر ويجلو عرائس المسائل في أبهى حلّة بلسان عذب وفكر ثاقب»(14). وتفطّن إلى نباهة هذا العالم صديق خير الدين المصلح اللبناني أحمد فارس الشدياق الذي «نصح خير الدين باحتضان هذا الشاب الزيتوني المتحمّس فقال «إنكم لن تنالوا نهضة مُبكّرة ما دام الشيخ سالم بوحاجب لا يجد مكانا بينكم». كما أورد ذلك الأستاذ علي دب في محاضرته حول منزلة الشيخ سالم بوحاجب في الفكر الاصلاحي بتونس(15). ويبدو أن خير الدين وجمهور المصلحين بتونس عملوا بنصيحة الشدياق فتجمّعت للشيخ سالم كلّ العوامل التي رشحته لاكتساب المنزلة الرّفيعة في قلوب التونسيين ومن عرفه من أهل المشرق والمغرب وأوربا.

2 ـ **الإشكالية الثانية**: تعدّد مسالك تجديد الخطاب الدّيني لدى الشيخ سالم بوحاجب.

إنّ شخصيّة الشيخ المصلح سالم بوحاجب كما ورد في الورقة العلميّة للندوة تكتسي «أهميّة كبيرة في تاريخ الفكر الإصلاحي التّونسي لأنّه استطاع بعمره المديد وبتنوّع مجالات اهتمامه وبتأثيره المباشر وغير المباشر في الحياة الفكرية والثقافية والدينيّة بتونس أن يكون أحد أركان النّهضة العلميّة بها»، ويمكن القول إنّ تجربة زهاء سبعة عقود في مجال التّدريس بالجامع الأعظم كانت كفيلة بترسيخ الأفكار التي تشبّعت بها الشبية الزيتونيّة وحتّى الصادقيّة بفضل شيخ المصلحين هذا الذي كان جامعا باقتدار بين القول والعمل فهو أحد أعضاد الجنرال حسين عندما تمّ تعيينه على رأس أول مجلس بلدي بالحاضرة تونس سنة 1858، وكان أحد أفراد الوفد الذي ترأسه خير الدين في اتّجاه الأستانة سنة 1872 وكان عضوا نشيطا في المجلس الكبير منذ 1861 ورئيسا لأقلام التحرير في الكومسيون المالي، واضطلع قبل ذلك بدور هام في صلب المجالس العدلية المتمخضة عن عهد الأمان. كما أنّه كان إماما خطيبا بجامع سبحان الله و«يُلقي كلّ سنة في رمضان بجامع سبحان الله درسا في صحيح البخاري ودرسا من كتاب الموطإ في المدرسة المنتصريّة ويشهدها صاحب المملكة التونسيّة سموّ الباي وكبير الوزراء في مجمع حافل من أعيان العلماء وتجري فيهما مباحثات من أقران الأستاذ أو نجباء تلاميذه»(16)ويبدو لنا أنّ ذلك كلّه اقترن بقدرة الشيخ الفائقة على المجادلة في كل المواقع التي حلّ بها واستماتته في الحجاج وملاحقة أهل اللجاج والعناد بما أوتي من الحجة والدليل والبرهان والمحاورة. وقد ذكر تلميذه الشيخ محمد الخضر حسين في حفل تأبينه في الأزهر

صيف 1924 أن الشيخ بوحاجب خاطبه أحد رجال الدّولة في مجلسه قائلا «**اعتقد ولا تنتقد**» فقال الأستاذ: ليس الاعتقاد ممّا تعتنقه النفس لمجرّد الاختيار وإنّما هو من قبيل العلم الذي لا يرتسمُ فيها إلاّ بمؤثّر **حجة وبرهان**»(17). وقد كان هاجس تجديد الخطاب متعدّد المسالك موحّد الهدف وهي في نظرنا أربعة:

* المسلـــك التربـــوي:

اقترنت دروس الشيخ بوحاجب بمجموعة من الخصوصيات البيداغوجيّة التي جعلت دروسه «محطّ رحال الطّالبين»(18) بالزيتونة لأنّه تخلّى عن ظاهرة الإملاء والتلقين وكان يكره النقول وظلّ «**نزاعا للنظر إلى الأصول العالية في كل فن مستقلّ الفكرة في بحثه ولوعا بمناقشة الآراء واستنباط الأفكار وابتكار الأنظار**»(19). وقد كان التزامه بهذا النهج في دروسه مقترنا بتناول أمّهات الكتب شرحا وتمحيصا وتعليقا مثل شرح العضد على مختصر ابن حاجب، وشرح القسطلاني على صحيح الإمام البخاري، وشرح المطوّل للسعد التفتازاني «**وكان يجلس لدرس هذه الكتب وغيرها على منصّة التحقيق ويخوض عبابها بنظر مستقلّ وينطق فيها بلهجة مجتهد نحرير**»(20). وكان هذا الشيخ حريصا على تعويد طلبته على النظر إلى الأشياء بروح نقديّة ومستقلة وكثيرا ما «يغمر الباحث النجيب بعبارات الثناء تشجيعا له على البحث وأخذا بيده إلى أن يسير مع أصحاب الآراء والمؤلفين على مقتضى حكمة من يقول: **هم رجال ونحن رجال**»(21).

وكان لمثل هذه المواقف التنويريّة الأثر البالغ في جمهور طلبته وقد سار على نهجه عدد هام من خريّجي الزيتونة ودلّت آثارهم وأفكارهم على ذلك من أمثال الشيخ عبد العزيز الثعالبي ومحمد الطاهر ابن عاشور وإسماعيل الصفايحي ومحمد السنوسي ومحمد العزيز جعيّط ومحمد النجار ومحمد بن يوسف ومحمد الخضر حسين الذي وجد في أستاذه خير مؤازر له(22) عندما كثر نعيق السّاعين إلى إيقاف مجلّته «السّعادة العظمى» ومن أهم ما ميّز هذا المسلك التربويّ المراهن على النظر العقليّ امتداده إلى طلبة الزيتونة الذين حاولوا محاكاة الشيخ سالم وهم مدرّسون بمختلف طبقاتهم، إلاّ أنّ النهج لم يحظ لدى العديد من نظراء الشيخ بالقبول والتثمين فتعدّدت الانتقادات التي ردّ عليها تلميذه محمد باش طبجي في كتابه روضة الانبساط في تحقيق المناط.

* المسلك الدّينيّ: وظف الشيخ بوحاجب ثقافته الدّينيّة الراسخة لخدمة الاسلام والمسلمين وأحكم استعمال الآليات المكرّسة لنهجه الاجتهاديّ التنويريّ الذي تعدّدت مواقعه. فقد أسلفنا التنبيه إلى مراهنة هذا الشيخ على الدّرس بالزيتونة لحثّ الطلبة على رفض المسلّمات واتخذ من خطبه الجمعيّة وسيلة للإمعان في نقل الوعي إلى عامة الناس وخاصتّهم، وقد جلّى الأستاذ كمال عمران أهمّ ما يميّز تلك الخطب ولاحظ أنّها تعلن رؤيتين الأولى تحدد وظيفة العالم الزيتوني في ظرف كانت فيه السّيادة للمثقف ثقافة عصريّة مدرسيّة وأمّا الرؤية الثانية فإنّها تجعل الخطاب الدينيّ مارقا عن الرؤية التقليديّة لأنّه خطاب مؤمن بالتمدّن والتطوّر ويتّخذ من الخطابة عنصرا من عناصر الإصلاح. وهذه الخطب التي طبعت للشيخ سالم وهو حيّ ليست إلاّ غيضا من فيض آلاف الخطب التي لا نعرف مصيرها وقد

لاحظ الأستاذ كمال عمران أنّ ارتباط القسم القليل من تلك الخطب المنشورة بعلم التوحيد وشمائل النبيّ عليه الصلاة والسلام وأنّ أكثرها حام حول الواقع الاجتماعيّ وظاهرة الظلم التي تناولها الشيخ سالم من زاوية اجتماعيّة تحاشت البوح بسخطه على السياسة والقيّمين عليها في تونس زمن الاستعمار، ولكنه لم يُخف إثارة ما تُخلّفه السياسة الجائرة والخرقاء من مظاهر الأنانيّة والنّزوع نحو التعسّف والاكراه ويمكن أن نقيس على ذلك عددا من دروس أختام الحديث النبويّ التي دونّها الشيخ سالم بنفسه و«تنيف عن الستّين درسا على موضوعات مهمّة من الموطإ ومن صحيح البخاري»(23).

إنّ الخطبة الجمعيّة بالنّسبة إلى هذا الشيخ تتعالى عن الوعظ والارشاد كما أكدّ الأستاذ كمال ذلك وتتمحّض للقضايا الحيّة التي تقتضي معالجة متعقلة تستثمر العمق المقاصدي للشّريعة ولروحها التحرّريّة وفي ذلك تكمن ظاهرة «النباغة» التي لاحظها السنوسي في شيخه (24). وقد اجتمعت له البلاغة والنباغة في خطبه ودروسه فكان كما يرى بعضهم «**أولّ مصلح بطريقة الخطابة الدينيّة**»(25) . وقد اجتمعت له البلاغة والنباغة في خطبه ودروسه فكان كما يرى بعضهم «**أول مصلح بطريقة الخطابة الدينيّة**».

- المسلك الحضاري :

كان الشيخ سالم بوحاجب من الزيتونيين القلائل العارفين ببعض اللغات الأوروبية والمدركين لقضايا العصر وتداعيات الحياة الحديثة وقد عُرف بكثرة جدله للآخر ومحاورته للعلماء وبعدد من المستعربين من الفرنسيين والايطاليين وحتى الألمان(26). ويعتبر ترشيح هذا الشيخ لافتتاح نشاط الجمعية الخدونيّة بمباركة من سلطة الحماية وتحمّس عدد من الصادقيين في ربيع 1897، دليلا على منزلة هذا العلم وقد لاحظنا أنّ ذلك الدّرس الافتتاحيّ يحمل مشروعا حضاريا انقلابيا على السّائد من الأفكار والأوضاع المهترئة، وينتصر إلى العلوم العصريّة وتعلم اللغات ويعتبر ذلك التلازم بين المعارف واللغات شرطا أساسيّا لكلّ نهضة منشودة وربط ذلك كلّه بملكة العقل المركب في الانسان، فالعقل هو «**الآلة الوحيدة لذلك التدبير**»(27) ، والعلوم والمعارف التي حثّ على امتلاكها «**هي الوسيلة الوحيدة لعمران الأرض**»(28). وأمّا اللغات فهي «**من أوكد الوسائل لعمارة الأرض**»(29). فهذا البناء الثلاثي الأضلاع في تفكيره نابع من ثقافته الرياضيّة واتّصاله بأهل الفكر والسياسة ومراهنته على الاتّجاه العلميّ التنويريّ. وقد كان الشيخ بوحاجب شديد الحرص على تضافر هذه الأضلع الثلاثة وتفاعلها لأنّها مرتبطة بالعلوم الدنياوية وقد كرّس قاعدة فقهيّة مفادها أن «ما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب» وفي ذلك دليل على وعيه بأنّ طريق العلم والمدنيّة ليس «رجسا من عمل الشيطان» وأنّ الأخذ بناصية العلوم وتبنّي الألفاظ العصريّة(30) وغير العربيّة تبْصرةٌ للعقول «**أفيظنّ بعد هذا أن عاقلا أو متدينّا يذمّ العلوم الموصلة لهذا النفع العام**»(31) ولا أدلّ على هذا الانخراط في تيار التحديث من إلحاقه لجميع أبنائه بالمدرسة الصادقيّة فكان منهم المحامي (أحمد) والوزير بل الوزير الأكبر ـ(خليل) والفيزيائي (حسين) والموظف السامي (عمر).

وقد انتقد الشيخ سالم بوحاجب الذين لا

يواكبون الابتكارات والمستجدّات العلميّة وحثّ المسلمين على الأخذ بناصية العلوم الدنيويّة لمقاومة كلّ أشكال الاعتداء على حرمتهم فـ «لا بدّ من تعاطي كلّ علم يقتدرُ به على إنشاء المخترعات وتسهيل نقلها»(32).

إنّ ألفاظ التمدّن والتبصّر والعلوم الرّياضيّة والطبيعيّة والمقاصد شديدة الدّوران فيما تركه الشيخ سالم من آثار ويبدو أنّ هذا الهاجس الحضاري ظل هاجسه الكبير بثّه في صدور طلبته ومريديه فكان بذلك «الزعيم الموجّه للحركات الأدبيّة والسياسيّة والصحفيّة والاصلاحيّة أواخر القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين»(33). إنّ غياب مذكّرات الشيخ سالم وأختام الأحاديث النبويّة وشروحه وتعليقاته على بعض أمّهات الكتب تحول دون تمثّل صورة واضحة حول الرؤية الحضاريّة للعالم في فكر الشيخ سالم بوحاجب.

* المسلـك الاجتمـاعي :

كان الشيخ سالم أقرب شيوخ عصره إلى الناس، يندمج فيهم وتحدوه رغبة شديدة في جعل الشريعة الاسلاميّة قريبة من حياة الناس وكان يتخلّى عن الكراريس والأبهة، ويختلط بالأهالي وقد ظل حريصا على التماس مبدإ التيسير في الشريعة واتّجه بها اتّجاها مقاصديا للحدّ من التأويل السّطحيّ للدين ومن عبث الدجّالين واستهتار المشعوذين المتستّرين بألفاظ دينيّة. وتتنزّل قيمة الاتّجاه المقاصديّ لدى بوحاجب في علاقته بالعقل التدبيري والفكر الثاقب وقد أكّد الأستاذ جمال دراويل تشخيصه للإتجاه المقاصدي في هذه الندوة علاقة ذلك بفكرة استخلاف الله للإنسان في الأرض «فما زوّد الله انسان بالعقل الذي به الإبرام والنّقض إلاّ ليُباشر شؤون الحياة وأقضيتها واستحقاقات تحولاتها وتغيّراتها من خلال التساؤل والبحث والنظر والتفكّر والتحليل والتركيب تحقيقا للمقاصد العليا والقيم الخالدة التي بها يسير الإنسان على الدّوام نحو الأفضل»(34). وينطلق الشيخ سالم من رغبة الشريعة الاسلامية المطّردة في إطلاق العنان لطاقات الانسان حتى ينشد الكمال، وهي آخذة بناصية التطورّ وقد بين الأستاذ دراويل أنّه بفضل هامش المقاصد يتحقّق للإنسان «التكليف والمسؤولية» ليكون الانسان جديرا بالاستخلاف والإنسانيّة. وقد كان الشيخ سالم مواجها للرافضين للاجتهاد والتجديد وعبدة فعل الماضي من المقلدين. وكان من أول الناعين على متأخّري الفقهاء التمسّك بظاهر النصوص وإهمال تحقيق المناط ومن الداّعين إلى **تحقيق النظر** لإبراز مقاصد الشريعة وتطبيقها على الأحوال الحاضرة، وداعيا إلى إصلاح التعليم الديني وجعله معاصرا من جهة ومتأصّلا من جهة أخرى. وإنّ مبدأ تحقيق المناط الذي فصلّ القول فيه الأستاذ عبد القادر قحة شكل من أشكال استثمار البعد المقاصدي وقد بيّن أنّ هذا المبدأ لم يكن الشيخ مكتشفه، وإنّما أصلّه في اتّجاه تعصير النظر الديني دون بتره عن الأصول الفقهية والمقاصد الشرعيّة. وقد أكد الأستاذ قحة في محاضرته شموليّة هذا المبدإ في فكر الشيخ سالم وأبان في أطروحته حول هذا الشيخ أهمية الاجتهاد ونجاعة منهج تحقيق المناط. وقد توصلّ إلى اجتهادات تيسيريّة في النكاح والنفقة والشهادة والقسمة والمواريث و«يرتكز في منهجه تحقيق المناط على نظرية محدّدة في الإصلاح تعتمد على الاقتباس من حضارة الغرب مع المحافظة على الأصول العربيّة والاسلاميّة»(35).

إنّ ما يدلّ على أهمية مبحث المقاصد وفضل الشيخ سالم في بثّه في صدور الرّجال تميّز أحد طلبته في مجال المقاصد وغوصه في أعماقه وهو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور صاحب كتاب مقاصد الشريعة الاسلامية(36).

* الإشكالية الثالثة :

مميّزات شخصية الشيخ سالم بوحاجب :

تميّزت شخصية الشيخ سالم بوحاجب بالفرادة واتّسمت الكثير من آرائه بالفذاذة والخروج عن السّبل المسطورة ويمكن رصد طائفة منها وقد تنضاف إليها لبنات عندما يتمّ العثور على مؤلفات له لم تر النور بعد.

- **النزعة العدولية**: يمكن ملاحظتها في كثير من المواقف التي جاهر بها هذا الشيخ وإن كلفه ذلك سخط المحافظين. من ذلك إقدامه على الاقامة في إيطاليا لسنوات مديدة واندماجه في الحياة الأوربية. وقد أثبت له تلميذه محمد السنوسي قصيدتين في الرحلة الحجازية كتبهما في بنتين توأم أشْرِبَ قَلْبُهُ حُبَّهُمَا فباح لهما بما حركَ أشجان قلبه وهو البعيد عن الزوجة والأحبة(37). وله ديوان في جزئين كان موجوداً (38). وقد أثبت له في الندوة الأستاذ رياض المرزوقي نُتَفًا من قصائده المنخرطة في الاتجاه الاصلاحي والعارضة لمحاسن كبار المصلحين من أمثال محمود قابادو وخير الدين التونسي(39). ومن ملامح ظاهرة العدول لديه إقدامه على انتقاد مالك بن أنس صاحب الموطأ ولو اجترأ غيره على ذلك لكان مآله النفي من الايالة مثلما حدث للشيخ المسن أحمد بن المهدي سنة 1875 عندما جاهر بتخليّه عن المذاهب الأربعة وقد كتب الشيخ سالم رسالة مختصرة أبان فيها خطأ لغوياً لمالك في باب من نذر المشيَ إلى بيت الله تعالى وهو رضي الله عنه [مالك] وإن لم يكن من أرباب السليقة العربيّة الذين يُلتزم في كلامهم عدم الحيادة عن قوانينها بل هو من الأيمة الذين يُحتجّ بأقوالهم دون استعمالهم ولكن حمل كلام مثله على مافقة قواعد اللسان واجب ما أمكن»(40). وقد أثار موقف الشيخ سالم غضب محمد بن التلاميد الشنقيطي الذي كان قبل ذلك معجبا بفصاحة الشيخ سالم ثمّ ردّ عليه في كتابه الحماسة السنية الكاملة المزيّة في الرحلة العلميّة الشنقيطيّة.

وقد نعت الشيخ بوحاجب بأبشع الألقاب وكال له الشتائم(41) وطعن في علم الشيخ باللغة ولم يتفطّن إلى تميّز الإتّجاه الاصلاحي في تونس بروح تحرّريّة دون الوقوع في الاتبّاع والتقّليد.

ومن مواقفه العدوليّة التي جليناها في هذه الندوة إصراره الشّديد على مجادلة المتشبّثين لظاهر النص والمعرضين عن تحقيق المناط واستثمار المخزون المقاصديّ في شريعتنا. وقد كرّس ذلك في دروسه وخطبه واختامه للحديث النبويّ وصار لهذا العدول بُعْدٌ اختراقي من خلال تلميذه الشيخ محمد الطاهرَ ابن عاشور الذي جعل فكرة المقاصد علما يدرّس في الجامعة الزيتونيّة بمقتضى مشروع إصلاح التدريس الذي دافع عنه الشيخ ابن عاشور وطبّق فصوله لما تولّى مشيخة الجامع الأعظم بعد إزاحة الشيخ أحمد بيرم.

وغير خاف أنّ الشيخ سالم كان منخرطا في اتّجاه تجديد القضاء التونسي ومن المناصرين لعهد الأمان صياغة ورقابة وقد تجنّد لتفقّد المجالس العدليّة إبّان قانون عهد الأمان. وبيّن الأستاذ

الشيباني بنبلغيث الذي تناول هذه المسألة في الندوة اعتمادا على وثائق أرشيفية نادرة أنّ «مجرد تعيين المجلس الأكبر للشيخ سالم بوحاجب ضمن لجنة التفقّد لعدد كبير من المجالس التي تمتدّ على مساحة شاسعة من الوطن القبلي إلى جزيرة جربة لهو دليل على الثقة الكبيرة في فكره وآرائه وقلمه (42). وعندما كان غيره من الشيوخ يقفون على الربّوة كان هذا الشيخ الجوالة يعدّ تقريرا يشتمل على اثنتين وثمانين صفحة ويتحمّل وعثاء السفر ومشقته وهي «تضحية لا يتحملّها إلاّ من كانت له الرغبة في الإصلاح الحقيقي(43).

وتجدر الإشارة في إطار هذا العدول إلى القدرة الفائقة التي كانت للشيخ سالم على الخروج من المحلية الضيّقة إلى العالميّة وقد كانت له شبكة من الأصدقاء الذين جادلهم واحتكّ بهم وتأثّر بهم وأثر فيهم وقد اعتبره «أرنولد فرين» من العلماء المتميّزين وقد اعترُف له بالرباطه والمكابدة.

وعندما انفضّ الناس من حول خير الدين، كان الشيخ سالم يلتمس كلّ وسيلة للوقوف إلى جانبه، وعندما ساهم أصحاب «النفوس الخاملة» في إيقاف مجلة السّعادة العظمى آزره وقال له «لا تعبأ بما يلقيه هؤلاء في سبيل عملك وتأسّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم إذ قال له ورقة بن نوفل: «لم يأت أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلاّ عودي»(44).

- الانتماء إلى الريف التونسي الصميم.

كان الشيخ سالم بوحاجب طارئا على الحاضرة فهو وليد قرية ساحليّة تونسية واستطاع بمثابرته وحبّه للعلم وانقطاعه للمعرفة أن يدرك أعلى المراتب، متجاوزا كلّ العراقيل التي انقضت ظهر من كان وافدا مثله من الريّف أو الآفاق وقد أثبت هذا العالم وكذلك الشيخ ابراهيم الريّاحي وأحمد ابن أبي الضياف أنّ الجهات التونسية المعدمة والفقيرة كانت قادرة على أن تكون ولاّدة لرجالات اثبتوا أنّه بالعلم يُعرف الرّجال وليس بالرجال وانتمائهم النسبيّ والاجتماعيّ. وإذا كان البعض يتباهى بوجود هذه النّخبة من المصلحين التونسيين الذي خرجوا من رحم الأيالة ويُفوّقونهم على أضرابهم من رجال الإصلاح المماليك أو الأتراك فإنّا نرى في تنوّع المصادر والمواقع والأصول التي ينتمي إليها رجال الإصلاح في تونس ثراء لا مثيل له، استطاع أن يحقّق انصهارا وتناغما وولّد خطابا تنويرياً سمته الانفتاح على الآخر والاستعداد للتواصل معه والاقتباس منه مع عدم التنازل عن مصادر الهويّة التي كانت الجامع المشترك بين رجال الإصلاح في تونس.

وتجدر الإشارة إلى تأجّج الانتماء إلى حضارة تونسيّة وإلى هويّة عربيّة رصدها الأستاذ حفناوي عمايريّة في هذه الندوة ملاحظا أنّ الشيخ سالم مثل بدايات الانتماء إلى العروبة والقوميّة وتدل على ذلك علاقاته الحميميّة مع مصلحي الشرق العربي من أمثال عبده والشدياق والمويلحي.

- الشموليّــــة :

يعتبر الشيخ سالم بوحاجب شخصيّة إصلاحيّة تنويرية شموليّة لأنّه كان مصلحا دينياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ولم يكن حريصا على الظهور، وإنّما تكفّل طلبته وطلبة طلبته الذين درّسهم في الجامع الأعظم وفي الخلدونيّة أن يكونوا امتدادا له وتجسيما لآرائه الثاقبة. ونعتقد أنّ المجالس المتتالية التي جمعته بضيفه الشيخ محمد عبده في رحلته الثانية إلى تونس واتّصاله بالشدياق والمويلحي وعدد من المستشرقين قد جعل أفكاره

تنتشر عبر وسائط عديدة مباشرة وغير مباشرة وكان الشيخ عبده قد تفطّن إلى السّمة الاختراقيّة لشخصية الشيخ سالم وجدارته بأن يكون زعيما تونسيا في الشرق عندما قال: «لو كان متّصلا بحركة الاصلاح الديني في الشرّق عند ابتداء أمرها لكان لها بمقامه العلمي وأفكاره النيّرة شأن عظيم»(45) وقد فات الشيخ عبده أن ثلة من طلبة الشيخ سالم اضطلعوا بهذا الدور الاختراقي وكان لهم الأثر الطيب في الشرق واسطانبول من أمثال محمد الخضر حسين والمكي بن عزوز وإسماعيل الصفايحي وصالح الشريف وبلغ أحدهم وهو الهاشمي المكي أندونيسيا وأسّس في جاوة مدرسة عصرية ونشر مجلة تنويرية تدعى: بُورُوبُودُور «العربية اللغة المتسعة المباحث الكبيرة الحجم الكثيرة الروّاج بين المشرق والمغرب»(46).

4 ـ الإشكالية الرابعة:

ماذا يبقى من الشيخ سالم بوحاجب ؟

لقد تمخّضت هذه الندوة العلمية التي اهتمت بهذا العلم بعد مرور ثمانية عقود على وفاته وعن مجموعة من الآراء المؤكّدة لفرادة هذا المصلح الذي كان سلاحه الإصرار، وبرز التساؤل عن مؤلفات له نحن في أشدّ الحاجة إليها لإنصاف من نذر حياته للعلم وأهله، وسخّر فكره لمقاومة العقول المحنطة والأباطيل المعطّلة لملكة التفكير ومسار التنوير وقد لا نبالغ إذا اعتبرنا استمرارية الاتّجاه التنويري في الفكر التونسي كان بفضل المصلحين التنويريين التونسيين وعلى رأسهم الشيخ سالم بوحاجب الذي «أتى بكلّ نفيس وأفاد وأجاد وألحق الأحفاد بالأجداد ونجب على يديه نفر من علماء الدين صاروا من كبار المدرسين وأعاظم النابغين، انحصر جامع الزيتونة في تلامذته وتلامذة تلامذته فلا تجد طالبا إلاّ وله عليه شيخوخة إمّا مباشرة أو بالواسطة. فالزيتونيون عيال عليه ومرجعهم في العلم إليه (47).



فماذا قدّم هؤلاء رغم كثرة عددهم لهذا العالم التنويري الذي لا تزال الكثير من آرائه معاصرة ومحتاجة إلى من يبعث فيها الرّوح من جديد ؟!.

المراجـــــع

1ـ تكفلت بذلك مقالات صحفيّة منشورة بُعيد الندوة في :
ـ الصباح 2006/2/01 ص 13.
ـ الحريّة فيفري 2006، ص 6
ـ ملحق الحرية 2006/2/9 ص 4
ـ لابراس 2006/2/13 ، ص 11
ـ مجلة الملاحظ 2006/2/15 صص: 28 ـ 29 .
2 ـ من هؤلاء الشيخ محمد النجار.
3 ـ ابن عاشور، محمد الفاضل. تراجم الأعلام، تونس: الدار التونسية للنشر، ماي 1970 ص 224:
4 ـ المرجع نفسه ص 223.
5 ـ تأكّد لنا ذلك في كتاب الجنرال حسين: حسم الإلداد في نازلة محمود بن عياد وقد تولّينا تحقيقه والتقديم له بعد دراسة ومراجعة فاقت مدتّها ثلاث سنوات بالتّعاون مع الأستاذ الشيباني بنبلغيث وصدر عن مطبعة بريزم سنة 2002 ، أنظر أيا كتابي الجنرال حسين وطريقة تحريرهما وهما: القسطاس المستقيم في ظهور اختلال الحكم بنفي جنسية القائد نسيم ومكتوب من الجنرال حسين إلى لافوكاتية في نازلة نسيم شمامة.

6 ـ ڤرين، أرنولد. العلماء التونسيون تعريب حفناوي عمايرية وأسماء معلّى، تونس: بيت الحكمة ، 1995/1416 ص 146 .
7 ـ التونسي، خرِي الدين. أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق المنصف الشنوفي، تونس: بيت الحكمة، 2000 مج2 ص: 809.
8 ـ المصر نفسه ص 818.
9 ـ المصدر نفسه ص 819 .
10 ـ المصدر نفسه ص 836.
11 ـ المصدر نفسه مج1 ص 148.
12 ـ عندما عزم محمد الهادي باي في بداية عهده (1902-1906) مكافأة الشيخ سالم على جليل أعماله بمنحه مجموع الأراضي الواقعة بعد باب البحر حيث بنيت المدينة العصرية (بلاد السوري) فضل الحصول على قطعة أرض بها زياتين وبها بئر وشجرة خروب بأريانة وكانت مكانه المفضل ومصدر إلهامه الشعري.
13 ـ شمام، محمود. أعلام من الزيتونة. ص 27.
14 ـ بالحاج يحيى، الجيلاني، وكتاب شيخ الصّحافة البشير الفورتي من خلال آثاره (تحقيق وتقديم). تونس: المركز الوطني للاتصال الثقافي، خريف 2005 ص 82.
15 ـ انظر الصفحة الثانية من محاضرته.
16 ـ حسين محمد الخضر. تأبين رئيس العلماء بالديار التونسيّة ، مجلّة المنار المجلد 25، الجزء 6، بتاريخ 30 صفر 1343 /29 سبتمبر 1924 ص: 477.
17 ـ المرجع السابق ص 476.
18 ـ ابن عاشور، محمد الفاضل. تراجم الأعلام، ص 228.
19 - المرجع نفسه والصحفة نفسها.
20 ـ المرجع نفسه والصحفة نفسها.
21 ـ حسين، محمد الخضر. تأبين رئيس العلماء بالديار التونسيّة، المنار، مج25،ج5 ، ص 476.

22 ـ صدرت هذه المجلة سنة 1905 وكانت تحرّريّة جريئة في الادلاء بالآراء السّاخطة على السائد من الأفكار والأوهام...
23 ـ ابن عاشور، محمد الفاضل. تراجم الأعلام ص 231.
24 ـ السنوسي، محمد، الرّحلة الحجازيّة تحقيق د. علي الشنوفي ج2، ص 378.
25 ـ محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1982، ج2 ص 80
26 ـ كان الشيخ سالم بوحاجب صديقاً حميماً للمستشرق الألماني ماكس فرانهرفون أوبنهام (Max Frein Herrvon oppenheim) وكانت له مع الشيخ سالم بوحاجب محاورات في زيارته لتونس سنة 1905 وتذكر الحاضرة أنّ الشيخ بوحاجب سلّم مخطوطة له حول الاجتهاد إلى هذا المستشرق.
27 ـ ابن عاشور، محمد الطاهر. أليس الصبح بقريب، تونس: الشركة التونسيّة للتوزيع (د.ت) ص 103.
28 ـ المصدر نفسه ص 105.
29 ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها.
30 ـ من ذلك لفظة أوكسيجين ومدافع الكروب ويذكر محمد محفوظ في كتابه ترجم المؤلّفين التونسيين (ج2 ص 79) أن الشيخ كثيرا ما يستعمل لفظة ڤراتسي (شكرا) الايطاليّة. وأورد الأستاذ محمد العزيز ابن عاشور في كلمة الافتتاح بيتين للشيخ سالم في وصف آلة الفونوغراف وفي البيت الثاني استظراف لتلك الآلة

فهــل قبلي رأيتم أو سمعتم جمادا يستميلك بالكلام

31 ـ ابن عاشور، محمد الطاهر. أليس الصبح بقريب ص 110.

32 ـ المصدر نفسه ص 109.

33 ـ محفوظ، محمد. تراجم المؤلفين التونسيين ج 2 ص 80.

34 ـ مداخلة الاستاذ جمال الدين دراويل حول جذور الاتجاه المقاصدي وامتداداته لدى الشيخ سالم بوحاجب ص 9.

35 ـ فحّة، عبد القادر. سالم بوحاجب ومنهجه الاصلاحي. أطروحة دكتورا الدّولة نوقشت في الجامع الزيتونيّة سنة 2002 ص 4.

36 ـ لمزيد التوسّع في هذا المضمار انظر كتابي: بين علمي أصول الفقه والمقاصد تأليف الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة وتحقيقه لكتاب مقاصد الشريعة الاسلامية. وقد طبع الكتابان إلى جانب جزء أول معرّف بالشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وآثاره وأفكاره وكلها من طبع وزارة الأوقاف القطريّة 1425 /2004.

37 ـ انظر نص القصيدتين الغزليّتين في كتاب الرّحلة الحجازيّة لمحمد السنوسي ج1 صص 141-145 وأورد له الأستاذ الهادي حمودة الغزي في كتابه الأدب التونسي في العهد الحسيني (الشعر) تونس: الدار التونسيّة للنشر، 1972 ص 68 قصيدة طريفة وجريئة تغزّل فيها الشيخ سالم بفتاة قابلها بأحد الفنادق الايطاليّة ومن أبياتها:

وقائلــة أراك إذاَ التقـينـاَ تُبادر قبلتـي عنـد اللقـاء
فقلتُ لها أنا رجل غريبٌ أفتّـشُ ما يطيبُ به ثـوائي

38 ـ أكد ذلك الشيخ الصادق بسيس في كتابه محمد بن عثمان السنوسي حياته وآثاره، تونس 1978 ص 118.

39 ـ انظر مداخلة الأستاذ المرزوقي في الندوة حول الشيخ سالم بوحاجب شاعرا ص4-5

40 ـ رسالة الشيخ سالم بوحاجب في انتقاد مالك. المطبعة الحميدية بالقاهرة ص 2

41 ـ الشنقيطي، محمد محمود بن التلاميد. الحماسة السنية ... القاهرة مطبعة باب الخلق 1902/1319 صص 56 ـ 83.

42 ـ محاضرة الأستاذ الشيباني بنبلغيث في الندوة: «الفكر الاصلاحي عند الشيخ سالم بوحاجب من خلال تقارير تفقد المجالس العدليّة إبّان تطبيق قانون عهد الأمان ص 13.

43 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

44 ـ مجلّة المنار، مج 25، ج6، (1924) ص 478.

45 ـ ابن عشاور، محمد الفاضل تراجم الأعلام ص 229

46 ـ ابن عيسى، الطيب. من مشاهير العلماء المهاجرين، تونس: مطبعة العهد الجديد (دت)ص21

47 ـ مخلوف محمد. شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، بيروت: دار الكتاب العربي، عن المطبعة السلفية 1349 هـ ، ص 426

عز الديـــن المـــدني
يحصل على جائزة سلطان العويس

أحمد عامـــر

إنّ ما ميّز جائزة سلطان بن علي العويس في دورتها التّاسعة التي احتضنت فعالياتها مدينة دبي يومي 8 و 9 مارس 2006 أنها تفتح لأوّل مرّة في تاريخها منذ سنة 1988 أبواب المغرب العربي لتدحض الوهم ـ كما جاء في بيان الأمانة العامة لمؤسسة سلطان العويس ـ بأنها مشرقيّة الهوى والتّوجّه وقد ظل هذا الوهم سائدا على امتداد سنوات باعتبار أنّ كل الفائزين بها في مختلف حقولها من المشرقيّين، وكان لا بدّ من انتظار الدّورة التّاسعة لتؤكّد هذه الجائزة بعدها العربيّ الشّامل وذلك بحضور الجناح المغاربيّ الذي من شأنه أن يساعد الجناح المشرقي على السّمو والارتقاء والتحليق عاليا. .

* * *

إسمان من المغرب العربيّ إضافة إلى ثلاثة أسماء مشرقية شملتها الجائزة هذه السّنة جائزة لها دلالتها ومكانتها فهي لا تسند إلاّ لمن هو جدير بها بفضل رصيده الفكريّ والعلميّ الذي أضاف وأفاد. وكل لجان تحكيمها منذ دورتها الأولى أسماء مشهود لها بالكفاءة والمصداقيّة والمعرفة. . وبذلك وكما جاء في بيان الأمانة العامة فإنّ «الجائزة حقّقت جانبا من مصداقيتها وحياديتها كما أثبتت أن لا سلطة في منح الجوائز إلاّ سلطة الإبداع التي يمتلكها المبدع ذاته».

* * *

أوّل الإسمين المغاربيّين ممن شملتهما الجائزة كاتبنا الكبير الروائي والقصّاص والباحث والمؤلّف المسرحي رائد الطليعة الأدبيّة في تونس الأستاذ عز الدّين المدني، وقد منحت له الجائزة عن مجمل أعماله القصصيّة والروائيّة والمسرحيّة.

أمّا الإسم الثاني فهو الباحث المغربي الأستاذ محمد مفتاح عن مجمل دراساته الأدبيّة والنقديّة.



وقبل الحديث عن الحفل الضخم ووقائعه لا بدّ من القول إن حضورنا الثقافيّ في المحافل العربيّة والدوّليّة أصبح له شأنه لا لسواد عيوننا أو أخذا بالخاطر وإنّما هو الاعتراف بالعبقريّة التونسيّة في مختلف ضروب الإبداع. وهو ما حدثّنا عنه الأشقاء العرب الذين أبدوا إعجابهم الكبير بالمشهد الثقافيّ التونسيّ وثرائه وتنوّعه وقدرته على الجمع في نفس الوقت بين الأصالة بكل مكوّناتها وعناصر المعاصرة والحداثة ممّا أكسب هذا المشهد تفاعلا إيجابيّا.

ولم يخف أشقاؤنا أيضا انبهارهم بسياسة الدعّم السخيّ الذي تقدّمه الدوّلة للمبدع وتوفرّ المناخ الملائم للإبداع، الأمر الذي حققّ قفزة نوعيّة وكميّة لإنتاجنا الثقافيّ ونشره داخل البلاد وخارجها...

كلهّم هناك هنأّوا بحرارة الكاتب الكبير عز الدّين المدني، وكلهّم أيضا قالوا له وبالحرف الواحد: «لقد جاءت الجائزة متأخرّة.. كان من المفروض إسنادها لك منذ سنوات.» هذا اعتراف بأن الرّجل، وأنا أعرف ذلك من قبل ولمسته وأنا معه في دبي، معروف جداً في الوطن العربيّ، معروف بفكره وطرحه وكتبه ونظرياته الأدبيّة ونصوصه المسرحيّة التي يتهافت عليها المخروجون العرب تماما كما فعل الطيّب الصديقي وسمير العصفوري والشريف خزندار وخرون ممّن اشتغلوا على نصوص عز الدين المدني حتى أصبح الحديث ممكنا عن مسرح له خصوصياته ومكوّناته التي تميزّه: اسمه مسرح عز الدّين المدني، كتبت عنه كتب وأطروحات جامعيّة.

* * *

من هنا كان الاحتفاء كبيرا بعز الدّين المدني سواء من قبل الضيوف أو من قبل المنظمّين الذين أوكلوا له أمر صياغة كلمة الفائزين وإلقائها في الحفل نيابة عنهم وقد استهلّها بقوله:

«الإبداع هو حجر الزاوية في ثقافتنا العربيّة الحديثة والمعاصرة ولا سيما الابداع الأدبيّ الذي خطا منذ سنوات قليلة نحو العالميّة وحققّ غايات فكريّة وموضوعيّة وجماليّة مهمّة في جميع أنحاء الوطن العربي دون استثناء أيّ قطر من أقطاره... وإذا كان الإبداع الأدبي هو حجر الزاوية في ثقافتنا العربيّة الحديثة فلأنّه يحمل في نسغه قيم الحريّة... حريّة الخيال التي تتحدّى الواقع وتفوقه وتتجاوزه ليكون الواقع نسخة من الخيال الخلاّق لا العكس، وحريّة اللغة التي تندمج مع الماضي والحاضر والآتي القريب والبعيد تأخذ كل مجال وتستحوذ على كلّ فضاء وتتلبّس بكل ميدان وتتفاعل مع كلّ لغة أخرى بالحوار والاقتباس والأخذ والعطاء».

وفي حديثه عن علاقتنا بالآخر قال عز الدّين المدني:

«... ونحن أيضا نتحاور مع الغرب والشرق الأقصى ونأخذ من الغرب كما أخذنا من قبل ونتحاور معه باللين والشدّة كما تحاور معنا بنفس الأساليب والصيّغ، لكننّا ننظر إليه بعين نقديّة فنجعله حافزا لنا للمنافسة الفنيّة السليمة للتفّاهم حول القواسم المشتركة للتعاون، فالثقافة لعربيّة حديثا لم تعتبر الآخر أجنبيّاً غريبا في زمان عزهّا وأوجهّا وسموهّا السمّاوي»

وبعد أن أبرز أهميّة الجائزة متوجها بأبلغ عبارات الشكر للساهرين عليها خاصةّ في الالتفاتة نحو الجناح المغربيّ في العالم العربيّ المليئ بالمواهب والنوابغ في فنون القول ختم قائلا «.. هي لفتة كريمة استحقتّ كلّ اهتمام الاعلام الثقافيّ المغاربيّ ذلك أن الجناح المغربي هو صنو الجناح المشرقي وهذا العالم العربيّ لا يطير ولا يحلقّ في سماء العالم إلاّ بجناحين إبداعيّين والخير ما فعلته المؤسسة»..

* * *

ألقيت هذه الكلمة في حفل توزيع الجوائز وقد استقبلها الحاضرون بحرارة كبيرة..

الحفل احتضنته مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية التي تنتصب بناية شامخة في قلب مدينة دبي.. وهي تتكوّن من تسعة طوابق إضافة إلى الطّابق الأرضيّ حيث يضمّ القسم الثقافي ركنا خاصا لمقتنيات وكتابات الشاعر الرّاحل سلطان بن علي العويس، ومعرضا دائما لصور الفائزين بالجائزة على امتداد دوراتها بريشة أمهر الرّسامين، إضافة إلى مكتبة لبيع الكتب والدّوريات ومقهى للأنترنات وقاعة اجتماعات كبرى ومسرحا يتّسع لأربعمائة متفرّج ومكتبة تحوي أربعين ألف كتاب مع عديد الفضاءات والقاعات الأخرى...

* * *

في هذه المؤسّسة حضر عدد كبير من الأدباء والمفكّرين والإعلاميين العرب جاؤوا كلهم للاحتفاء بالفائزين ومشاركتهم الحفل البهيج الذي أقيم يوم الأربعاء 8 مارس 2006 تكريما للفكر العربيّ ورموزه وقد كانت جوائز الدّورة التاسعة على النّحو التّالي :

* أولا : حقل الشعــــر :

ـ منحت الجائزة إلى الشاعر السّوري محمد الماغوط الذي أسهم في الحداثة الشّعريّة العربيّة وفي تطوير قصيدة النّثر باعتباره أحد روّادها الكبار.

وتشكّل أعماله الشّعريّة والنّثرية ومسرحيّاته التي أرادها قصائد أخرى وحدة فكرية متجانسة تنقد الكتابة العربيّة السّائدة بكتابة مغايرة.

* ثانياً : حقل القصّة والرّواية والمسرحيّة.

ـ منحت الجائزة إلى الكاتب التّونسي عزّ الدّين المدني لما تميّزت به كتابته المسرحيّة من غنى وعمق ولعمله على بناء مسرح عربيّ يستفيد من تجارب المسرح الغربي ويؤكّد الخصوصيّة العربيّة..

وتجمع أعمال المدني بين التّراث والثّقافة الشّعبيّة والمواد التّاريخيّة والشّفهيّة وذلك على نحو يحيل هذه العناصر إلى مشهد يرضي العين والعقل معا.

* ثالثـاً : حقل الدراسات الأدبيّة والنّقديّة

ـ منحت الجائزة إلى الباحث المغربيّ محمّد مفتاح الذّي يعدّ من ألمع النقاد العرب باعتباره أكاديمياً متميزّا ومحلّل نصوص متمرّسا ومفكّرا يضع كلّ شيء موضع المساءلة والحوار.

* رابعـاً : حقــل الدراســات الانسانيــة والمستقبليّة :

ـ منحت الجائزة إلى الدّكتور أنطوان زحلان وهو لبناني من أصل فلسطينيّ ويعدّ من أوائل الباحثين والعلماء العرب الذين اهتمّوا بدراسة المستقبليات ومجتمع المعرفة. وتتميّز دراساته بالأصالة والصّرامة المنهجيّة والدقّة العلميّة وتمثّل وحدة معرفيّة متكاملة تحمل رسالة تنويريّة وإنسانيّة.

* خامساً : جائزة الإنجاز الثقافي العلمي.

ـ منحت الجائزة إلى الدكتور ثروت عكاشة من مصر لكونه أحد الرّموز الثقافيّة الفاعلة في الحياة الثقافيّة عربياً وعالمياً، ، خاصّة إنجازاته فيما يتعلّق بما حقّقه في إنقاذ آثار النوبة وكذلك بناء قصور الثّقافة وتنشيط الفنون الشعبيّة وجمعها بأسلوب علمي وإنشاء الفرق المسرحيّة والموسيقيّة ومساهمته في بناء دار الأوبرا وعديد المتاحف. وقد بلغت مؤلفاته 58 مجلدًا وأصبحت مرجعا

هاماً للمكتبة العربيّة.

* * *

هذا قليل من كثير عن الفائزين بجائزة سلطان بن علي العويس في دورتها التّاسعة التي كان الحضور التّونسيّ فيها بارزا من خلال الكاتب الكبير عزّ الدّين المدني الّذي اهتمّت به وسائل الإعلام المكتوبة والمرئيّة والمسموعة اهتماما كبيراً.

كان الحفل ضخما في حجم المحتفى بهم الّذين صعدوا الركح الواحد تلو الآخر لتسلّم الجوائز، ولتوشّح صدورهم بوشاح المناسبة الكريمة وقد استقبلهم الحاضرون بحفاوة كبيرة كما كان لهم في اليوم الموالي لقاء مع المثقّفن تحاوروا فيه معهم عن تجاربهم في حقل الأدب والفنّ والمعرفة والثّقافة.

* * *

يومان في دبي مدينة المال والأعمال حوّلاها إلى مدينة للفكر والإبداع.

* * *

للإفـــادة :

- سلطان بن علي العويس : شاعر من الإمارات العربيّة المتّحدة ولد سنة 1925 وتوفي سنة 2000.

نشأ في بيت علم وأدب مما أهلّه أن يكون شاعرا متميّزا من شعراء الإمارات حيث انتشر شعره وسرى صيته خليجياً وعربياً.

تربّى منذ صغره على التجارة ونجح فيها ممّا جعله يوقف جزءا من أمواله يخصّص ريعها لجائزة ثقافيّة تحمل إسمه.

الجائـزة :

تبلغ القيمة الجمليّة للجائزة 600 ألف دولار أمريكي وتوزع بالتّساوي (120 ألف دولار) على خمسة حقول هي :

- الشعر
- القصّة والرّواية والمسرحيّة
- الدّراسات الأدبيّة والنقّد
- الدّراسات الإنسانيّة والمستقبليّة
- الإنجاز الثّقافي العلمي.

* أعلن رسمياً عن انبثاق الجائزة يوم الخميس 17 ديسمبر 1987 وأقيمت أوّل دورة سنة 1988.

متابعات

نـدوة : الترجـمـة ومـجـتمع المـعرفـة

عبـد الواحـد براهـم

مـرّة في كـل سنتـين

للمرّة الثالثة يعقد المجلس الأعلى للثقافة بمصر مثل هذه الندوة، وكانت سابقتها المنعقدة عام 2004 قد حملت عنوان: «الترجمة وتفاعل الثقافات»، وفيها جرى الاحتفال بمرور مائة سنة على ترجمة سليمان البستاني لإلياذة هوميروس بعد عشرين عاماً من الجهد، ونشرها في القاهرة عام 1904 وسط احتفاء وترحيب كبيرين شاركت فيهما لجنة إحياء اللغة العربية التي كان يرأسها الإمام محمد عبده، وشخصيات مهمّة مثل سعد زغلول وعبد الخالق ثروت ومحمد فريد ومحمد رشيد رضا وغيرهم.

أمّا ندوة هذه السنة فموضوعها: «الترجمة ومجتمع المعرفة»، انعقدت في شهر فيفري وسط احتفال بصدور الكتاب الألف عن المشروع القومي للترجمة وعنوانه: «التصوير الحديث في مصر» للناقد الجزائريّ الفرنسيّ إيمي آزار، وقد أخرج في طبعة فخمة بالألوان.

افتتحت فعاليات الندوة باحتفال كبير بمناسبة صدور الكتاب الألف، ولتكريم عشرة مترجمين عرب وأجانب مشهود لهم بالمثابرة والإجادة في إيصال أفضل الإبداعات العربية إلى مختلف اللغات، وهم: المصري محمد مصطفى بدوي، والإيطالية إيزابيلا كاميرا دافليتو، والياباني إيكيدا أوساهو، والصيني تشووي ليه، والفرنسي جاك بيرك، والأميركي روجر آلان، والأردنية سلمى الخضراء الجيّوسي، والروسية فاليريا كريتشينكو، والإسبانية كارمن رويث بياصنته، والألماني هرتموت فندريش.

قدّمت خلال أيام الندوة الأربعة مداخلات وأبحاث كثيرة متفاوتة القيمة والمستوى، حلّق بعضها بعيدا ونزل بعضها كثيراً، حتى كأنه موضوع إنشائيّ بسيط. كما إنّها لم تأت على نسق معلوم يخضعها لمسار واضح يفضي بها في النّهاية إلى خلاصات أو نتائج موحّدة. بل إنّ الجلسات الفرعية ـ الموزّعة على قاعات ثلاث تقدّم في مجموعها ستة وثلاثين بحثا في اليوم ـ لم يوحّد بينها محور يدور حوله نقاش أو تتبلور فكرة، بل ضمّت كل واحدة منها أربعة أشخاص يتناول كل واحد منهم موضوعا مختلفا عن زميله، أو قريبا منه بعض القرب. قد لا يكون هذا أهمّ مقاصد الندوة، وإنّما أريد منها الزخم والشمول فقط، ربما لإظهار حيوية الحدث وجعله محكّاً للأفكار ـ مهما تنافرت وتضاربت ـ ومحطة للتأمّل فيما أنجزه المشروع وفيما يمكنه إنجازه مستقبلا، مع التنبيه وإثارة الوعي إلى التحدّيات وما تحويه من منزلقات.

كان نشاط الدكتور جابر عصفور رئيس المجلس الأعلى للثقافة وراعي مشروع الترجمة واضحا طوال الندوة، فهو من حشد لها هذه المرّة ـ كما في السابق ـ عددا قارب المائة والأربعين مترجما وباحثا من مشارق الأرض ومغاربها، تنوّعت أبحاثهم وذهبت كل مذهب، وأحدثت في النهاية

ديناميكية لن تجني منها حركة الترجمة من اللغة العربية وإليها سوى الخير والنماء.

حضر الندوة من تونس الأساتذة حمادي صمّود وعبد القادر المهيري وعبد السلام المسدّي وبوبكر خلوج ومحمد النويري ونور الهدى باديس ومحمد قوبعة، كما حضر من المغرب الأساتذة عبد السلام بنعبد العالي وعبد الله ديداوي وبنسالم حميّش وسالم يافوت وثرياً إقبال، ومن الجزائر الأساتذة عبد الملك مرتاض وواسيني الأعرج وعبد الحميد بوريو وإنعام بيوّض وغيرهم، مما يدل على اهتمام مغاربيّ بقضايا الترجمة وحضور مكثّف من العاملين في حقلها.

بحوث بلا حصر

لايسمح لنا المجال هنا باستعراض كافة المحاضرات، ومن باب أولى تقديم ملخّصاتها وقد كانت في الجملة تدفقا كلامياً كبيرا - والعبارة لمستشرقة إسبانية - يعمّ قاعات الندوة الثلاث بمعدل 36 محاضرة في اليوم، بما تصير حصيلته بعد أربعة أيام 144 بحثا متنوعّة في المستوى وفي إصابة القصد، إلاّ أنه يمكن ببعض الجهد حصر مواضيعها في خمسة محاور هي:

مفاهيم عامة: كما في بحث الصفصافي أحمد المرسي المعنون: «دور الترجمة في إثراء الحوار الحضاري»، أو بحث إنعام بيوّض عن «الترجمة في مجتمع المعرفة»، أو بحث عاطف العراقي عن: «الترجمة والتنوير المعرفي»، أو بحث عيسى مخلوف عن: «الترجمة بوصفها رهانا ثقافيا» أو بحث فاروق عبد الوهاب بعنوان: «الترجمة والآخر» أو بحث كريم أبوحلاوة المتسائل إنكارياً: «أين العرب من مجتمع المعرفة؟»، أو بحث هاشم صالح المتسائل أيضا: «هل يمكن أن تساهم الترجمة في تنوير العرب والمسلمين؟»، إلى آخر ما يندرج في هذا الباب، وهو كثير.

الترجمة تدريسا: ويندرج بحث مثل الذي قدّمته آنا جيل برداجي عن «مصادر التوثيق الإلكترونية في تدريس الترجمة من العربية إلى الإسبانية»، وبحث جمال عبد المقصود عن: «مفهوم الترجمة»، وبحث عبد الملك مرتاض: «مقدّمة في نظرية الترجمة»، وبحث مهجة مصطفى عن: «إشكاليات الترجمة: دراسة تطبيقية».

الترجمة تطبيقا: كما في بحوث قدّمها صلاح حزيّن عن: «بعض قضايا الترجمة: يوليسيز نموذجا»، أو عدنان أحمدي عن: «التراث العربي في ميزان الترجمة الألبانية» أو محمود إبراهيم السعدني: «تجربتنا في ترجمة الجزء الثاني من كتاب أثينا السوداء»، أو وفاء فاروق عن «طه حسين مترجماً»، أو ربيع مفتاح عن: «ترجمة المسرحيات القصيرة، هيوارد باركر نموذجا»، أو يوسف بكّار عن «الترجمة الفارسية لأشعار سعاد الصبّاح: قراءة نقدية».

شهادات المترجمين الأجانب: ويندرج تحتها بحوث مثل الذي قدّمه بكر الكوسوفي عن: «الدكتور فتحي مهدي وأثره في الترجمة من العربية إلى الألبانية»، أو الذي قدّمه دانيال نيومان روناك عن: «ترجمة العناصر الثقافية في أعمال رفاعة الطهطاوي والطاهر الحدّاد»، أو الذي قدّمه فريدريك لاقرانج عن: «المترجم أمام التعدديّة اللغوية العربية، ما العمل؟»، أو بحث كارمن رويث بياصنته عن: «ترجمة الفكر العربي المعاصر إلى اللغة الإسبانية»، أو بحث نورية مرتينث عن: «الأعجمية أداة الترجمة للمسلمين الموريسك».

الترجمة والآلة: وتحت هذا العنصر قدّمت بحوث عن علاقة التكنولوجيات الحديثة

واستعمالاتها في الترجمة، ومن بينها بحث إبراهيم محمد عبد المنعم عن: «تكنولوجيا المعلومات والترجمة»، وبحث نبيل علي عن: «الترجمة مابين البشر والآلة» وبحث عبد القادر المهيري عن: «العربية والترجمة الآلية»، وبحث محمد حافظ دياب عن: «الترجمة ورهان العولمة، حرب المصطلحات والمفاهيم».

الموائــد المستديــرة

في القاعة الكبرى للمجلس عقدت مجالس من نوع آخر اتّخذت شكل أربع موائد مستديرة لبحث القضايا العملية مثل: «ترجمة الأدب العربي إلى اللغات الأجنبية» و«مشكلات الترجمة وتقنياتها»، و«الترجمة والتنوّع الثقافي»، أمّا آخرتها فخصّصت لتقييم «المشروع القومي للترجمة» وحضره خبراء وباحثون من مصر فقط، غاصوا في أعماق المشروع ومشاكله، من ذلك:

1 - حاجة المشروع إلى استراتيجيّة واضحة وذلك لضمان جودة التّرجمة ولتغليب الكيف على الكمّ.

2 - ضرورة رصد مزيد من الدّعم المالي للمشروع.

3 - الإسراع بإحداث المركز القومي للتّرجمة وذلك لتوفير المقوّمات الإداريّة والقانونيّة والماليّة لإنجاح مشروع التّرجمة

4 - تشريك أكثر عدد ممكن من أصحاب الخبرة في إنجاز الترجمات.

5 - الحرص على جودة مستوى الترجمة وبخاصّة مستوى المراجعة التي يفترض في صاحبها الإلمام الواسع باللّغة المنقول عنها.

أنشطــة موازيــة...

إذا انتهيت من المحاضرات والموائد المستديرة ينتظرك في البهو معرض الألف كتاب يغريك بتنوّعه وأثمانه المخفّضة فتساهم في تفريغ رفوفه التي تعود لتمتلىء في الغد. وينتظرك في الشرفة موائد المشرب وكراسيه الخيزران منتشرة تحت شمس مصر الدافئة فتنضمّ إلى حلقات النقاش وفيها الأردنيّ والمغربيّ والعراقيّ وغيرهم، حوارهم لا يخرج عن قضايا الأدب وبحوث الجامعة وتقلبات السياسة في بلدانهم، ولا تخلو حلقة من تبادل معلومات مفيدة، أو فكرة مشروع مشترك، ويطوف بالجميع صحفيون مختلفو المشارب يحاورون ويلتقطون الصّور، ومعدّو برامج تلفزية يحملون معدّاتهم لاصطياد ضيف مشهور، او وجه اجتماعيّ لامع، ولا تتوقف الحركة في الطابقين العلوي أو السّفليّ من العاشرة صباحا إلى العاشرة ليلا، على أن تستمرّ بعد ذلك إلى قرابة الفجر في حلقات أضيق بفندق «بيراميزا».

مؤسّســات الترجمــة

من الفرص التي أتاحتها النّدوة اكتشاف عدد من مشاريع الترجمة الموجودة مشرقا ومغربا، ولم يكن حصل العلم بها لدى الكثير من الضيوف، أذكر منها:

1 - مؤسسة «بروتا» لترجمة ألآداب العربية الذي أنشأته وتديره في أمريكا الأردنية سلمى الخضراء الجيوّسي، وقد أنتجت بالإنكليزية موسوعات ضخمة الأدب العربي الحديث منها: «الشعر العربي الحديث» و«الأدب الفلسطيني الحديث» و«القصة العربية الحديثة»، و«تراث إسبانيا المسلمة».

2 ـ مشروع «جوفانس» الذي أنشأته وتديره إيزابيلا كاميرا دافيليتو أستاذة الأدب العربي بجامعة روما، وقد أصدرت من خلاله ترجمات إيطالية لحوالي الثلاثين رواية من بينها رواية «دار الباشا» للكاتب التونسي حسن نصر.

3 ـ المنظّمة العربيّة للتّرجمة المتفرّعة عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت، ويديره حاليا عالم الاجتماع التونسي طاهر لبيب، وقد أصدر عددا مهماً من الدراسات الاجتماعية والحضارية.

4 ـ «لسان» وهي مؤسسة نشر خاصة أنشأها ويديرها في سويسرا الباحث والمترجم المصري سعد حماّد، وتوجّهها بالخصوص نحو الأدباء الشبان ـ من أمثال جمانة حدّاد ومصطفى ذكرى ـ ممّن لم تصل أسماؤهم إلى أسماع المترجمين الكبار، كما الحال مع نجيب محفوظ أو يحيى حقّي، وهي تصدر إلى جانب ذلك مجلة فصلية عنوانها «لسان» لغتها الألمانية ومجال انتشارها النمسا وسويسرا وألمانيا.

5 ـ دار نشر «كانتارابيا» وكذا مجلة «إيديارابيا» المتخصّصتين في موضوعات تهمّ العالم العربي، وقد صدر عنها ما يربو على العشرين عملا أدبيا وفكرياً من العربية إلى الإسبانية.

وخلاصة القول أن هذه الندوة، حتى وإن كانت بعض محاضراتها متواضعة بسيطة، وحتى وإن لم تصدر عنها خطوط واضحة أو توصيات هامّة، فحسبها تلك الحيوية المتولّدة عن التقاء ذلك الكمّ من المثقفين العرب والأجانب، وإعلانهم بالصّوت المسموع عن توقهم إلى معرفة الآخر، والنّقل عنه، والتّعاون معه لإثراء الحضارة الإنسانية في عالم تشمله الفوضى وتتنامى فيه دعوات التهميش والإقصاء.

متابعات

عالم الثّقافات

حسونة المصباحي

1 . ملحمة عزرا باوند

إذا ما نحن أردنا أن نفهم روح القرن العشرين، بعد أن غادرناه إلى القرن الواحد والعشرين، قرن العولمة وتوحيد أوروبا تحت راية عملة واحدة، فإنّه يجدر بنا أن نعيد قراءة أولئك العالقة الذين جسدوا في أعمالهم هذه الروح من أمثال جويس وميدلين وباوند. وقد استطاع هذا الأخير الذي ولد في الولايات المتّحدة الأمريكيّة عام 1885 ومات في البندقيّة عام 1972 أن يضع في عمله الشعريّ الهائل والعجيب: «كانتوس» المكوّنات الأساسيّة للقرن العشرين الذي عرف أحداثا جسيمة وفظائع تمثلت في حربين كونيتين. وتبدو «كانتو» كما لو أنّها ملحمة تروي أحداثا تتّصل بالثقافة الغربية وبمؤسّسيها الكبار. وفي حوار أجري معه عام 1962، ذكر باوند أنّه شرع في كتابة عمله المذكور حوالي عام 1904، وهو العام الذي اكتشف فيه «الكوميديا الالهية» لدانتي. غير أنّه لم يبدأ في إنجازه حقّاً إلا عام 1915.

ويبدو هذا العمل الشعريّ مسكونا بالحرب وبالذكريات المتعلّقة بها، وبالأصدقاء الذين سقطوا في معاركها. كما أنّه يعكس الأوضاع الاجتماعيّة في أوروبا. ويقول باوند: «لقد قادني عملي إلى أنّني لم أعد أرى الحروب المتعاقبة الواحدة بعد الأخرى كما لو أنّها مجرد حوادث وإنما كجزء متّصل اتّصالا وثيقا بالنظام العام». ويضيف قائلا: «أكتب لمعارضة تلك الفكرة التي تقول بأن أوروبا والحضارة ملعونتان». وقد سعى باوند في «كانتوس» إلى أن يقيم حوارا بين مختلف الحضارات والثقافات واللغات، وتحديدا بين الثقافة الغربيّة والثقافة الشرقيّة متمثلة في الثقافة الصينيّة وذلك من خلال جدل بين دانتي وكونفوشيوس. من هنا صعوبة قراءتها وفكّ رموزها. وربّما لهذا السبب أعلن باوند عام 1921: «أرغب أن يقرأ القارئ عملي هذا بنفس العناية التي قرأ بها نصاً إغريقيا أو لاتينيا صعبا إلى حدّ ما».

من كانتوس، اخترنا هذه الأبيات: «ما أنت تحبّه جيّدا يبقى / ما تبقى ليس سوى رماد ما تحبّه جيّدا لن يفتك منك / ما تحبه جيّدا هو إرثك الوحيد / لمن هذا العالم، لي أنا، أم لهم أو للا أحد؟ / بدءا أنت رأيت، ثم أمست الجنة حتّى في معابر الجحيم / ما أنت تحبّه جيّدا هو إرثك الوحيد / ما تحبّه جيّدا لن يسرق منك».

2 . النظرة الجريحة

في نفس العام الذي نالت فيه بلاده الاستقلال، أي 1962 ، فقد الكاتب الجزائري رابح بلعمري البالغ آنذاك من العمر 16 عاما، بصره. ومنذ ذلك الوقت سوف يعيش في قلب عالمه الداخليّ جاعلا من الكتابة سلاحه الوحيد لمقاومة الظلام الأبدي وللتحاور مع العالم الخارجي. وكان رابح بلعمري متعددّ المواهب. فقد كان شاعرا وناقد وقصّاصا وراويا من الصنّف الرفيع. كما أنّه جمع الأمثال والحكايات الشعبيّة وترجمها إلى لغة موليير التي اختار الكتابة بها. بالإضافة

إلى ذلك خصّص أطروحة للشاعر الفرنسي جان سيناك الذي خيّر البقاء في الجزائر حتّى بعد أن غادرها الفرنسيون فقتل بسبب ذلك. وهي روايته «النظرة الجريحة» يتطرّق إلى حياته الخاصّة من خلال فتى إسمه حسن يصاب بمرض في عينيه. وعوض أن يحمل إلى الطبيب، تقرّر والدته فاطمة الزهراء التي تثق في الطب الرّعواني مداواته بالطرق البدائيّة ظانة أن أصابع إبنها كانت بسبب الجن والعفاريت. وعندما تفشل في إشفائه، تقبل في النهاية أن يؤخذ الى المستشفى. فتكون الرحلة الى الجزائر العاصمة خطرة للغاية حيث أنّ الطائرات الفرنسيّة كانت تقصف المدن والقرى والطرقات. وفي المستشفى يقرّر الأطباء إجراء عمليّة للفتى المريض لكن العملية تفشل فيفقد الفتى بصره.

من هذه الرواية الجميلة اخترنا الفقرة التالية :

«بمساعدة شيخ من القرية ، حفر الفتى القبر. كانت الشمس في قلب السّماء وحديد النعول ترتطم بقوّة بالأرض التي تصلّبت بسبب حرارة الصيف. وعندما عاد الشيخ إلى القرية للاتيان بالجثمان، نام الطفل في عمق القبر مُغمضا عينيه. ورطوبة الأرض اخترقت أعضاءه المتعبة وغمرته بالغبطة. عند الغروب عاد إلى المقبرة

حيث لا شيء يتحرك. كانت حرارة النهار قد خفّت. كان يتقدّم مثل السائرين نياما دون أن يعطي اهتماما للمكان الذي سيضع فيه ساقيه. وكان يدعس القبور التي كانت بالكاد ترى بين الحصى والأعشاب اليابسة. اقترب من القبر الجديد الذي انتصبت فوقه أحجار. (...) . كان الفتى يمشي فوق الكثبان مترنحا. وكان يحسّ بألم في جسده وفي رأسه. وكان ذلك الألم يصعد من الأرض ويدخل إلى جسده ثم يكبر متأججا هائجا كما لو أنّه دوامة من الزنابير الفزعة».

إبداع

خيـــــرزاد

حســين العُــوري

استهــلال :

خمدتْ جذوتها . .
واستحال اللاّعج الوهجُ رمادا . . .
أيّ ثلج ماكر دثّرني !
أيّ ريح جرّدتْ هذا الفؤادا ؟

* * *

سندبادا . . متعب الخطو
على أعتابها
تقفُ الآن ضريرْ
واليد العطشى نداء . .
شفة تهفو إلى فجر خصيبْ
يا فراغ الصفحة البيضاء
يا صمت القبور
أنت إعصار رهيبْ

* * *

كيف ضيّعتُ طريقي ؟
أيّ عراف يقيني وحشة الليل السحيق ؟
أيّ نبع يوقظ الخصبَ . . .
ويُحيي
ما تهاوى من عروقي؟

هل لفَجرْ أخضر الأجفان آتْ
يغمر القلب فتنمو في شفاهي . .
الكلماتْ ؟

ابتهـــال :

خير زد
افتحي دنّ الكلامْ
هذه الصفحة كالموت رهيبةْ
وخرير الصّمت ي حلقي رغام
مثل آمال جديبةْ

* * *

افتحي دنّ الكلامْ
واهطلي في غابة الأحزان نارا
قد يفُيد الكيّ إن ورمَ السقّام
وأقام الثلج في الأعماق دارا

* * *

افتحي دنّ الكلامْ
واغزلي الأحلام همسا تلو همس
آه . . . يا ضيعة حسّي . . .
في أخاديد الظلام

* * *

ساخت الروح .... وهذا الحسّ أعمى
والفتى ... ـ والدّربُ مكتظُّ الحطامْ ـ
ضيّع الآثار رسما ثمّ رسمـــــا
ربّ همس صار نجما أو مناراً
فافتحي دنّ الكلام
واهطلي نورا وناراً

* * *

خيزراد ... الحبيبهْ
أعيدي لي الذّاكرهْ
وبرج حمام
وسنبلتين
لتروق زيتونة في فمي
أعيدي دمي مثلما كان
لا علبة في البلاد الغريبهْ
أيا خيزراد الحبيبهْ

* * *

افتحي دنّ الكلام
واهدلي في باحة الصدر يمامهْ
علّني أرتاح من عصف الزحام
وأريح النفس في حضن غمامهْ

* * *

أيا خيري .. ويا زادي
أعيدي عشب ذاكراتي
أعيدي صوت أجدادي
لينهض من رماد الصوت عصفور وعصفورهْ
يقيمان طقوس البوح والأعراس...
ردّي حلم داليتي
ليُولدَ في تخُوم الروح فصل خامس للحبّ
مرسوم على شفتي
أعيدي حجم خارطتي من الماء إلى الماء...
من الحوض إلى الصحراء..
ردي لون أسمائي
طموح النخل ردّيه ... أعيدي زهو أجوائي
أيا حلمي ...
ويـــا مائي

* * *

خيزراد...
دثريني...
و اصنعي من لاعج الشوق ربابه
و اعزفي لحن الحياة
و اطردي من ساحة القلب الكآبة

* * *

خيزراد...
رتلي حتى الصباح
قد تعود الدهشة البكر إليّ
ويعود الطفل معسول الصداح
مثل فجر أو نبيّ



عشُّ العصفُور

محمد علي الهاني

عُصْفُورٌ فِي بُسْتانِ الْفَجْرِ يُغَنِّي
لِلْفَرَحِ الْقَادِمِ مِنْ سُنْبُلَةِ الشَّمْسِ
شِراعَ عُطُورِ.

* * *

والنَّخْلُ الْبَاسِقُ يَجْرَحُ قَوْساً قُزَحِيّاً
بِالنَّجْمِ، يُخَضِّبُ دِفْءَ الْعُشِّ
وَشَدْوَ الشُّحْرُورِ

* * *

هبَّتْ ذَاتَ رَمَادٍ رِيحٌ
نَسَفَتْ عُشّاً
فِي عَيْنَيْ عَاشِقِهِ وَعْدٌ
يَرْحَلُ مِنْ حَرْفِ الضَّادِ
إِلى نَبْعِ النُّورِ.

* * *

رفَعَ الْعُصْفُورُ تُرَابَ الْحُلْمِ، وقبَّلَهُ
والقَمَرُ الأَسْوَدُ يَسْقُطُ مِنْ شَفَقِ الوَرْدِ لَظًى،
والجُرْحُ كِتَابٌ يَقْرَأُهُ وَجَعٌ
يَتَنَقَّلُ كَالْحُمَّى بيْنَ سَعِيرٍ وسَعِيرِ.

* * *

غمَسَ الْعُصْفُورُ مَلاَمِحَهُ
فِي الْحَرْفِ الأوَّلِ مِنْ دَمِهِ ،
فَانْتَفَضَ النَّخْلُ،
تَسَلَّقَ نَبْضَ الْيَخضُورِ.
والحَرْفُ الثَّانِي يَحْمِلُهُ قَاتِلُهُ طَوْعاً ،
ويَطُوفُ بِهِ فِي الْمَزْحَفِ مَزْهُوّاً . .
آه! مَا أَضْيَعَ ظِلاً يَتَطَاوَلُ فِي الدَّيْجُورِ.

* * *

آه! مَاذَا سيَقُولُ السَّيْفُ لِحَامِلِهِ
والْحَامِلُ والْمَحْمُولُ بلا حَوْلٍ فِي الْمُتْحَفِ ؟
مَاذَا سيَقُولُ الْوَرْدُ لِقَاطِفِهِ
والشَّوْكُ رِمَاحُ عَبِيرٍ ؟

* * *

الْحَرْفُ الأولُ مِنْ دَمِنَا
يتَلَظَّى
والحرفُ الثَّانِي مِنْ دَمِنَا
يَتَشَظَّى

والبَرْزَخُ بَيْنَهُمَا
يَمْتَدُّ مِنَ البَحْرِ إلى البحر،
وَهَلْ يَعْصِمُ مِنْ عَاصِفَةٍ حَبْلُ حَرِيرٍ ؟

* * *

الحرفُ الأوّلُ مِنْ دمَنا نَارٌ،
والحرفُ الثّاني مِنْ دمَنا ثَلْجٌ،
والحَرْفَانِ خرَابٌ
إنْ لَمْ يَشْتَرِكَا في حَمْلِ العُشِّ إلى العصفورِ.

* * *

كُرَةُ الثّلْجِ هنُالك تكبُرُ،
والجَمْرُ سنَابكُهُ احتَرَقَتْ
هل يَشْحَذُ هذَا العِطرُ مَخَالبَهُ
ويُعيدُ الفَورَانَ إلى التنُّورِ ؟

* * *

جرُحُكَ يَفْتَحُ نافذةَ السِّجِّيلِ،
وعُشْبُ دمائكَ يَنْمُو،
والصَّحْوُ يُوَاعدُ أغْنيَةً . . .
هزَّ إليكَ بجذعِ النَّخْلَةِ،
تطلَعْ بيْنَ الحرفَيْنِ شآبيبُ النُّورِ.

إبداع

الكرسيّ الأخير

بسمة البوعبيدي

شردت نظراته في السّماء.. راقب أشكالا رصاصيّة تلاحق شمسا صفراء كابية.. صفرة تنعكس على أسطح البناءات الكئيبة وأعالي الأشجار الجرداء التي طرحت كساءها تحتها لتلعب به رياح خريفيّة رطبة... بدت له صفحة السماء دانية عكس ما كان يظنّ... خيل إليه أنه لو فتح هذه النافذة ومدّ لها يدا للامسها. لأمسك بإحدى هذه القطع الرّصاصيّة، أو لمسح بكفه وجه الشّمس وأعاد لها بريقها الخابي... شعر بالكآبة تضيّق عليه الخناق فتراجع عن النافذة المغلقة وعاد ليجلس على أحد المقعدين المعدّين للانتظار في القاعة.. رمى بيده على المنضدة الصغيرة أمامه يلتقط إحدى الجرائد المكدسة عليها ثمّ أعادها إلى مكانها دون أن يفتحها وهو يكتم تأففًا خشية أن تسمعه.. استرق النظر إليها في جلستها الجديّة وراء المكتب الفخم... تبدو في انهماكها في عملها أنّها لا تحسّ بحركاته.... عاد يهرب إلى النافذة المحاصرة بالستائر الداكنة.. النّور الباهت والألوان الرّصاصيّة تتسلل عبرها إلى القاعة... أنفاس هذا الفصل الكئيبة تتغلغل بداخله فيثقل صدره.. صور شتّى تتسلّق سطح الذاكرة.. صور ضبابيّة مشوّشة ومبعثرة... التقط من بينها صورة لهما معا... نفض عنها تراب السنين فبانت ملامحها...

كان الطقس يومها... خريفيا كئيبا وشمسه صفراء...ابتسم له الوجه الصغير وهو يفتكّ منه قطعة الصلصال.. نظر إلى الخضرة الصناعية تحيطهما وإلى صلصاله يشكلّه بين يديه وهو ما زال يبتسم، ولم يحرك ساكنا ولكن تقاطر دمعه في صمت...

ألقى برأسه قليلا إلى الوراء...لمح صورته داخل الإطار الذهبيّ تعتلي ظهر الشابة الحسناء... عاد يتفرّسه... ملامحه لم تتغيّر كثيرا... ما زال يحمل ملامح ذاك الوجه الصغير الذي أخذ منه صلصاله وهو يبتسم، فقط لو أزال ذلك الشارب الكثّ الأسود لعاد الوجه منبعثا من ماضيه...

نظر في عينيه مليا... مازالتا تحملان نفس النظرة أيضا، فيهما عمق وتحدّ عجيب لم تكسره السنّون... بدا أنّ أنفه صار أكبر وربما امتلأ الوجه ولانت بشرته وأشع لون الروّاء والشبع ولا ريب...

استوقفه ذاك الخطّ البنّيّ المائل فوق الحاجب الأيسر... خفض عينيه لتقع نظراته على وجه الحسناء الجادّ وهي تنظر في ما بين يديها من أوراق غير مدركة ما يعتمل في داخله...

داهمته الذكّرى بكل ثقلها مرّة واحدة وعصرت قلبه...

اصطفت الكراسي الملونة الصغيرة وسط الخضرة الصناعية كباقة ورد جاهزة كي تهدي... تحلقوا بأجسادهم الصغيرة حول الكراسي... صفرّت «المنشطة» فانطلقت الموسيقى من آلة التّسجيل وانطلق دورانهم حول الكراسي، وحين توقفت الموسيقى تزاحموا جميعا واحتلّ كل منهم كرسيا وظل هو واقفا لا كرسي له...

انسحب من اللّعبة تلسعه قهقهاتهم الساخرة... تواصلت اللّعبة وتواصل دورانهم المحموم حول الكراسي التي ينقص عددها كلما انسحب لاعب...

ظلّ يرقبهم من بعيد حتى لمحه يفوز بالكرسي الوحيد المتبقّي وقد زاد إشراق ابتسامته على وجهه الصغير وازدادت نظراته عمقا وتحديّا... كان قد أغاظه أن يكون هو الرّابح دوما كلما أعادوا الكرّة... بدا له أنه شيطان هذه اللّعبة أو أنّ شياطين تمدّه بالعون ليكون الفائز دوما بالكرسيّ الوحيد...

لم يسلّم أمامه بالهزيمة وصمّم على كسر نظرة التحدّي هذه التي في عينيه...

لا بدّ أنّه تدرّب حتى أجاد اللعبة... ظل زمنا يتدرب ليجيدها مثله...

ثمّ ... ثم ذات دوران محموم على أنغام الموسيقى تناقصت الكراسي حتى بقي الكرسي الأخير، وتنافس المتنافسون حتى بقي معه وجها لوجه...

شعر بصعوبة الموقف... جفّ ريقه وتصبّب عرقه وهو يراه محتفظا بابتسامته وعمق نظرته المتحديّة... تحمّس أكثر.. ازداد تصميما على الفوز عليه هذه المرة...

دار في اهتياج حول الكرسيّ وقد ازداد صخب الموسيقى وعلا صراخ وتصفيق وهتاف المتفرّجين والمشجّعين... بدا له وهو يدور ويدور، أنّ الدنيا كلها تدور معه... محورها هذا لكرسي الذي يتوسّط حلقة الدوّران... بدا له أنّ دورانه ودوران الدنيا معه قد طال، وأنّ الموسيقى والضجيج المصاحبين لن يتوقفا أبدا...

ثمّ... ثم فجأة وفي غفلة منه توقف كل شيء و... سحب منه الكرسي ليجلس عليه - خصمه لاهثا - في موجة من التّصفيق... ينظر إليه مبتسما متحديّا، حينها لا يدري كيف استشاط غضبا واستعرت نيران بداخله فاندفع إليه يقلبه بكرسيه فارتطم جبينه بحافة الكرسي وانفلق عن جرح نزف سائلا أحمر... ظلّت آثاره خطا بنيا على الحاجب الأيسر تقاوم النسيان وتحفر لها في الذاكرة ركنا تسكنه...

عاد من شروده إلى المكان الكابي يتأمّل سماء غابت شمسها...

أتراه إذا دخل عليه اليوم سيذكر الذي كان؟

وكيف سينظر إليه من وراء مكتبه وهو على كرسيّة الضخم ؟

أفاق على صوت السكرتيرة الحسناء وهي ترطن بلغات عدة على سماعة الهاتف...

الضوء الأحمر على بابه يمنع الدّخول إليه ... سينطفئ هذا الضوء بعد قليل ولا شك، وسيدخل عليه بتأنقه الذي كلفه فوق قدرته...

هل سيذكره متى دخل عليه ويتذكر الذي كان ؟ كيف سيكون استقباله له ؟

أدخل يده في جيب بنطاله وسحب علبة المناديل الورقية... فتحها بلطف... استلّ منها واحدة... بيضاء نقية كما البدايات... لماذا اختار هذا اللون؟ العجوز البائسة التي تبيع هذه المناديل خيّرته بين الأخضر لون لحياة والورديّ لون الأحلام وهذا الأبيض... نظر إلى عينيها المنكسرتين وسحب هذا اللون.. قال لها وكأنّه يحدث نفسه : لماذا لا يكون بين هذه الألوان لون رصاصيّ أو أسود مثلا...

ذكّرته هذه العجوز بأمّه التي ماتت في شرخ الصبا... تساءل أكان يمكن أن تكون في مثل بؤسها لو ظلّت على قيد الحياة ؟

مسح جبينه، مسح حذاءه عدل من ربطة عنقه..

الظلام انتشر وراء النّافذة.. الرّيح العابثة المحمّلة بالغبار أصبح لها صوت موحش، نظر إلى الضوّء الأحمر على بابه وقد اختفى...

قام هادئا رصينا واتّجه خارجا دون أن يلتفت إلى السكرتيرة التي كان صوتها يلاحقه : «بأنّه يمكنه الدخول إليه الآن وأنّه في انتظاره».

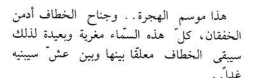


إبداع

لا تُهَاجِـــر



هاجــر ذويــب



هذا موسم الهجرة.. وجناح الخطاف أدمن الخفقان، كلّ هذه السّماء مغرية وبعيدة لذلك سيبقى الخطاف معلقًا بينها وبين عشّ سيبنيه غداً..

لم تكـوني في انتظار شيء بعينه لحظـة رنّ الهاتـف وتدفّق صـوته مرحاً كـأنّ شيئاً لن يحدث..

سيسافر بعد ساعات وسيترك لك كلّ هذا المكان المؤثّث به، أكان عن شوق أم عن حمق يطلب رؤيتك قبل رحيله؟ أيريدك الشاهد الأخير على غيابه والشّهيد في الآن ذاته؟

أيعتقد أنّك على هذا القدر من الصّلابة لتتحمّلي رؤية طيفه يتلاشى خلف غبار المحطّة؟

ستكون السّاعة الخامسة.. ستجدينه جالسا على إحدى مقاعد الانتظار في المحطّة ذاتها كما تعودّ أيّام السفَر القصير وسيقف لاستقبالك بابتسامة ساذجة ثمّ ينطلق في ثرثرة تشوّه جمال الصّمت الذي ستلبسينه طيلة اللقّاء، فيفسد عليك بأحاديثه التّافهة متعة إصغائك إلى صخب الأحاسيس داخلك، ستحاولين حبس دموع تتجمّع في مقلتيك وستفشلين كالعادة فيهتزّ لرؤيتها ويحتضنك في عنف مجنون، عنف يزعجك أحيانا لأنّه يشوّش عليك انسجامك مع الإيقاع المتباطئ لخطى الألم في أعماقك، كأنّه لا ينتبه إلى تخثّر الأوجاع على حواشي جراحك المفتوحة منذ زمن.. لكنّك لن تجدي بداً من مجاملته بابتسامة باهتة كي لا يشعر بانزعاجك وكي تملئي ما قد يتركه الصّمت من مساحات بيضاء فاضحة..

هي ساعة واحدة للوداع.. هل ستكفي لاختزال العشق في نظرتين، لاختزان ما يكفي من صوته، من ملامحه، من حركاته العابثة اللامبالية لما سيأتي من أيّام الغياب؟

هي ساعة واحدة... ثم يقف أهبة للرحيل، خطوتين إلى باب المحطّة، نظرتين، قبلة مباغتة يختلسها من شفاهك بارتباك وخجل ثمّ يرفع وجهك ويحملق فيه بعينيه السوداوين كأنّه يقرأ ما تكتبه القبلة عليه من حمرة.. هو لا يعرف الحرج الذي تخلقّه القبلة فيك، إنّها تميتك خجلا وتفسد انتشاءك بالحزن وتفسح لها مساحة من الذّهول وسط ركام الصّمت، ولأنّه يعزّ عليك أن تنهريه في تلك اللّحظات بالذات ستتكلّفين المرح كالعادة وتطلبين منه الذّهاب لتوقفي نزيف الألم..

أنت أجبن من أن تواجهي تلك اللحظات القاسية، تعرفين ذلك الإحساس المدمرّ، فقد خبرته من قبل في أيام غيابه لأسبوع أو لأسبوعين، سيكون مختلفا هذه المرةّ، فهذا موسم الهجرة وقد يطول الغياب، لذلك ستكون المرةّ الأعسر والأكثر حزناً على الإطلاق، وأنت أضعف من أن تصمدي، قد يحدث شيء ما.. ربّما تصرخين فيه أن كفّ عن الثرثرة، أو تدفعينه

بشدةّ إذا تهورّ كعادته وهمّ بضمكّ أو تقبيلك، أو ربمّا رجوته أن يعجلّ في الذهّاب. . هل سيدرك حينها، وهو الذيّ يسيء فهمك دائما، أنّ تلك هي طريقتك في استبقائه، تلك هي طريقتك في التعبير عن رفضك لفكرة رحيله. . هل سيفهم أنهّا طريقتك في حبس شلال من العاطفة والحب حتى لا يتفجرّ في وجهه فيؤذيه. .

أنت أجبن من أن تحضري موكب الهجرة هذا. . لذلك رفضت بشدةّ ورجوته ألاّ يلحّ في طلب رؤيتك في هذا اليوم بالذات. .

هو قدرك أيها الخطاف أن تملأ الأماكن بصخبك وغبطتك حتى تألفك وتعتادك، ثم تخلف لها كل ذلك الحنين إليك. . هو قدرك أن تشقى في بناء أعشاش تعرف أنك ستهجرها يوماً. .

هو قدرك مع كل الذين أحببتهم، فهم يرحلون دائما وبطرق مختلفة، يتركونك في مفترق المشاعر مثقلة بكل ذلك الشوق ويذهبون، ليس صدفة إذن أن يكون إسمك «هاجر» فعل أمر موجه لكل من يقترب منك. . .

هكذا بدأت تكتشفين الأمر مع أول مواسم الهجرة. .

رحل أبوك، دون أن يخبرك، كعادته أيام السفر، أي طريق تسلكان. . ربما لأنه رحل بمفرده هذه المرة، أو ربما لأنه لم يجد خياراً فهي طريق واحدة نحو الرحيل الأخير. . رحل وخلف لك كل ذلك الفراغ الموحش. . وحل موسم اليتم بعده ليغمر كل المواسم. .

ربما تفكرين الآن، وأنت بصدد البحث عن شيء يصلح لكتابة قصة جديدة، في الكتابة عن ذلك الرجل العظيم، إنه جدير ببطولة أكثر من قصة. .

ذلك الرجل الذي تتالت بعده مواسم الهجرة، وأنت كالواقفة وسط أسراب الخطاف، كلما تعلقت بواحد علقت أجنحته في فضاء الرحيل. .

فبعد عمر تقاسمتماه سويا بكل تفاصيل طفولته وشبابه، بعد أن صارت لكما عادات، وذكريات وأحلام مشتركة، تجدين «خولة» تستعد لحزم ريشها والهجرة إلى عشها الجديد. . «خولة» التي حطت في مواسم الحرمان من الأخت، فضممتها وظننت أنها التحمت بك إلى حد يستحيل معه فصلها عنك. . سيعود والداها من أعشاش الغربة لينسلاها من قطن أحضانك، فماذا تراك فاعلة بكل تلك الوحدة بعدها؟ وكيف ستواجهين أشياءها، سريرها الشاغر الذي سيلتهمه الصقيع، والأماكن التي تعودت الجلوس فيها، السكون المفاجئ المفجع الذي سيخلفه صخبها الخابي، ماذا ستصنعين بكل تلك الذكريات المتناثرة في زوايا البيت؟ تلك التي ستحاصرك حيثما أجلت البصر. .

ستهاجر «خولة» هكذا بكل هدوء دون أن يحدث شيء يهز الزمن من ذراعيه ويسأله إلى أين تسير بنا أيها الأحمق. .

وها هو أيضا يهاجر. . وبكل هدوء. .

فماذا ستكتبين بعد كل ذلك؟ هل ستكفيك قصة واحدة لتقولي بكل بساطة إنك «خولة» وكفى؟. .

هي أعشاش أخرى للإنتظار، ويأزف موعد الهجرة أيها الخطاف، وستسحبك السماء من جناحيك لتلفظك إلى انتظار جديد. .

ما الذي أيقظ كل تلك الأحاسيس عندما فتحت الغرفة لتلقي عليها نظرة أخيرة؟ أتراه التدفق المباغت لسيول الذكريات، أم مغادرتك لها وحيداً؟ رحل «عماد» منذ ليلة أمس بكل برود كأنه

لايحمل شيئا من هذه الغرفة، أو كأنها لا تحمل منه شيئا.. لا تدري إن كان تعجيله في الرحيل صدفة، أم أنه أيضاً أجبن من أن يواجه كل هذا الألم وتركك تستأثر به وحدك؟

هو موسم الهجرة إذن... ستغادر هذه الغرفة التي عشت فيها أغرب الأحداث وأروعها وأكثرها حزناً ودماراً.. هنا تقاسمت معه معظم اللحظات، أكلتما معاً وجعتما معاً، وضحكتما وبكيتما وكتبتما... هنا دخنت حتى تقيأت وسكر حتى ثمل، وهنا صلى أيضاً... مزيج من الأحداث والأحاسيس المتناقضة عشتماها في أقل من سنة خلف باب هذه الغرفة.. أيمكن بدورة قفل واحد أن تحبس فيها كل تلك الذكريات؟

فكرت يوما في كتابة شيء ما تسميه «أوراق الغرفة هـ 12 /5» أسوة بـ «أمل دنقل» الذي كتب على فراش الاحتضار «أوراق الغرفة 8»، لكن قول «روني شار» كان يطاردك دائما: «لا نقطن في الشعر إلا المكان الذي نغادره»، وغادر «أمل دنقل» «الغرفة 8» إلى الأبد، فعدلت عن الفكرة تماما لأنك مولع بترك فجوة وسط العتمة يمر منها بصيص الأمل.. لذلك أيضا امتنعت عن تسليم مفتاح الغرفة لإدارة المبيت.. شيء ما كان يلح في داخلك على الإحتفاظ به كأنه يجزم لك أنك ستعود يوماً..

لم تكتب شيئاً يومها على الأوراق التي أعددتها «للغرفة هـ 12 /5» واكتفيت بكتابة بعض الكلمات المقتضبة على بابها فقد كان يعز عليك أن تغادرها دون أن تترك أثرا ما يدل عليك ويشهد أنك مررت يوما من هناك، وذيلتها بإمضاء أربكك إطلاقه على نفسك لأول مرة، «المهاجر».

نظرة أخيرة على المشهد المقابل للنافذة، كومة من المباني البيضاء، شجيرات زيتون متناثرة على جانبي الطريق، وسكة حديدية تهتز في فتور لأزيز قطار عابر...

ثم أغلقت الباب...

بعد قليل ستراها تطل بوجهها المحبوب من الشارع المقابل للمحطة، أنت واثق من أنها ستأتي رغم إصرارها على الرفض وتعللها بجبنها في مواجهة الوداع، ستأتي لأنها أجبن من أن تجبن، وستلوذ بذلك الصمت الأحمق كعادتها، فتضطرك بذلك لاختلاق مواضيع للحديث كي تقطع حبل الصمت الخانق، ستأتي وستبقى تحملق في أرجاء المحطة ببصر طفل يتهجى الألوان، غير مكترثة للعواصف التي تضج في أعماقك، ثم هكذا فجأة، تسيل دمعة مكابرة على خدها تفتح لها شهية شرسة للبكاء، فتجد نفسك تدفن وجهها في صدرك بعصبية.. هل ستفهم أنك بذلك تحاول تضميد جرح تفتحه دموعها داخلك؟ هل ستقدر صمودك وأنت تحاول بحركات مفتعلة إخفاء ارتباكك واضطرابك؟

ستأتي حتماً، بحثاً عن نهاية لقصة ستكتبها.. أنت متأكد أنها الآن تفكر في كتابة شيء ما بضمير المخاطب، ذلك ما استنتجته من قولها «إننا نكذب في الأدب حين نكتب عن أنفسنا بضمير المتكلم، فالإنسان لايستطيع التحدث عن نفسه بحياد»..

ستأتي وستهديها تلك النهاية كما لم تتوقعها يوماً.. لن ترهق نفسك في المكابرة هذه المرة ولن تترك لها الفرصة لذلك، بل ستعريها وستخلع عنها أقنعة الضحكات والابتسامات المتكلفة، ستكشف ملامحها التي تكاد الدموع تمحوها، لن تثرثر لتقطع حبل الصمت الذي يطوقكما بل ستزيده شدا حتى تختنق العبرات فتنفضحان معا، لن تفتعل أي تصرف لتخفف من وطأة الحزن كما تعودت بل ستجعلها المرة الأروع في دمارها

وألمها، ولتكتب بعد ذلك ما تشاء إذا استطاعت..

هكذا هم الأدباء يتفننون دائما في إيلام أنفسهم ويتوهّمون أنهم يصنعون سعادتهم بخلق عالم جميل وبديل، ولا ينتبهون عن حمق إلى أنهم في الحقيقة يصنعون بذلك تعاستهم، فهم يفسدون أنفسهم ويحرمونها من إمكان العيش خارج كتاب..

الساعة الخامسة.. وضعت الحقائب على الأرض وأجلت بصرك في المكان..

إنها بعد لم تأت، لابأس فمن عادتها أن تتأخر، هي التي تعيش خارج الوقت، تقول دائما إن كل شيء يكون جميلا في وقته.. لقد تأخرت عنك عمرا قبل أن تلتقيا، فلا غرابة أن تتأخر بعض الدقائق قبل أن تفترقا.. وقد يكون ذلك جزءاً من النهاية التي تحاول صياغتها، هكذا هم الأدباء يمنحون قيمة للأشياء التي لاتستحق، حتى بعض دقائق الانتظار تصبح معهم شيئا صالحا للكتابة..

مازال الوقت كعهدك به، عقارب مجنونة لاتكفّ عن الدوران وسط حلقة من نار.. تتذكر أنك يوما أفسدت ساعة يدك وأهديتها إياها في محاولة يائسة لإيقاف ذلك الانزلاق المجنون للدقائق القليلة التي تقضيها برفقتها.. ها هي سرعة الوقت ماتزال تهدر من عمرك وتسفك من لحظاته الشيء الكثير..

لم يبق لك متسع من الانتظار، وهي بعد لم تأت،

لن تأتي إذن..

نهظت مجهضا آخر مضغة أمل داخلك، ورفعت الحقيبتين إلى كاهلك.. كان عليك أن تدرك منذ البدء أنها لن تأتي فعلا، لأنها مهووسة بالأدب ومن غير الممكن أن تسمح لها نرجسيتها الأدبية بالمجيء إلى هنا بحثا عن خاتمة قصة من المفروض أن تكون هي مؤلفتها، كان عليك ان تفطن إلى نيتها في كتابة النهاية بمفردها..

هذه هي النهاية التي اختارتها إذن..

لم تفهم أن الحياة ليست أدبا، ولا يحقّ لها أن تتصرّف في أحداثها ككاتبة، لم تنتبه إلى أنها لا تتعامل مع أبطال من صنع خيالها بل مع بشر يحسّون ويشعرون..

تبا لهذا الأدب الذي يسلبنا متعة الواقع..

اختارت أن تكتب عنك إذن، لذلك بدأت تشعر في تلك اللحظات بالاختناق وكأنك محتجز بين قضبان من أسطر داخل صفحات قصة..

هكذا هم الأدباء، يبنون مجدهم على مآسي أبطالهم..

خطوتين إلى باب المحطة.. ثم نظرة يائسة إلى الشارع المقابل..

يهاجر الخطاف ويترك لك حزمة من صفحات الغياب وبعض الريش العالق في أعشاش هي ليست أعشاشه القادمة.. فهل سيكفيك كل ذلك البياض لتقولي إنه لم يبرحك قط؟

لاشيء يهاجر سوانا.. نحن الذين نرحل أنفسنا، لاشيء خارجنا، كل واحد منا يحمل في أعماقه عالما بأسره، نحن الذين نعبره من ضفته إلى ضفته على أحلامنا المعلقة بين ماضينا ومستقبلنا.. لاشيء يتغير في الواقع، إنما نظرتنا للأشياء وإحساسنا تجاهها هو الذي يتغير لأننا في الحقيقة نحن من يمنح للأشياء قيمتها...هذه فكرة تصلح للكتابة أخيراً...

تونس عبر التاريخ

عبد الرحمان الكبلوطي

أصدرت مؤخّراً وزارة البحث العلمي والتكنولوجيا وتنمية الكفاءات سلسلة كتب بعنوان «تونس عبر التّاريخ. . بمباشرة فعليّة من مركز الدّراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعية، وبتأليف لنُخبْة من الأساتذة الجامعيين، وقد اشتملت سلسلة الكتب هذه، على 4 أجزاء كبرى، أشرف على الثلاثة الأولى منها الأستاذ خليفة الشاطر وعلى الرباع الأستاذ زهير المظفر، وكانت هذه الكتب على النحو التّالي (ومقاسها 22.5x31):

الجزء الأول: العصور القديمة

الجزء الثاني: من العهد العربي الإسلامي إلى حركات الإصلاح

الجزء الثالث: الحركة الوطنيّة ودولة الاستقلال

الجزء الرابع: تونس التحـول

وقد نال هذه الكتبَ ومؤلّفيها شرفُ الكلمة التي دونّها سيادة الرئيس زين العابدين بن علي بخط يده، حيث كانت أحسن افتتاحيّة لهذا «العمل الشامل والأول من نوعه في تونس الحديثة» ومما جاء في هذه الكلمة الرئاسيّة قول سيادته «إنّ التاريخ بأخباره وعبره ورمُوزه ومغازيه هو مبنى للهويّة والعمود الفقرىَ للشخصيّة الوطنيّة»، كما تفضلّ سيادة الرئيس بشكر الأساتذة المؤلّفين وتشجيعهم على ما قاموا به «من أجل إعلاء شأن بلادهم والإسهام في صنع مُستقبل أجيالنا القادمة».

الجزء الأول: العصور القديمة (ويقع في 236 صفحة): تناول فيه الباحثون عرضا وتحليلا لجذورنا، بدءا بالعصور الحجريّة وأسلافنا اللّوبيّين لينظروا بعد ذلك في تاريخ بلادنا من عهد «قرطاج» الذي كان «قوّة وحضارة متوسطيّة»، راسمين ملامح تلك الحضارة، ذاكرين «الممالك النّوميديّة» ثمّ «الصّراع القرطاجني الروماني»، ليبلغوا مدى «افريقيا الرومانية وحضارتها»، بذكر ا لحضارة الافريقيّة الرومانية بتألق آدابها وتعايش الديانات فيها، ومن ثمّ وقع الخوض في أمر إفريقيا المسيحيّة، وكيف تطوّرت ثمّ تراجعت بظهور الوندال بتونس ثمّ بحضور البيزنطيين.

الجزء الثاني: من المعهد العربي الإسلامي إلى حركات الإصلاح (ويقع في 312 صفحة من الحجم الكبير كذلك):

وهو أضخم الأجزاء وأكبرها حجما لأنه يتناول بالدّرس فترة طويلة من تاريخ تونس تمتدّ من الفتح الإسلامي (ق1 هـ / ق7 م) إلى العصر الحسيني وظهور حركات الإصلاح في

تونس (ق 13 هـ/ق19 م)، وقد شمل البحث عصر القيروان والخلافة الفاطميّة فالدّولة الصنهاجيّة وذكر الهجرة الهلاليّة وانعكاساتها، وتاريخ الموحدّين فأوج العصر الحفصي وما أضافه الأحفاص من حضارة وعمارة ومواقع ومعالم، لينتقل المؤلفون للحديث عن تونس من ولاية عثمانيّة إلى دولة حسينيّة، وتطور نظام حكم البايات في القرنين السابع عشر والثامن عشر والتركيز على أوج الدّولة الحسينيّة مع حمودة باشا، وإبراز معالم «العمارة والفنون» في عصره.

وقد سلّط القسم الأخير من هذا الجزء الأضواء بدقة ومنهجية على «الأزمات والتحولات في القرن التاسع عشر» ليتخلّص لتحليل المشروع الإصلاحي مع خير الدين وبيرم الخامس وابن أبي الضياف «بين الطموح والواقع»

الحركة الوطنيّة ودولة الاستقلال: (وقع في 208 صفحات)

تناول هذا الجزء بالدّرس وضع البلاد التونسيّة من بدء الحماية الفرنسيّة 1881 إلى بناء الدّولة الوطنيّة وانتهت مع فجر التحول المبارك يوم 7 نوفمبر1987 .

وكان القسم الأول تأريخا وتحليلا لجذور الحماية الفرنسيّة وتنظيم الحكم فيها وحديثا عن المجتمع والاقتصاد آنذاك، وما نشأ عن الضغط الاستعماري من نشأة «الحركة الوطنيّة التونسيّة» (1907 ـ 1956)، مـــع حركة الشباب التونسي (1907 ـ 1912) فتأسيس الجزب الحر الدستوري (1920 ـ 1934) فالنضال من أجل الاستقلال (1934 ـ 1952) فالحركة النقّابيّة (1924 ـ 1952) فالمقاومة والتحرير (1952 ـ 1956) وتنظيم المقاومة المسلحة إلى بلوغ «الاستقلال الداخلي» وفتح المفاوضات الفرنسيّة التونسية، والمطالبة بالاعتراف باستقلال تونس والحصول عليه في 20 مارس 1956 بتوقيع الاتّفاق الذي تعترف فيه فرنسا بممارسة تونس لمسؤولياتها في ميادين الشؤون الخارجيّة والأمن والدفّاع وتشكيل جيش وطنيّ تونسيّ.

أمّا القسم الأخير من الجزء الثالث فقد تناول بالبحث «الدّولة الوطنيّة وكيفيّة بنائها. واكتمال السّيادة، سياسيا وعسكريا واقتصادياً، وكذلك تربوياً وثقافياً «تأسيسا للمجتمع الحديث وتجديدا للثقافة»، وكذلك تناول الكتاب «الاشتراكية الدستورية (1961 ـ 1970) وما حدث من منعرج ومأزق سقطت به هذه المبادرة ليعوّضها منهج «انفتاح اقتصادي وانغلاق سياسي« تعدّدت معه الأزمات واسودّت وانسدّت معه الآفاق، حتّى كان يوم 7 نوفمبر 1987 .

تونـــس التحولّ (ويـقع في 208 صفحة)

ينقسم هذا الجزء إلى 3 أجزاء كبرى يتفرّع كل واحد منها إلى فصول وفقرات، وأوّل جزء تناول «التحولّ والتأسيس للإصلاح» بقيادة

صانع التغيير سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، حلل فيه الباحثون ما حصل من مصالحة وطنيّة وتجديد للحياة السياسيّة بتوقيع الميثاق الوطني، وتعزيز حقوق الإنسان، وبدء الاصلاح الاقتصادي واقتراح الحلول الأولى في إطار مخطط التنمية (1987 ـ 1991) وكذلك «الرؤية الاجتماعية الجديدة».

أمّا الجزء الثاني، فتناول بالدّرس «النقلة الاقتصاديّة والتحوّلات الاجتماعية والسّياسيّة» وطرق تدعيم الإصلاحات في التّسعينات في كل المجالات (اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا)، ومنها التنمية الجهويّة وصندوق التضامن الوطني والشراكة مع الخارج، والعناية بالجالية التونسية خارج الوطن، وتشغيل الشباب، والعناية به، والمكاسب القانونية للمرأة، ودعم المسار التعدّدي، والمجتمع المدني. ويختم المؤلفون كتابهم في جزئه الثالث بتدقيق كيفيّة «الدخول في القرن الواحد العشرين» وتطوّر الحياة السياسية من إصلاح دستوري، إلى تواصل المسار الديمقراطيّ التعدّديّ ودعم الإعلام، وتعزيز حقوق الإنسان في أبعادها الشاملة، دون سهو عن توجّه دولة العهد الجديد في اقتصاد متفتّح على العالم، وتأسيس لمجتمع المعرفة وإصلاح للتّعليم ودفع للثقافة والرياضة ودعم موقع تونس في فضاءات انتمائها، وانخراط في الشراكة مع الاتحاد الأروبي وتوسيع مجالات التعاون الدّولي، وإسهام فاعل لتونس التحوّل في تفعيل العمل العربيّ والافريقيّ وفي الساحة الأورو ـ متوسطيّة.

وبهذا تكون الأجزاء الأربعة من «تونس عبْر التّاريخ» قدْ أعطت صورة ناصعة عن الحضارة التونسيّة وإبداعات أبنائها منذ العصر الحجري إلى دولة التغيير المبارك، وقد زادت الصور والبيانات والرسوم البيانيّة داخل أجزاء الكتاب المقالات والأركان بهاء واكسبتها رونقا، وهي، كما قال سيادة الرئيس زين العابدين بن علي في كلمته البليغة «دلالات تكرّس تعلقّنا بهويّتنا وبأمجادنا التاريخيّة وتستْلهِمُ مآثر أجدادنا ومكانة تونس العالية دَوْماً عبر العصور».

مكتبـة الحيـاة الثقافيـة

إشراف: عبد الرحمان مجيد الربيعي

«رهانات الثقافة والتنمية في تونس..»

إشراف وتقديم: د. محمد زين العابدين

بمناسبة **الذكرى الخمسين للاستقلال** صدر بتونس كتاب عنوانه «**رهانات الثقافة والتنمية في تونس في مطلع القرن XXI مقاربات وبحوث ميدانية في الواقع والتحديات**» والكتاب من إعداد: محمود هدريش، زاهر النخيلي، رضا الهيشري وحلمي بن نصير وأشرف عليه وقدّم له د. محمد زين العابدين. وصدر الكتاب بدعم من معهد جماليات الفنون المعاصرة ـ جامعة باريس 1 ـ بانتيون السربون والمركز الوطني للبحوث العلمية.

يقول د. زين العابدين في مقدمته: (إنّ المقاربة التحديثيّة لأغراض الثقافة من زوايا التنمية والتأهيل أصبحت اليوم في تونس استراتيجيا تصل القول بالفعل. لذا نبثت في هذا الكتاب جملة من الدراسات ذات الصلة بمواضيع الصناعة الثقافية والسياحة الثقافيّة والتكنولوجيات الحديثة والانسانيات كي تكون منطلقا «لرسم الواقع ومرجعا لمطالعة المستقبل من منظور يراد به الإقرار بالحقّ في الثقافة والتنمية الثقافية وطنيا «وجهوياً»).

كا يقول في المقدّمة نفسها: (ويقيني أن يشكّل هذا المدخل للموضوع منطلقا للاهتمام والمتابعة كي نثمّن نتائج البحوث العلميّة بصورة تفيد عمليا، أولويات الدوّلة في البحث عن مواطن التشغيل والسهر على التفتّح المرجوّ بين الجامعة وميادين الفعل الاقتصادي والاجتماعي).

البحث الأول في الكتاب لمحمود هدريش وهو طالب دكتوراه وباحث في العلوم الموسيقيّة. وبحثه جاء تحت عنوان (الصناعة الموسيقية بتونس ـ صناعة المصادر الموسيقية السمعية والبصرية في بداية القرن XXI).

والبحث علمي في مجاله من باحث مختصّ، وقد استغرق بحثه قرابة السبعين صفحة من القطع الكبير بحيث يصلح لأن يكون كتابا «مستقلا».

ومما توصّل إليه في خاتمة بحثه القيّم هذا قوله: (إن تدخل التكنولوجيا الحديثة في مجال الفن وانفتاح الثقافات الاقليميّة على الثقافات العالمية طرح على الفنان والمؤسسات التي لها علاقة بالمجال الفنّي عدة تحدّيات لعل أهمّها الخروج من الحدود القطريّة للعمل الموسيقي الفنّي والتحاقها بالموسيقي العالمية، وهو ما

أوجد مصطلح التحديث في هذه المسائل).
لكنّه يرى بأنّ (نتائج البحث أثبتت أن عمليّة التحديث قامت على تغريب الموسيقى الوطنيّة وركونها إلى النّسيان مقابل ارتمائها في موسيقى الغير كصنف الموسيقى الخفيفة أو تحديث التّراث الموسيقيّ المحلّيّ).

وهذا مجرّد جانب من الآراء التي توصلّ إليها والتي شملت كلّ ما يتعلّق بالموسيقى اليوم.

أمّا زاهر النخيلي وهو الآخر طالب دكتوراه في الموسيقى وعلومها فيكتب موضوعا «بعنوان «السياحة الثقافية في تونس ـ المهرجان الدّولي للصحراء بدوز نموذجاً»).

وبحث النخيلي يدور حول مهرجان دوز الشهير ويرى الباحث أن (السياحة في ظل النظام العالمي الجديد ترتبط أساسا «بمبدإ المنافسة على أساس التميّز النوعي المقدّم للسائح، لذا فإنّ توافد السياح يكون قوياً» كلما كان العرض يستجيب للطلب، أي لرغبات السائح وحاجياته الثقافية الترفيهيّة وبذلك يتأكد لنا أن إحدى مؤشرات التنمية تتمثل في القدرة على توظيف المادة الثقافية والحضاريّة والاجتماعية لدعم مردودية السياحة في البلاد).

وقد اعتمد الباحث على الأرقام والمراجع التي أثرت بحثه هذا الذي يصلح أيضا «لأن يصدر في كتاب مستقل نظراً لسعته وامتداده على ما يقرب من 70 صفحة من المقطع الكبير.

وفي البحث ثبّت المؤلف نصّ خطاب سيادة رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي بمناسبة اليوم الوطني للثقافة بتاريخ 2005/5/27 .

والبحث الثالث لرضا الهيشري وهو أيضا طالب دكتوراه في الموسيقى وعلومها. وعنوان بحثه «جديات الموسيقى والجسد» والبحث معهم في موضوعه، ومن استنتاجاته: (إن فترة ما بعد الحداثة فترة الصورة بامتياز، فهي تتعامل مع المجسمات والحيثيات ويبدو أنّ الفكر ضيّع على نفسه فرصة مشهدية من منطلق تجريديّة. لقد صار الفكر خادما «للجسد يبحث في رخائه وأسباب ميدونيته بعدما ظل طوال تاريخه ينقده ويتفنّن في تقريعه) ويقول أيضا: (لقد أصبح الجسد يتخذ تمظهرات عدّة يحقّق من خلالها شكلا من أشكال التحرر والتمرد، كالجسد في ممارسته للرياضة أو الجسد في علاقته باللباس والحفلات وعلى الشواطئ في الصيف أو الجسد في الطب أو الجسد كأثر فني. ولئن حقق بعضا من اغوائيته فإنّ للمشهدية الوقع الأكبر لحضور الموسيقى فيها، فلقد مثّل الجسد والموسيقى لغة دالّين لمدلول واحد. تنهض عليه الموسيقى المشهديّة).

أمّا البحث الرابع لحلمي بن نصير فباللسان الفرنسي ويندرج هو أيضا في سياق رهانات الثقافة والتنمية.

جاء الكتاب في 341 صفحة من القطع الكبير. وصدر في مارس 2006.

[illegible] أبي الضياف السرية إلى [illegible]

دراسة وتحقيق يونس وصيفي

يعدّ أحمد بن أبي الضياف من أبرز الشخصيات الفكرية التونسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

في مقدّمة الكتاب الصادر حديثا والمعنون «رسائل أحمد بن أبي الضياف السريّة إلى محمود بن عياد 1850 ـ 1853» يقول الدآرس والمحقق لهذه الرسائل يونس وصيفي بأنّ (الوثائق الأرشيفيّة لا زالت تطلعنا من حين لآخر على أحداث تناقض أحيانا مادوّن بالخطاب الرسميّ السائد منذ القرن التاسع عشر وتقدم حقائق ظلت مجهولة. ولغرض البحث عن المسكوت عنه وما تجاهلته الوثائق الرسميّة وجهّت بعض الأعمال مجال اهتمامها إلى الوثائق الخاصة. فالمراسلات رغم طابعها الشخصيّ تكون أحياناً مصدراً تاريخياً بالغ الأهميّة تضيف معطيات عدّة وتكمل بعض ما أغفله أو تغافل عن ذكره المؤرخون لأسباب معيّنة).

وبالنّسبة لرسائل ابن أبي الضياف السريّة الى بعض الشخصيات المخزنية في القرن التاسع عشر يرى الدارس بأنها تعدّ (من أهم الوثائق نظرا لمكانة هذا الرجل في البلاط الحسيني وقدرته على تقديم معلومات ربما لم تتوفّر لغيره من معاصريه).

ويذكّرنا بأنّ الأستاذ محمد صالح مزالي قد تناول جانبا هاماً من هذه الرسائل إلاّ أنّ (هناك مجموعة أخرى لا زالت مغمورة بين ثنايا الوثائق الأرشيفيّة على أهميّتها التاريخيّة ونعني بذلك رسائل ابن أبي الضياف إلى محمود بن عياد).

ويشير الدارس إلى قلة هذه الرّسائل محددًا عددها بـ (21) رسالة. ولكن سبب دراسته لها لكونها (تضمنّت معلومات لم تتوفّر بغيرها من المصادر الأخرى وكشفت حقائق وتفردّت بها).

وقد قسّم الدارس كتابه إلى قسمين الأول عن (الظرفية التاريخية التي كتبت فيها هذه الرسائل وهي مكمن أهميّة هذه الوثائق. ثمّ بشخصيتي أحمد بن أبي الضياف ومحمود بن عيّاد ـ مرسل ومتقبل هذه المكاتيب).

ويضعنا الدارس في الظرفية التاريخيّة للرسائل حيث (شهد الفضاء المتوسّطي منذ بداية القرن التاسع عشر تحولّات متسارعة لم تكن في صالح الإيالة التونسية. ورحيل بن عياد إلى فرنسا وحصوله على الجنسية الفرنسية بعد أن تعلّل بالمرض وبعد إقامته تبدأ مراسلات ابن أبي الضياف بالوصول إليه. ويقول الدارس بأنّ (ما يثير الانتباه في هذه الوثائق تحالف كاتبها مع محمود بن عياد ضد الباي ومصالح الإيالة وبعض الأطراف الأخرى ورغبته الفيّاضة في تدعيم مصالح بن عياد في الإيالة. إضافة إلى مواصلة التّراسل معه بعد

حصوله على الجنسية الفرنسية وكتم خبر تجنيسه على الباي).

ثم يقدّم تعريفا بابن أبي الضياف وآخر بابن عياد.

بعد ذلك يثبت الدارس في القسم الثاني من كتابه نصوص الرسائل التي تراوح تسميته لها بين (رسائل) و(وثائق) وهي وثائق فعلا.

ويستدرك مؤكدا بأنّ تحقيقه للرّسائل لم يهدف منه «التشهير» بابن أبي الضياف بل إطلاع القارئ على وثائق ومواقف (ربما لم يطلع على مثلها مؤرخ ومصلح كثيرا ما ندّد في اتحافه بابن عياد وبأعوانه).

كما يشير إلى أنّ الرسائل (تميزّت بطغيان العامية وكثرة الأخطاء اللغويّة والمصطلحات الأجنبيّة) ويشير أيضا إلى أنّ ابن أبي الضياف قام بمحاولة (إضفاء طابع خاص به من خلال استعمال قوالب وكلمات تبدو مخالفة نسبياً لنمط الكتابة السائدة آنذاك).

كما أنّ الرسائل قد قسّمها الدارس إلى قسمين الأولّ (قبل تجنّس بن عياد بالفرنسية) والثاني (بعد تجنسه).

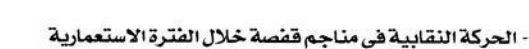
ونصوص الرسائل وضعها الدارس كما كتبها ابن أبي الضياف.

هذا الكتاب يهمّ المعنيين من الدارسين والباحثين كما يهمّ أيضا القراء الذين يودّون الاستزاده لمعرفة تاريخ بلدهم.

يقع الكتاب في 154 صفحة من القطع الكبير وقد طبع في مطبعة الشرق ـ تونس 2005.

جديد النشر في تونس

إعداد : أبو رانية


- الحركة النقابية في مناجم قفصة خلال الفترة الاستعمارية

* حفيظ الطبابي
* المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية
* تونس 2005

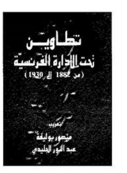
يدرس المصنف إجمالا واقع الحركة النقابية في مناجم الفسفاط بجهة قفصة إبّان فترة الاستعمار وإلى غاية الاستقلال وقد ورد في ثمانية فصول احترم فيها التدرّج التاريخيّ لدراسة مختلف مراحل هذه الحركة.



- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

* تنسيق : محمد بن محمد الخبو
* وقائع ندوة قسم العربية للسنة الجامعية 2003 ـ 2004
* كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس 2006

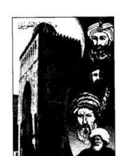
الكتاب في جزئين كبيرين : اهتمّ الجزء الأولّ بالطبري مفسرًا وقد تضمن عشر مداخلات. أمّا الجزء الثاني الذي جمع ستّ مداخلات فقد اهتمّ بالطبري مؤرخا وأديبا في النص التاريخي.




- تطاوين تحت الإدارة الفرنسية (من 1882 إلى 1930)

* تعريب منصور بوليفة وعبد النور الجليدي
* تونس 2006

كتيب صغير صدر باللغة الفرنسية سنة 1931 عن «الإقامة العامة لفرنسا بتونس «مكتب الشؤون الأهلية» وهو فيما يبدو تقرير كتبه أحد الفرنسيين عن تطاوين وعن صحراء الجنوب التونسي إبّان فترة الاستعمار.



- أعلام من المغرب ومن المشرق

* د. أحمد الطويلي
* المطبعة الرسميّة تونس 2006

كتاب يتألف من قسمين : قسم أول قدّم فيه مؤلفه نصوصا تتعلّق بأعلام من تونس في فترات تاريخيّة مختلفة وقسم ثان تعرّض فيه لأعلام من المشرق.



- مذكـرات المنــفى

* محمود بيرم التونسي
* إعداد شهاب بن يوسف
* عالم الكتاب 2005

صدر الكتاب ضمن سلسلة «المطالعة الميسّرة» التي يديرها الأديب عبد الواحد براهم وهو يشتمل على كامل مذكرات الزجال بيرم التونسي في المنفى.

يقول معدّ الكتاب «لقد حرصنا على تحقيق هذه المذكرات في مضانها لسدّ ثغرات الطبعات السابقة الصادرة عن الدار التونسيّة للنشر».

«وهيــج الرمــاد»

* بقلم المرزوقي
* دار ا لمعارف للطباعة والنشر سوسة 2006

وهيج الرّماد عبارة عن قصيد ملحمة يبتدئ في أوّل الكتاب وينتهي في آخره يتردّد كما ذكر محمد البدوي في التقديم بين قطبين قطب الواقع بما فيه وقطب أحلام الشاعر وآماله.

* الجديد في مهنة العدول المنفذين القانون والإجراءات

* محمد الحضري سليماني
* تونس 2006

كتاب يدرس مستجدات مهنة العدول النفذين قانونا وإجراءات كما يشير إليه عنوانه الفرعي.

- مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني

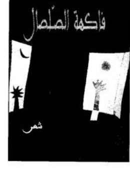
* مراد بن عيّاد

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس جانفي 2006

كتاب يروم كما يقول حمادي صمود «مدونة الشاهد» في البلاغة على غرار ما يجري في اللغة والنحو، مما يجعل البحث فيها ينفتح على آفاق ذات بال إذ يمكن أن يكون تحديد «المدونّة» مدخلا من أوكد المداخل إلى النظريّة الأدبيّة من موقع خاص.

كتاب في ثلاثة فصول كبرى تعرّضت تباعا إلى «مدونة الشوّاهد والدستور البياني والنقدي «وإلى» مدونة الشوّاهد وخصائص تصوير الكلام» وإلى «مدونة الشوّاهد وخصائص انتظام الكلام».



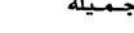


- فاكهة الصلصال

* مراد العمدوني

* تونس 2006

مجموعة شعريّة تتضمّن ثلاث قصائد : طائر النوء - وجماجم مجففة - والتنين.

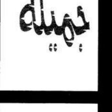


- جميلة

* جلال الحبيب

* تونس 2006

هو كتاب مزيج بين الشعر والنثر تضمّن أربعين نصاً. ثلاثون قصيدة وعشر أقاصيص شكلت محتواه.



نقرأ على صفحة الغلاف الخلفية :

موطئ قدميك
أجمل من صوتي
وثرثرتك كل صباح كنآبه
أرقى من صمتي
يا أجمل جميلة
كم أتمى
أن أمضي قبلك
لكنّي
أخاف عليك
من موتي . . .

- ليلى ترفع أشرعة روحي

* سمير العبدلي

* تونس 2006

مجموعة شعرية تتشكّل من احدى وعشرين قصيدة نقرأ في التصدير :

«إلى التي

رفعت أشرعة روحي بعيدا

عن غبار المهزلة

يدة الوعي ليلى»



- الفضلة في النحو العربي (المفاعيل)

* الهذيلي يحيى

* صفاقس 2006

كتاب يقول صاحبه في المقدّمة «إنّ تتمةً لمشروع دراسة تتناول الفضلة في النحو العربي مبنى ومعنى «وهو كتاب مختص في النحو بل قل في جملة المفاعيل منه، المفعول به والمفعول المطلق والمفعول فيه والمفعول لأجله والمفعول معه.

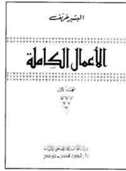


- الولايــة على المــال

* سامي العيادي

* دار محمد علي للنشر 2006

كتاب قانوني يتعرّض فيه صاحبه إلى كل ما يتّصل بموضوع الولاية على المال وقد عرّف المؤلف في المقدّمة الولاية وقدم خصائصها ومجالها وتطوّر نظامها وكل المفاهيم المتعلّقة بها.

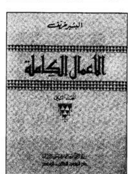


- الأعمــال الكاملــة

* البشير خريف
* دار الجنوب للنشر
* وزارة الثقافة والمحافظة على التراث
* تونس 2006

صدر المجلدان الأولان ضمن سلسلة «أمهات الكتب» التي تشرف عليها وزارة الثقافة والمحافظة على التراث من الأعال الكاملة للبشير خريف في انتظار صدور ما تبقى.

تضمن المجلد الأول استعراضا لإصدارات السلسلة ثم مسيرة البشير خريف وأثاره كما تضمّن «برق الليل» و«بلارة» وتضمّن المجلد الثاني «حبك درباني» و«الدقلة في عراجينها».



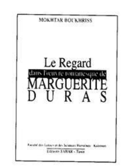


- Le regard dans l'œuvre romanesque de Marguerite Duras

* Mokhtar Boukhris
* Faculté des lettres et des sciences humaines - Kairouan
* Edition SAHAR 2006

L'Introduction générale du livre indique que «ce travail se propose d'étudier le regard dans l'œuvre de Marguerite Duras en se fondant sur l'analyse de

- Moderato Cantabile (1958)
- Détruire dit-elle (1969).
- L'amant (1984)



- L'homme en Islam

* Abdelwahab bouhdiba
* Sud éditions - Tunis 2006

L'islam étant porteur des les origines d'un projet culturel qui repose sur l'homme «.... Le présent essai dégage les fondements et les grandes lignes de ce projet, en analyse l'objet et les sens et montre comment il a pris corps notamment dans le droit, les lettres, la philosophie et la mystique soufie, instituant ainsi une vision humaniste universelle d'une étonnante modernité».

Abdelwahab Bouhdiba

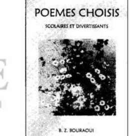
L'Homme en islam

Sud Editions - Tunis

- Poèmes choisis

*B.Z. Bouraoui
* Tunis 2006

Un recueil de poèmes qui contient quarante poèmes que l'auteur qualifie, dans la préface, de simples et clairs, disant de l'ensemble des textes qu'il «porte un effet culturel et divertissant. Les poèmes sont riches d'expression de vocabulaire et agréables à lire».



- Hymne à la linguistique

* Trabelsi Houda
* Bizerte 2006

Un recueil de quarante poèmes que la poétesse dédie à «tous les partisans de la linguistique et de la poésie».

